تاريخ العرب

منذ البدايات حتى عصرنا الراهن

ألف عام قبل الميلاد إلى نهاية الحرب العالمية الثانية

الجزء الرابع

نضال حركة التحرر العربية ضد

السيادة الاستعمارية الهيمنة الأجنبية

1945 -1917

تأليف فريق من الباحثين

برئاسة : البروفسور د. لوثر راتمان

ترجمة : د. ضرغام الدباغ

تاريخ العرب

منذ البدايات حتى عصرنا الراهن

ألف عام قبل الميلاد إلى نهاية الحرب العالمية الثانية

الجزء الرابع

نضال حركة التحرر العربية ضد

السيادة الاستعمارية الهيمنة الأجنبية

1917 -1945

تأليف فريق من الباحثين

برئاسة : البروفسور د. لوثر راتمان

ترجمة : د. ضرغام الدباغ

الطبعة الأولى صادرة عن

المركز العربي الألماني / برلين 2021

المطبوع رقم (62)

يوزع مجاناً

فهرس

الفصل الأول : أسس المقاومة ضد الاستعمار في المغرب.....05

1. الكفاح المسلح لقبائل الريف في المغرب 1921-1926.....06
2. الإمبريالية الفرنسية تشدد من سيطرتها.....16
3. السياسة الاستعمارية الفرنسية، وبدء مرحلة جديدة للنضال 17
4. الحركة الوطنية في أعوام 1932-1934.....19
5. تأثيرات الأزمة الاقتصادية العالمية والحركات الاجتماعية.....21
6. الحركة الوطنية في القطاع الأسباني.....23
7. الانشقاق في(لجنة الحركة) والمظاهرات المعادية للاستعمار لعام 1937.....24

الفصل الثاني : النضال التحرري للشعب الجزائري.....27

1. التبدلات في العلاقات الاجتماعية.....28
2. نشوء منظمات سياسية وطنية ونضالها ضد السيادة الاستعمارية.....30
3. تأثير الأزمة الاقتصادية العالمية والحركة الوطنية من 1936-1939.....35

الفصل الثالث : تكون الحركة التحررية في تونس.....38

1. الوضع بعد الحرب العالمية الأولى.....39
2. تأسيس الحزب الدستوري.....41
3. آثار الأزمة الاقتصادية العالمية.....42
4. انتظام قوى جديدة في الحزب الدستوري.....43
5. قيام الحزب الدستوري الجديد، الفعاليات الجماهيرية لعام 1939.....45
6. الحركة الوطنية في مرحلة الجبهة الشعبية.....46
7. الحركات الجماهيرية المعادية للاستعمار لعام 1938.....48

الفصل الرابع : المقاومة الليبية ضد الاحتلال الاستعماري للفاشية الإيطالية.....49

الفصل الخامس : التعبيرات الأيديولوجية للنضال المعادي للاستعمار.....57

1. الإسلام والنضال المعادي للاستعمار.....60
2. الحركة القومية العربية.....66

3. الأفكار الاشتراكية في حركة التحرر العربية.....77

الفصل السادس : التطور الثقافي وحركة التحرر في الأقطار العربية.....85

1. النضال من أجل التعليم الوطني.....89
2. التطور التقدمي في الثقافة.....93
3. عزلة المسرح ـ شعبية السينما.....96
4. اتجاهات التطور في الصحافة.....98
5. التحديث والوطنية في الفنون التشكيلية.....100
6. الوطنية في الموسيقى.....192

إجمالي الفصل 103

الفصل السابع : الأقطار العربية في الحرب العالمية الثانية.....105

1. أهداف الحرب الإمبريالية.....106
2. العدوان الفاشي والتطور في البلاد العربية 1939-1942.....109
3. هزيمة القوى الفاشية في شمال أفريقيا ونهوض حركة التحرر العربية 115

الفصل الثامن : ملاحظات ونظرة عامة.....123

محررو الجزء الرابع، الأساتذة:

الفصل الأول : هيلموت نيمشوفسكي
الفصل الثاني : هيلموت نيمشوفسكي
الفصل الثالث : هيلموت نيمشوفسكي
الفصل الرابع : لوثر راتمان
الفصل الخامس : غيرهارد هيب
الفصل السادس : ديتر بيلمان
الفصل السابع : غيرهارد غيرد
الفصل الثامن : لوثر راتمان

الفصل الأول : أساس المقاومة المعادية للاستعمار في مراكش

1. الكفاح المسلح لقبائل الريف ضد السيادة الاستعمارية في المغرب 1921-1926.
2. الإدارة الاستعمارية الفرنسية تشدد من سيطرتها.
3. السياسة البربرية الفرنسية وبدء مرحلة جديدة للنضال المعادي للإستعمار.
4. الحركة الوطنية في أعوام 1932 - 1934.
5. تأثيرات الأزمة الاقتصادية العالمية والحركات الاجتماعية.
6. الحركة الوطنية في القطاع الأسباني.
7. الانشقاق في (لجنة الحركة) والمظاهرات المعادية للاستعمار لعام 1937.

أولاً: النضال المسلح لقبائل الريف ضد السيادة الاستعمارية الإسبانية ـ الفرنسية 1921 - 1926

كانت القوات الفرنسية أثناء الحرب العالمية الأولى قد احتلت الجزء الأعظم من مساحة مراكش، وكان الفلاحون والرعاة قد أبدوا ضروب من المقاومة الباسلة، لكن تفوق الغزاة العسكري واستخدامه للأساليب الهمجية في الحرب أرغمت الكثير من القبائل على إيقاف القتال.

وكانت ممارسات المستعمرين في إبادة المحاصيل وتدمير الآبار ومخازن الغلال، واستخدام الخلافات بين القبائل ورشوة بعض قادتهم من الأساليب الرئيسية للجيش الفرنسي في حربه الاستعمارية. وعلى هذا النحو كانت الإدارة الاستعمارية برئاسة المارشال لياوتي Lyautey قد تمكنت خلال الحرب العالمية الأولى من احتلال بعض المواقع، ثم توسعت وشملت مناطق أخرى في البلاد، ووضعها في خدمة اقتصاد الحرب للدولة الفرنسية، إذ كانت تشتري كميات كبيرة من الحبوب والماشية والأصواف بأسعار مخفضة، وبذلك لم يعد بالإمكان تلبية حاجات السكان المحليين إلى تلك المواد، بالإضافة إلى أن المستعمرين أرغموا 44 ألف مواطن مراكشي على الانضمام للجيش الفرنسي.

وكانت مقاومة الفلاحين والرعاة المراكشيين في بعض مقاطعات البلاد ما تزال قوية، ولهم في ذلك دافع ومحرك جديد، إذ كان عملاء القيصر الألماني يحاولون(ولكن دون نجاح) استغلال الانتفاضة في مناطق السوس(جنوب غرب مراكش) وفي شمال مراكش من أجل مصالحهم الإمبريالية في الحرب. وعندما صمتت المدافع في أوربا كانت المقاومة ما تزال دائرة ضد الاستعمار شمال تازا في شمال وجنوب غرب القسم الأوسط من جبال أطلس، وكذلك في تافيليلت، وفي هذه المنطقة ذات المسالك الوعرة دافعت القبائل المحبة للحرية بضراوة لبضعة سنوات ضد المحتلين.

وبعد أن تم تأسيس نظام الحماية وفرض على مراكش عام 1912، كانت إسبانيا قد بدأت أيضاً باحتلال المنطقة التي تركتها لها فرنسا في شمال البلاد وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى كانت قد نجحت بوضع شريط ضيق تحت سيطرتها المباشرة يمتد بمحاذاة سواحل المحيط الأطلسي والبحر المتوسط، ثم مضت الحكومة الإسبانية دون إبطاء في إقامة شراكة مع الشركات الألمانية في نهب المكامن الثرية للحديد والنحاس والرصاص والزنك، وأقيمت المناجم، والشوارع والسكك الحديدية(لغرض نقل القطعات العسكرية، وكذلك لشحن خامات المعادن).

وانتظمت قبائل البربر في مناطق الريف، والتي تسمى أيضاً بقبائل الريف في قتال دفاعي في عمليات التصدي الناجحة لقوات الاحتلال، فأوقفوها وأعادوها إلى الوراء. وعندما لم يكن بالإمكان القضاء على المقاومة بقوة السلاح، حاولت السلطات الاستعمارية التوصل إلى أهدافها من خلال تقديم الرشاوي إلى قادة القبائل المتنفذين، وهكذا عقدت تلك السلطات عام 1915 اتفاقية مع قائد قبائل الجبال محمد الرايزوني، وفيها اعترفت بالسلطة الإقطاعية المحلية، بل وقامت بتجهيزها بالسلاح. وكرد على هذه البادرة قام محمد الرايزوني بمساعدتهم بالاستيلاء على مرتفعات السواحل بين العرائش وطنجة، كما بذلت السلطات الاستعمارية الإسبانية الجهود من أجل أن تكسب عبد الكريم الخطابي قائد بني أورياجال Oriaghal (وهي أكبر قبيلة في منطقة الريف) من أجل التعاون والعمل المشترك وقد قاموا بدعوة أولاده للانتظام في الخدمة لديهم. وكان أكبر أولاده محمد المولود عام 1883 الذي أصبح لاحقاً قائداً للانتفاضة، قد درس

العلوم الدينية في تطوان ثم عمل كمدرس لمدة لمدة ثلاث سنوات في فاس، وأصبح فيما بعد قائداً للمدينة وما جاورها من أرجاء. وفي عام 1915 قذفت به السلطات الاستعمارية في المعتقل لمدة أحد عشر شهراً لأنه لم يكن مستعداً لقبول السياسة الاستعمارية والعمل بموجبها، وكان شقيقه يدرس خلال الحرب العالمية الأولى في مدرسة هندسة المناجم بمدريد، ثم أكمل تدريباته في الجيش الإسباني، وأقام العلاقات مع أعلى الأوساط الحكومية. إلا أن كافة المحاولات في استغلال عائلة الخطابي لصالح الأهداف الاستعمارية باءت بالفشل، وبصفة عامة فإن هذه الأساليب والخطط التي طبقها الإسبان لم تنجح إلا قليلاً مع أغلب القبائل في منطقة الريف.

و السبب في ذلك إنما يكمن في الفروق الاجتماعية البسيطة، إذ لم يكن بوسع قائد القبيلة غالباً من استخدام نفوذه والسلطات التي تمكنه بصفة مؤقتة من بسط سيادته على أفراد القبيلة، كما كان مرتبطاً في تعامله وقراراته بمجلس شيوخ وحكماء القبيلة.

وساد العنف المجرد في الواقع العملي للسيادة الإسبانية في مراكش الذي كانت الفئات الدينية المتعصبة تحركه، وكانت الإدارة الاستعمارية قد ألزمت الفلاحين المراكشيين على العمل الإجباري(السخرة) في أراضي كبار الملاكين الإسبان، وعلى احتقار التقاليد والعادات المحلية للسكان والمعطيات الاجتماعية/الاقتصادية. وقد لاحظ القائد السوفيتي البارز فرونزة M.W.Frunze بأن على العكس من الفرنسيين الذين كانوا قد تمكنوا من الاستيلاء على السلطة في البلاد، واحتفظوا بجهاز الإدارة القديم لمواصلة العمل، في حين لم يكن لدى الإسبان نظام معين، وكانوا يتأرجحون لسنوات طويلة بين الأساليب الإدارية التي أخذوها عن الفرنسيين، وبين أساليبهم الذاتية المطبقة بأدوات الضغط العسكري/السياسي، وكانت نتائج ذلك غير مرضية مطلقاً. ولم يجد الإسبان من يساندهم سواء في الفئات الدنيا من الجماهير، أو الفئات الاجتماعية العليا كما فشلوا طوال سنوات سيادتهم من خلق مصالح اقتصادية بينهم وبين السكان المحليين، كما لم يقدموا للبلاد شيئاً بمعنى التطور للقوى المنتجة. بينما كان الفرنسيون قد أقاموا فعاليات اقتصادية هائلة مثلت الأساس والأرضية لصلاتهم مع الفئات العليا، في حين أن الإسبان لم يفعلوا أكثر من شبكة معسكرات ومواقع عسكرية ترتبط فيما بينها بشبكة من الشوارع العسكرية".(1)

وكان الوضع أشبه بالبؤرة التي يمكن أن تشع منها المقاومة في أي لحظة إلى أجزاء أخرى من البلاد، وأن تشتعل لهيب الانتفاضة وهذا الوضع كان يقلق الأوساط الحاكمة الفرنسية والإسبانية. فمن أجل نهب البلاد كانوا يحتاجون إلى (الهدوء والنظام)، من أجل ضمان نشاط المصارف: بنك دو باري Baq du Paris وبنك دي أونيون باريسيان Banq du Union Parisienne وبنك روتشيلد Banq Rothschild والشركات نورت أفريكانو Nort Africano وميناس الريف Minas del Rif وكذلك مجاميع مالية أخرى لغرض استغلال الثروة المعدنية في مراكش، تأمل بتحقيق أرباح عالية لذلك فقد ضغطت على حكوماتها من أجل إنهاء المقاومة.

وتمكنت القوات الفرنسية بفضل استخدام كثيف للطائرات والمدفعية عام 1923 من إخضاع الجزء الأعظم من القبائل المنتفظة في أرجاء جبال أطلس الوسطى وفي ريفها، ومنطقة تادلا، ولكنهم لم يتمكنوا من كسر مقاومة القبائل شمال وجنوب تازا، بل أنهم حصلوا من خلال النضال التحرري لقبائل الريف على دوافع معنوية جديدة.

*** هزيمة الجيش الاستعماري الإسباني بالقرب من أنوال:**
كان القوميسار الإسباني الأعلى المعين حديثاً، الجنرال بيرينجور Berenguer قد وضع في نهاية عام 1918 خطة ليحتل بها مناطق الريف، وفي بداية 1919 هاجمت القوات الاستعمارية

من المنطقة الغربية في منطقة جبال القبائل، وبدأ انسحاب مقاتلي الرايزونز إلى الجبال. وقد حاول الغزاة استمالة زعيم بني أوريجال كعميل لهم ولكن جميع تلك المحاولات فشلت.

وكان عبد الكريم الخطابي يحاول في البدء التعاون قدر الإمكان مع الإسبان، لكنه سرعان ما اقتنع بأهدافهم الاستعمارية النهابة وشراسة أساليبهم في فرض الحماية على شعبه، فقام عام 1919باستدعاء أولاده وأمرهم بالعودة، وقد عقد العزم على تفادي الاصطدام المسلح مع القوات المحتلة. وفي غضون ذلك اتخذ الجيش الإسباني أسلوب الهجوم، واحتل في تشرين الأول مدينة شيشون وقام عملاء الإسبان بأعمال نهب وسلب وإشعال الحرائق في قرى وسط منطقة الريف، وبذلك أصبح الصراع مع المحتلين أمراً لا يمكن تفاديه. وقد اتخذ عبد الكريم الخطابي استعداداته من أجل الدفاع. وبعد وفاة عبد الكريم الخطابي المفاجئة، واصل ولده الكبير محمد العمل النضالي وحمل اسماً أطلقه عليه الناس: عبد الكريم الخطابي.

وفي كانون الثاني ـ يناير/1921، هجم الجنرال سلفستر Selvestre بجيشه البالغ عدده 24 ألف رجل، المسلح جيداً منطلقاً من بلده مليلة إلى داخل الريف، ولكن هذه الجهود لم تسفر عن نجاحات تذكر، ولم يكن لدى عبد الكريم في البداية أكثر من 500 رجل لصد وإيقاف العمليات العسكرية الإسبانية، لذلك دار قتال غير متكافئ وكان مقاتلو الريف يمتلكون أسلحة نارية قديمة جداً تعوزها الذخائر، فيما كانت تبذل جهود كبيرة لضبط المقاتلين في الوحدات النضالية. وفي لهيب النضال تمكن عبد الكريم من خلق قوات نظامية ضاربة، وبعد تحقيق انتصارات صغيرة في المعارك خاضوا مع المحتلين معركة بالقرب من **أنوال** للفترة من 21 وحتى 26/يوليو ـ تموز/1921، وألحقوا بهم هزيمة قاسية. وقد أُبيدت القوة الإسبانية بصورة تامة وانتحر الجنرال سلفستر بعد هذه الكارثة الكبيرة التي لحقت بالقوات الإسبانية.

أما قوات عبد الكريم ومقاتليه فقد غنموا في هذه المعركة 250 مدفع مع ذخائرها، و300 رشاشة آلية، وملايين الطلقات. وقد أمكن بهذا السلاح تسليح الكثير من المقاتلين الجدد، انتقلوا إلى جانب مناضلي الحرية وأطلقوا الانتفاضة في الأماكن التي يحتلها الأعداء، وكان على الجيش الإسباني قطع هجومه والانسحاب إلى منطقة الساحل.ولكن الوحدات الريفية المقاتلة لاحقت العدو وتمكنت في 5/ آب ـ أغسطس/1921 من تحقيق نجاحات بالقرب من جبل أرويت، وطاردوا الإسبان حتى أسوار مدينة مليلة.

وبهذه الانتصارات لم يكن عبد الكريم الخطابي قد دافع عن منطقة الريف فحسب، بل ومناطق أخرى كثيرة حررها من قوات الاحتلال الاستعمارية. ويتحدث الخطابي قائد قبائل الريف في مقابلة صحفيه له عام 1057 عن الموقف العسكري وعن عناصر قوة الفلاحين والرعاة في الريف بقوله: " لقد قذف المحتلون بجيش مؤلف من عدة آلاف من الرجال المدربين جيداً والمسلحين بأسلحة آلية وافرة، وأيضاً بأسلحة ثقيلة إلى ميادين القتال، ولم تكن قوانا في البداية تتجاوز الخمسمائة رجل، مسلحين ببنادق قديمة من طراز ريمنغتون، وعلى الأغلب كان ينقصها مخزن العتاد(مخزن الطلقات الملحق بالبندقية ـ المترجم) وببعض القليل من بنادق ماوزر، ولم نكن نمتلك الرشاشات وكذلك المدافع، وفي الأيام الأولى لم يكن لدى المقاتل أكثر من طلقتين أو ثلاث.

وإلى جانب ذلك ففي المرحلة الأولى للقتال كان تنظيم الانتفاضة وأفشل مقاتلونا وبانضباط عال العديد من المحاولات لقمعها، إذ كان جنودي في الشهر الأشهر الأولى يأتون ويذهبون كما يحلو لهم وفي وقت الحصاد، أو البذار، كانوا يغادرون ميادين القتال بوحدات كاملة إلى وديانهم ولا يعودون إلى جبهات القتال إلا بعد أن ينتهي وقت العمل في الحقول، ومن المؤكد أن ظروفاً

بالغة الصعوبة في بناء جيش تحت نيران العدو، كما كلفت مجهودات هائلة لحمل المقاتلين على إطاعة وتنفيذ الأوامر، ولكننا نجحنا في ذلك خطوة فخطوة، وبحصولنا على الغنائم من قتلى الإسبان ومن قوافل الإمداد والتموين، استطعنا أخيراً أن نسلح عناصرنا، والأشهر التي كان العدو فيها يعاني من الإصابات والإنهاك المعنوي، والتي كان يحتاج إليها من أجل أن يلم صفوفه ويستريح، منحتنا الفرصة الثمينة لإعادة تنظيم صفوفنا الدفاعية والاستعداد التام ".(2)

وعن أسباب نجاح النضال العسكري التحرري للريف قال عبد الكريم الخطابي:
"إن الميزة العظمى لنا تكمن في تلك الأيام التي كنا نتفوق فيها على العدو، وبمقاتلينا الذين يعرفون مناطق الجبال معرفة وثيقة، وكذلك بقتال الجبال من حيث معرفة العديد من الممرات الخفية في الجبال، ومتى وأين يوجد الماء ويعرفون موقع كل حجر وصخرة في ميادين القتال حتى في الليل. وعن التجارب القتالية فإننا قد اكتسبناها منذ نزاعات القبائل، ومن سلسلة تجارب وفعاليات حروب العصابات التي كان شعبنا يدافع بها عن نفسه ضد الإسبان منذ عام 1909، وإن سر انتصارنا يكمن في أن كل من يقطن منطقة الريف سواء كان رجلاً أو امرأة أو طفل على قناعة عميقة بعدالة نضالنا وضرورة الاستقلال. إن وحدة إرادة النضال التي لا تلين كانت مؤثرة في ميادين القتال".(3)

*** تأسيس جمهورية الريف وأهميتها:**
برغم الهزيمة المرة واصلت الأوساط الحاكمة في إسبانيا حرب الاحتلال قدماً فبعثت (وحتى دون اعتبار للاحتجاجات المتنامية للشغيلة في بلادها) بتعزيزات عسكرية إلى مراكش، وفي أيلول ـ سبتمبر/1921، شن الجنرال بيرنكوير Berenguer في أنحاء مدينة مليلة هجوماً جديداً(وكانت المعركة قد اندلعت ضد الرايزوني)، وتمكن ولكن بعد تقديم خسائر كبيرة، أن يعيد الاستيلاء على المناطق التي كان الجنرال سلفستر يحتلها قبل معركة أنوال، ولكنه لم يتوغل إلى داخل مناطق الريف.

وفي غضون ذلك كان عبد الكريم قد اتخذ الإجراءات لرفع القوة القتالية لقواته وترسيخ مواقعها الخلفية، وكانت الانتصارات العسكرية قد زادت من قدراته وشأنه أمام قبائل الريف، وزادت من عزيمته وقوة معنوياته على المقاومة. وفي أيلول ـ سبتمبر/1921، اجتمع شيوخ القبائل وكانت آراء عبد الكريم وتوجهاته هو حث القبائل على التوحد في عصبة أو اتحاد، وتم إلغاء جميع الاتفاقيات التي تمس بسيادة مراكش تلك التي لها علاقة باتفاقية الحماية لعام 1912، والمطالبة بجلاء الإسبان عن مناطق الريف وتترك لهم فقط مدن سبتة ومليلة وضواحيهما القريبة، وعدا ذلك فإن على إسبانيا الالتزام بتعويض الخسائر التي لحقت بسكان منطقة الريف منذ عام 1909. وقد أكد قادة القبائل على استعدادهم بإقامة علاقات الصداقة مع كافة الدول وعقد الاتفاقيات معها، ومنحوا عبد الكريم لقب " أمير المؤمنين" وانتخبوا مجلساً سمي بالتجمع الوطني(القومي) الذي أعلن عن استقلال جمهورية الريف وانتُخب عبد الكريم الخطابي رئيساً لها.

ومنحت السلطات والصلاحيات لعبد الكريم من أجل خوض النضال ضد إسبانيا انطلاقاً من الدولة التي نهضت (جمهورية الريف) والتي تبلغ مساحتها 20 ألف كيلومتر مربع وسكان يبلغ عددهم 850 ألف نسمة، وكانت تمثل تحالف القبائل ضد الاحتلال الاستعماري.

ولم يشأ عبد الكريم أن يجعل من شمال مراكش منطقة محررة من الاستعمار، بل وفي نفس الوقت مجالاً للعمل الاقتصادي والاجتماعي، وإزالة التخلف، ووضع البلاد على طريق التطور والتقدم من أجل أهداف ترتقي بوضع البلاد والسكان، ومن استثمار الثروات الطبيعية وبناء

الشوارع والمصانع، وكان عبد الكريم قد عقد العزم على المضي في إصلاحات ليبرالية وعلى تحسين حياة الفلاحين والرعاة وصيادي الأسماك، ولكن القوى الاستعمارية أعاقت بحربها الاستعمارية تحقيق هذه الخطط.

استمرت دولة الريف أربع سنوات فقط، وقد تحقق خلال هذه الفترة القصيرة رغم القتال مع الإسبان (وأيضاً بعد عام 1925 ضد السلطات الفرنسية) الكثير من الإنجازات والتحولات الهامة، فقد تمكن عبد الكريم من تأسيس سلطة دولة منظمة، كان البرلمان الذي أسس حديثاً يمثل أعلى سلطة في البلاد، وكان أعضاؤه(ثمانين عضواً) يمثلون القبائل، وكانت الحكومة مسؤولة تجاه البرلمان الذي كان له طبيعة مؤسسة حكومية في ضل الأنظمة الجمهورية والتي تطورت في المجتمع القبلي إلى الديمقراطية العسكرية. وسمّى عبد الكريم من بين العديد من أتباعه أعضاء حكومته، وأرسل مبعوثين إلى القبائل حيث جرى تحديد سلطات قادة القبائل، ولم يكتف بوضعهم تحت سيطرة وزارة الداخلية بل وأمام التجمع الشعبي(الجماعة) الذي استعاد نفوذه وتقديره وصلاحياته. أما قادة القبائل الذين لم يدعموا السلطة المركزية فقد كانت أراضيهم ومواشيهم تخضع للمصادرة وتوزع على الفلاحين.

وتشكلت بناء على طلب من الحكومة وحدات من الفدائيين، وجرت تعبئتهم إعلامياً وفق أساليب حديثة، كما تأسست مدارس مهنية في القرى، ومدرسة مركزية في أغادير عاصمة الريف، وتم بنجاح إنشاء محكمة استئناف كانت تنظر في النزاعات بين القبائل، ووضعت العقوبات الشديدة لجرائم الفساد الإداري وكان لذلك أهميته البالغة.

ولاقت هذه الإصلاحات الإعجاب والحماس والدعم من الفلاحين والرعاة والصيادين والحرفيين وصيادي الأسماك. وفي عام 1925 قررت قبائل حمر في الريف الاتحاد. ومن أجل توفير حماية حقيقية من القوى الاستعمارية، قام عبد الكريم بتأسيس الجيش النظامي الذي كان تعداده عام 1923 قد بلغ 5 آلاف رجل مجهزين بالأسلحة اليدوية الحديثة(بنادق) والمدفعية من الجنود المجربين. وكانت وحدات المشاة الصغيرة المتحركة تعتمد على دعم مقاتلي القبائل، وكان عددهم يبلغ حوالي 50 ألف مقاتل، وكانت جمهورية الريف مسلحة بشكل يكفي لصد الهجمات المعادية بنجاح، التي قامت بها إسبانيا في نيسان - أبريل/1923 في منطقة جبال القبائل حيث كان القائد القبلي الرايزوني قد انضم إلى الأعداء لقاء رشوة.

وبعد جهود لا طائل منها أراد عبد الكريم أن يدفع الحكومة الإسبانية من خلال التفاوض إلى الاعتراف بدولة الريف المستقلة. وفي حزيران - يونيو/1924 قامت القوات في الجبهة المغربية بالهجوم، وفي مجرى القتال نهضت أيضاً القبائل في محيط مدينة تطوان/شيشاون ضد الإسبان، وانضموا إلى القتال التحرري على الرغم من أن الجيش الاستعماري كان يتلقى تعزيزات جديدة إلا أنه لم يتمكن من الحفاظ على مواقعه فأقدم على الانسحاب. وفي أيلول - سبتمبر/1924 تعرضت حامية شيشان بتعدادها البالغ 15 ألف جندي خلال انسحابها إلى الإبادة، وزحفت القوات المسلحة لجمهورية الريف حتى بلغت مدينة تطوان عاصمة القطاع الإسباني، وأرغمت الأعداء على الانسحاب من ثلثي الأراضي التي يحتلونها.

وقد تكبد جيش الاحتلال خسائر فادحة، إذ قتل وجرح 20 ألف جندي، وأسر 7 آلاف منهم، واستولى مقاتلو التحرير على كميات كبيرة من المعدات الحربية، وفي نهاية عام 1924 بلغت الجمهورية من حيث المساحة الجزء الأعظم من القطاع الإسباني، وقد أصبحت عنصراً لا يمكن تجاهله في نضال الشعب المضطهد ضد السيادة الاستعمارية الإسبانية.

وعززت انتصارات قوات الريف على الجيش الإسباني المتفوق في السلاح المتطور، وعمقت من وعي قبائل جبال الأطلس في مواصلة المقاومة. وفي المدن الواقعة في القطاع الفرنسي أيضاً، وكان لنضال قبائل الريف صداه المؤثر، بل إن قوة إشعاعها لم يقتصر على مراكش فقط، بل أن الشعب الجزائري الذي كان قد انتفض في القرن التاسع عشر مرات عديدة ضد السيادة الاستعمارية تابع النضال تحت قيادة عبد الكريم وساهم فيه بحجم كبير. ويكتب القائد السوفيتي فرونزة عام 1925 عن ذلك قائلاً: "إن النصر اللامع الذي أحرزه عبد الكريم ضد إسبانيا نجم عنه على التو صدى عظيم لدى كافة مسلمي الشرق، هذا النصر الذي منح حركة التحرر القومية في البلدان المستعمرة قوة دفع عالية، وأصبح اسم عبد الكريم في عموم العالم الإسلامي محاطاً بهالة من التعظيم ورمزاً للآمال النامية للتحرر من طغيان الاستعمار، وإنه لواضح تماماً بأن تأسيس دولة الريف هو مثال بأن السيادة الإمبريالية في سائر البلدان والاحتفاظ بها هو أمر يتناقض بصفة مطلقة مع إرادة تلك البلدان، وينطبق ذلك في تهديد الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية في أفريقيا بصفة خاصة " .

*** العدوان الفرنسي على جمهورية الريف:**

كرر عبد الكريم على الحكومة الإسبانية طلبه بالاعتراف باستقلال دولة الريف، وإخلاء كامل منطقة القطاع الشمالي(عدا سبتة ومليلة) ودفع التعويضات عن الأضرار، ولكن المفاوضات الجارية بين الطرفين فشلت في تموز - يوليو/1923 وكذلك في نوفمبر - تشرين الثاني/1924، لأن الأوساط الحكومية الإسبانية والعسكرية الحاكمة لم تكن على استعداد لتحقيق الطلبات الشرعية لجمهورية الريف، وكان العرض الذي كان قد أعد من قبل مجموعة برلمانية إسبانية بمنح مناطق الريف الإدارة الذاتية وكذلك بدفع مبالغ وأسلحة إلى القبائل، مشروطاً بتحريض مواطنيهم في القطاع الفرنسي بهدف حمل بعض قادة القبائل على الخيانة وتحريضهم على القيام باستفزازات للجيش الفرنسي.

وأدرك عبد الكريم الخطابي ما وراء هذا المخطط، وفعل كل شيء من أجل تجنب الحرب وترسيخ دولته وتحقيق إصلاحاته لذلك فإنه كان بحاجة للسلم، وكما يرد ذلك في مذكراته، لم يكن قد اعترف بعد بجوهر سيادة الحماية الفرنسية، وكان تحت تأثير وانطباع الفعاليات الاقتصادية للرأسمالية الفرنسية في مراكش، وكان يرغب في التعاون معهم من أجل تطوير البلاد بقدر ما هو ممكن، وكانت الأوساط الفرنسية ذات النفوذ المالي قد تلقت هزيمة الجيش الإسباني بتشفي وفرحة لا يمكن إخفاؤها، وسعت في أن تمد سيادتها حتى على القطاع الشمالي.

وبذل عبد الكريم مساعيه في استغلال التناقضات بين فرنسا وإسبانيا، فقد حاول منذ عام 1922 من خلال الاتصالات التي أجراها مع حكومات باريس ولندن أن ينال منهم الاعتراف باستقلال دولة الريف وكذلك على مساعدات اقتصادية، ولكن القوى الاستعمارية لم تكن تريد الاعتراف بوجود واستقلال دولة الريف. وكانت أصداء معارك وانتصارات الفلاحين والرعاة التحريرية في شمال مراكش قد دوت في كافة أرجاء شمال أفريقيا، بل وإلى أبعد من ذلك إلى كافة الشعوب العربية، وسرعان ما أثارت لدى الأوساط الحاكمة الفرنسية المخاوف على أمن مستعمراتها.

وبينما كان عبد الكريم ما يزال يواصل جهوده في تحقيق تفاهم مع فرنسا وتجنب كل ما يمكن أن يكون مبرراً وحجة لإثارة النزاع ومقابل ذلك كان الماريشال ليوتي Lyautey ماضياً في إعداد خططه واستعداداته لغزو جمهورية الريف، وكانت استخباراته تستطلع شمال طرابلس بالتعاون مع شبكة من الجواسيس والمتعاونين، وقد حصل على معلومات دقيقة عن تنظيمات دولة الريف وعن تركيب القوات المسلحة ودور وقدرات الشخصيات القيادية.

وفي 27/ أيار - مايو/1924تقدمت القوات الفرنسية في وادي نهر أورغا، وبدأت بإقامة الاستحكامات وكانت هذه المنطقة بموجب الاتفاقية الموقعة بين فرنسا وإسبانيا تعود إلى القطاع الفرنسي، وكان سكان هذه المنطقة حتى ذلك الوقت قد قاوموا بنجاح جيوش الاحتلال ووضعوا أنفسهم تحت إمرة عبد الكريم، وكان زحف القوات الفرنسية يعد عملاً ضد سيادة دولة الريف واستفزازاً لها، وفوق ذلك فقد حدث أن القبائل التي كانت تعيش شمال نهر أورغا قد قطع عليها قواعد الإمداد، وفي مطلع عام 1925 عزز الماريشال ليوتي القوات على حدود دولة الريف، وبدأ عملاء وجواسيس فرنسا بتحريض القبائل ضد عبد الكريم.

وحتى في هذه الظروف التي كانت تهدد أمن دولة الريف، كان عبد الكريم يحاول تجنب مجابهة واضحة ومفتوحة مع القوى الاستعمارية، بل أنه أعلن عن استعداده إخلاء المنطقة التي تثير اعتراضات فرنسا عليها، وحاول من حين لآخر أن يثبت الحدود تثبيتاً دقيقاً، ولكن السلطة الاستعمارية الفرنسية كانت قد وضعت تصفية جمهورية الريف هدفاً لها، ومضت أشهر أخرى عديدة إلى أن قرر فيها عبد الكريم المقاومة، وكان ذلك عندما بدأت القبائل تعاني من تهديد الجوع، وبدأت القتال اعتماداً على نفسها، وكان خطر نشوب النزاع بين القبائل ماثلاً، وهكذا قامت قوات الريف بتاريخ 13/ نيسان - أبريل/1925 بالهجوم على مواقع الأعداء في وادي أورغا، وسرعان ما بدأت القوات الفرنسية بشن هجماتها مستخدمة الطائرات والدبابات والمدفعية والغازات السامة، وكان جزء كبير من الجيش الاستعماري يتألف من مرتزقة أجانب بما في ذلك ما يقارب 16 ألف شاب ألماني(كانوا يزجون في مواقع القتال الحرجة) بذلوا دماءهم من أجل الاحتكارات الفرنسية، والقليل منهم فقط أنهى هذه الحرب الظالمة بالانتقال إلى جانب مقاتلي الحرية، وانسحبت قوات الريف إلى الجبال وعادوا بالأساليب المجربة في قتال الفدائيين(العصابات) بنجاح، وقبل أن يتمكن الأعداء من زج قوات جديدة انتقل الجيش الريفي في أيار - مايو/1925 إلى الهجوم المقابل في جبهة طولها 800 كيلومتر، وكان الهدف هو احتلال فاس عاصمة مراكش القديمة، وتازا، وكذلك قطع طريق خط سكة الحديد التي تربط بين المدينتين إلى الجزائر والتي من خلالها كانت الإمدادات تصل إلى الفرنسيين.

وعلى الرغم من أن قوات الريف لم تتمكن من احتلال فاس وتازا، إلا أن السلطات الاستعمارية كانت في موقع صعب، إذ هرب السلطان إلى الرباط والتجأ الكثير من القبائل في منطقة جبال الأطلس الوسطى إلى السلاح، وكانت جماهير العمال والفلاحين والحرفيين والتجار والطلاب في المدن التي تقع في القطاع الفرنسي يظهرون تعاطفهم علناً مع عبد الكريم ووجدوا الدعم في نضالهم ليس فقط من الأوساط القومية في البلاد العربية، بل وأيضاً من الحركة العمالية العالمية.

*** تضامن الحركات الشعبية العالمية:**

نظمت القوى التقدمية الدولية حملات احتجاج ضد الحملة الفرنسية والإسبانية الظالمة في مراكش، أزاحت فيها الستار عن دوافع وأهداف الحرب الاستعمارية، ودعت فيها الطبقة العاملة في أوربا إلى التضامن مع نضال جمهورية الريف من أجل الحرية والاستقلال. وفي النداء الصادر عن الحزب الشيوعي في الثامن من حزيران - يونيو/1925، جاء فيه:" أنها الحرب الإمبريالية، وإنها موجهة من أجل اضطهاد شعب وأنها الحرب ضد استقلال الشعوب والتي تقوم بها الإمبريالية الفرنسية والإنكليزية والإيطالية وغيرهم من الاستعماريين المضطهدين، وإن الريفيين يقاتلون دفاعاً عن أنفسهم وعن استقلالهم باسم حق الشعوب في تقرير مصيرها".(5)

وبمساهمة رائعة من الحزب الشيوعي الفرنسي وبفعالية نضالية، كتبت قيادة الحزب في نهاية 1924 رسالة تحيي وتهنئ انتصارات عبد الكريم على المستعمرين الإسبان، وكانت رسالة التحية تضم هذه الكلمات:" ليعش استقلال مراكش، ليعش النضال العالمي لشعوب المستعمرات والبروليتاريا العالمية".(7)

وفي الوقت نفسه كانت لجنة فعاليات الشبيبة التقدمية في فرنسا وإسبانيا قد وجهت إعلاناً إلى جنود كلا البلدين وطالبتهم بأن يكونوا مع الشعب المراكشي المضطهد.(8)

وبعد أن قام الجيش الفرنسي بحملة الغزو على جمهورية الريف، توجهت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي إلى عمال وفلاحي فرنسا بأن يطالبوا الحكومة الفرنسية بالسلام والاعتراف بحق تقرير المصير لجمهورية الريف والجلاء الفوري عن مراكش.(9)

ومقابل هذه الشعارات كانت مجاميع اليمين الانتهازي قد أنكرت الحرب التحررية لجمهورية الريف ودورها التقدمي، وبدأت بدعم الحكومة ونشرت اللجنة التي كان الحزب الشيوعي الفرنسي قد ألّفها وعلى رأسها موريس توريز Mourice Thorez سوية مع اللجان التي شكلت في المعامل(وحدة البروليتاريا) وكذلك المجموعة التي تألفت من مجاميع المثقفين بقيادة هنري باربوس Henri Barbusse المسماة كلارتي Clarte، وغيرها من المنظمات نشرت التحريض ضد الحرب الاستعمارية التي يمقتها الشعب. وفي تموز- يوليو وحتى تشرين الأول - أكتوبر/1925، حدثت مئات التجمعات الاحتجاجية والمظاهرات، وكذلك مؤتمرات للعمال والفلاحين في المدن الفرنسية، والتي ساهم فيها فئات واسعة من الشغيلة والسكان، وأمام منصة البرلمان فضح التقدميون خلفيات الحرب الاستعمارية وفضحوا أهداف الرأسمالية، وأسقطوا الادعاءات الكاذبة لأوساطها عن (الدور الحضاري). وفي 9/ تموز - يوليو/1925، امتنع الجنود عن طاعة ضباطهم وكانت ذروة فعاليات الشغيلة ضد الحرب الاستعمارية في مراكش قد تمثلت في الإضراب الذي امتد لمدة أربع وعشرين ساعة، في 12/تشرين الأول - أكتوبر/1925 وساهم فيه 900 ألف عامل في أرجاء فرنسا.

وأكد الحزب الشيوعي الألماني والشبيبة الألمانية عن تحالفها مع النضال التحرري المراكشي، وقد كتبت صحيفة الحزب المركزية (الراية الحمراء) Rote Fahne مقالة رئيسية جاء فيها" إن حملة الجيش الفرنسي في مراكش هو مثال مدرسي لحملات السرقة والنهب، إن الشيوعيين والثوريين من العمال يقفون دائماً وفي كل مكان إلى جانب الضعفاء وإلى جانب الشعوب التي تناضل ضد السيادة الأجنبية وضد النهب الإمبريالي ويطالب كافة العمال من السكان أن يفعلوا الشيء ذاته، إن كافة شعوب المستعمرات التي تناضل ضد الاضطهاد الإمبريالي هي حليفة لنا لأنها في نضالها ضد الإمبريالية تضعف عدونا".(10)

كما أكد المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي الألماني في برلين الذي انعقد للفترة من 12 - 17 / تموز - يوليو/1925 في برلين، أكد فيه قرار تضامنه أيضاً مع النضال العادل للفلاحين والرعاة المراكشيين".(11)

*** جهود عبد الكريم السلمية :**

وبرغم النجاح الذي أحرزته القوات المسلحة التحررية لجمهورية الريف، فقد كان عبدالكريم واعياً بأنه سوف لن يكون بمقدوره على المدى البعيد مقاومة التفوق العسكري الفرنسي، وفوق ذلك كانت القيادة الإسبانية العليا تصد هجوماً جديداً وكان خطر الحرب يتنامى على جبهتين،

لذلك أعلنت حكومة الريف في تموز ـ يوليو/1924 أنها مستعدة لإيقاف القتال وعقد السلام مع فرنسا وإسبانيا وفق الشروط التالية:

- الاعتراف بدولة الريف واستقلالها بضمان من عصبة الأمم كحالة أفغانستان، وبحمل عبد الكريم الخطابي بوصفه حاكماً لدولة الريف لقب (أمير).
- تعترف منطقة الريف بالسلطان المراكشي بوصفه الحاكم الأعلى.
- ستكون الضفة الشمالية لنهر أورغا، الحدود الجنوبية لدولة الريف، وإن منطقة جبال القبائل بما في ذلك مدينة تطوان، العرائش، وأرزيلا تعود إلى دولة الريف.
- تبقى مدينة سبتة ومليلة مع الأراضي المحيطة بها ومناجم الحديد بيد الإسبان.
- يسمح لدولة الريف الاحتفاظ بجيش يتفق على حجمه.
- تتعهد دولة فرنسا وإسبانيا بحماية دولة الريف، وتقديم القروض لتطوير اقتصاد البلاد، وينالون مقابل ذلك الامتيازات في التجارة والاستثمارات الرأسمالية.
- يطلق عبد الكريم سراح كافة الأسرى الفرنسيين والإسبان.
- رفع حالة الحصار عن دولة الريف.

ولكن حكومتي باريس ومدريد قامتا برفض هذه الشروط كاملاً.

*** انهيار جمهورية الريف:**

كانت الأوليغارشية المالية الفرنسية والإسبانية، ومن أجل الحفاظ على سيطرتها وسيادتها على مراكش قد عقدت العزم على قهر ودحر النضال التحرري لقبائل الريف، ومن أجل تحقيق هذا الهدف أرسلوا قوات جديدة وأحدث المعدات الحربية بما في ذلك الطائرات والدبابات والمدفعية الثقيلة إلى مراكش لتعزيز القوات المسلحة الفرنسية المتمركزة هناك، ليرتفع عددها إلى 325 ألف رجل. كما تصاعد حجم الجيش الاستعماري الإسباني إلى أكثر من 100 ألف رجل، وهنا فإن أوامر الماريشال ليوتي في خوض غمار حرب نظامية لم تعد تجدي فتيلاً، فقد لجأ إلى تجارب الماريشال بيتان Petan عندما كان يشغل منصب القائد العام، وتصدى وضرب عصياناً قام به الجيش الفرنسي. وفي مؤتمر مدريد تموز ـ يوليو/1925 قررت كلتا القوتين الاستعماريتين التنسيق فيما بينهما لضرب ودحر جمهورية الريف بالقوة العسكرية المسلحة، وقامت السفن الحربية الإسبانية والفرنسية بضرب حصار على السواحل، وكانت القوى الاستعمارية تقدر حجم القوات العسكرية لعبد الكريم ب 40 ألف مقاتل في أفضل الحالات.

وفي 9/ أيلول ـ سبتمبر نزلت قوات إسبانية بحجم 20 ألف رجل في خليج الحسيماس واحتلت في 2/ تشرين الأول ـ أكتوبر/1925 مدينة أغادير عاصمة جمهورية الريف، وافتتحت القوات الاستعمارية الفرنسية في خريف عام 1925 هجوماً جديداً وبدأت بالزحف في الجنوب والشرق إلى مناطق الريف، وفي نفس الوقت شددت الجاسوسية الفرنسية من فعالياتها التخريبية فيما وراء الخطوط، ومن خلال الرشاوي والدعايات وتأجيج التناقضات الداخلية تمكنوا من إقناع العديد من القبائل بإلقاء السلاح.

وفي هذا الوضع الصعب عرض عبد الكريم في كانون الأول ـ ديسمبر/1925 السلام مرة أخرى، وبعد عدة مداولات انعقدت المفاوضات في 22/نيسان ـ أبريل/1926 في بلدة أود جدة بين مبعوثي عبد الكريم والمفاوضين الفرنسيين والإسبان، وطالبت القوى الاستعمارية بخضوع قبائل الريف تحت سلطة السلطان(وذلك يعني قوى الحماية.!) وإبعاد عبد الكريم عن منطقة الريف واستسلام القوات الريفية، وإطلاق سراح أسرى الحرب. وكانت هذه تمثل شروط صعبة

لا يمكن لعبد الكريم القبول بها لذلك قطعت المفاوضات، وفي 26/ أيار - مايو/1926 وصل القتال إلى مرحلته الختامية.

وبنتيجة الصراعات الداخلية المتنامية لم يعد لدى دولة الريف القوة للصمود أمام الهجوم الذي شنه الأعداء في مطلع العام، وقد توالى استسلام القبائل قبيلة أثر قبيلة للعدو المتفوق، ثم انسحب عبد الكريم مع آخر مقاتليه إلى الجبال بعد أن أصبحت المقاومة أمراً لا جدوى منه، ثم سلم نفسه أخيراً في 27/ أيار - مايو/1926 إلى الأسر الفرنسي، وتم إبعاده في آب - أغسطس من نفس العام مع عائلته إلى جزيرة رينيون Reunion.(12)

ويشير عبد الكريم الخطابي إلى أسباب هزيمة حركة الريف بعد مرور 13 عاماً بقوله: " إن انهيارنا كان بسبب التفوق العسكري المتزايد للعدو، فمنذ عام 1923 كانت الغازات السامة تستخدم ضدنا بشكل منتظم، وبنفس الوقت ابتدأ العدو بقصف ما وراء الجبهة من الجو بقنابل تصل زنتها إلى 100 كيلو غرام، وكان طيارو العدو ميالون إلى قصف الأسواق المفتوحة وفي أي ساعة من النهار. والهجمات الإرهابية(من هذا النوع) كلفت في مجرى السنة: خمسة عشر ألف ضحية من المدنيين لحياتهم، وكانت الطائرات المعادية تستخدم القنابل الحارقة وتغير على حقول الحبوب الناضجة وتشعل بها النيران، وبذلك أضافت حالة الجوع إلى جمهورية الريف.

وتقدم الإسبان والفرنسيون في الجبهة عام 1924 بجيش يبلغ تعداده 400 ألف رجل ضدنا، وبذلك كان ميزان القوى: واحد إلى عشرة لصالح العدو وبنفس الوقت، كانوا قد جلبوا مدافع ضخمة تطلق النار من مواقعها من مسافات بعيدة، وتسببت خلال سنة واحدة بقتل أربعة آلاف من جنودنا وأكثر من ذلك، وقف العدو أمامي مرات عديدة ليقاتل بطريقة الاغتيال(أي بعيداً عن روح الجندية والقتال الشريف - المترجم) وأخيراً وحد الفرنسيون والإسبان قيادتهم وكان يقف على رأس الجانب الفرنسي الماريشال بيتان وعلى الجانب الإسباني الجنرال فرانكو وآخرين، وعندما أطلقوا هجومهم الختامي كان موقفي العسكري قد أصبح ميؤوساً منه، بحيث بدا لي أنه من العبث مواصلة القتال".(13)

وبرغم الاندحار فإن النضال التحرري لقبائل الريف لم يكن عبثاً، فقد اشتد الإيمان لدى الشعب المراكشي بقوة موحدة، وطالب بعزم بتأسيس حركة تحرر وطنية موحدة للشعب المراكشي، وكان ذلك المسألة الرئيسية في نضال شعوب أفرو - آسيا ضد الاستغلال والنهب والاضطهاد الاستعماري.

وحتى بعد انهيار جمهورية الريف استمرت روح المقاومة تتوهج بشك متباعد وفردي في مناطق الجبال في الوسط، والمرتفعات، وفي جبال أنتي أطلس، كما في واحات تافليت، حيث دافع فيها الفلاحون والرعاة عن مقاطعاتهم وأراضيهم وحريتهم حيال هجمات المحتلين الاستعماريين في مواصلة للنضال لا تعرف التوقف.

ثانياً : الإدارة الاستعمارية الفرنسية تشدد من سيادتها

بعد انهيار انتفاضة الريف شددت الإدارة الاستعمارية الفرنسية وعززت من مواقع سلطتها، وكانت تمارس سياستها بقوة متصاعدة من خلال موظفيها مباشرة، وكانت السلطات والصلاحيات الحاسمة متركزة بيد المقيم العام على الرغم من أن واجبات مجلس الحماية لما يزل موجوداً، وكانت مراكش قد أصبحت في الواقع مستعمرة، إذ كان الجيش الريفي قد استسلم في النصف الثاني من العشرينات من المناطق التي كانت لما تزل حرة في المرتفعات وأواسط الأطلس. وفي نفس الوقت انتشرت البرجوازية الفرنسية الكبيرة تمارس فعاليات اقتصادية نشطة في استغلال للثروات الطبيعية للبلاد، وكان قد تسلل إلى مراكش 20% من الرأسمال الفرنسي المستثمر في المستعمرات الفرنسية، عملت في مجال بناء الشوارع و السكك الحديدية وبناء منشآت الموانئ وفي المناجم، وصناعة مواد البناء الشوارع، السكك الحديدية، وبناء منشأت الموانئ وفي المناجم وصناعة مواد البناء وفي بناء السدود ومصانع في مجال المنتجات الزراعية والسماد وفي أعمال التجارة وفي الاقتصاد. وكان الرأسمال الفرنسي والدولي يتسيد الموقف، وفي الدرجة الأولى المجاميع المالية مثل: بنك دو باريس، بنك أونيون باريسيان، روتشيلد بنك، بنك ميراباوفريرز Mirabau Freres واحتكار شنايدر Schneider وبنك ماس، وفي الأعوام 1927 حتى عام 1930 بلغت فعاليات الاستثمارات إلى ذروتها الأولى.

وبينما كانت مدن مهمة مثل فاس، مراكش، موغادور يمر تطورها بمرحلة جمود/ كانت مدن أخرى تزدهر مثل كازابلانكا(الدار البيضاء)، أودجدا، بورت لياوتي(القنطرة) ومدن غيرها، كما تحولت مدن وقصبات قليلة الأهمية إلى مراكز اقتصادية، وقد ازداد أعداد سكان المدن، ففي عام 1926 كان يعيش 585 ألف نسمة فقط في المدن، أما في عام 1939 كان العدد الأكبر قد أصبح 1،042،000 وقد أدى استيراد منتجات صناعية أوربية رخيصة إلى إفلاس أجزاء من الصناعات والحرف اليدوية التقليدية المراكشية: أعمال النحاس، حرفيات يدوية، الأصباغ، الأعمال الجلدية، إنتاج الأسلحة، صياغة النحاس، وتحول الكثير من العمال المهرة(الأسطوات) في الحرف اليدوية ومساعديهم إلى العمل بالأجرة اليومية، ومع تطور وسائل النقل زحفت أيضاً علاقات سلعة ـ نقود، وشاعت في كافة أرجاء مراكش وبدأ السكان في الخضوع شيئاً فشيئاً إلى قوانين الرأسمالية، وفي المراكز الاقتصادية نهضت الشغيلة وتطورت بصفة خاصة في المناجم وفي مجال البناء والموانئ، وقد بلغ حجم عمال الصناعات عام 1931 حوالي 45 ألف عامل، وكان 10% من هؤلاء من أصول أوربية.

وإلى جانب خلق البنى الارتكازية التي كانت في خدمة نهب الثروات الطبيعية للبلاد، فقد مضت البرجوازية الفرنسية الكبيرة في نهب البلاد(على غرار ما كانت تفعله في الجزائر)، وحتى عام 1935 كان قد انتزع من الفلاحين المراكشيين ومن خلال الضغوط الاقتصادية والاضطهاد واستخدام العنف، 840 ألف هكتار من أخصب الأراضي استغل الجزء الأعظم من ذلك شركات دوماينا بيني أماره Domaine Bene Amara وشركة جران دوماينا دي مكناس Gran Domiane Meknes .

ثالثاً : سياسة فرنسا الاستعمارية وبدء مرحلة جديدة من النضال المعادي للإمبريالية

كان عدم الارتياح من السيادة الأجنبية يتنامى لدى جميع طبقات وفئات السكان المراكشيين باستثناء مجموعة صغيرة من القوى الإقطاعية وممثلي الفئات المرتبطة بالرأسمال الأجنبي من البرجوازية المحلية، وقد تطورت مواقف واضحة في معاداة الاستعمار لدي الكثير من المثقفين، بل وعند الذين أنهوا دراساتهم في البلدان الرأسمالية وهم يعلمون بأن التطور الاقتصادي إنما يدور بالدرجة الأولى لمصلحة الرأسمال الأجنبي، وليس للبرجوازية الوطنية حظ أو فرصة في التنافس معها، كما أنها لم تستطع أن تغمض العيون عن التغيرات في الهيكل الاجتماعي وعن التبلور السريع للطبقة العاملة بين أوساط الجماهير الشعبية, وكانت عملية تكون الحركة الوطنية المراكشية قد تهيجت من خلال انتعاش حركة التحرر العربية في أقطار المشرق العربي، فالوطنيون المراكشيون قاموا باتصالاتهم مع الحركات القومية العربية، كما أنهم تعاطفوا مع حركة الإصلاح الديني في مصر وسوريا، ومن ثم سعوا إلى تحرير الإسلام من الجمود العقائدي وجعله عنصراً في النضال من أجل التحرر الوطني، وفوق ذلك ارتبطوا مع أهداف التيار الوطني الديمقراطي للدول الرأسمالية الأوربية ولا سيما فرنسا.

وفي النصف الثاني لأعوام العشرينات نشأت في مراكش أول ندوة وطنية وفيها التقى الشبان المتعلمون لتبادل وجهات النظر ولإجراء المناقشات، وكان علال الفاسي آنذاك ما يزال طالباً في جامعة القرويين، ترأس فيها مجموعة من زملاء الدراسة الجامعية في هذه المدينة الدراسية الإسلامية، وفي نفس الوقت كان أحمد بلفريج في الرباط قد أسس مجموعة من الطلاب الذين كانوا على الأغلب قد أنهوا دراساتهم في المعاهد العليا الفرنسية، وفي عام 1927 اتفقت المجموعتان وقررتا توحيد جهودهما ولم يكونوا أعضاء هذه المنظمة قد امتلكوا بعد برنامجاً سياسياً معيناً، ولم يدخلوا في تيار الرأي العام إلا بعد ثلاث سنوات، وكانت المناسبة آنذاك هو ما يسمى بقانون البربر.

وكان السلطان قد أصدر بتاريخ 16/ أيار - يونيو/1930 مرسوماً، أعده الموظفون الفرنسيون من أجل تنظيم القضاء بين قبائل البربر التي لم تكن تفضل قوانين الشريعة، بل إنها ما تزال تحكم بموجب التقاليد والعادات القديمة، وما يسمي (بربر داهير) هي جزء من السياسة التي كانت السلطات الاستعمارية تعمل بموجبها، وهي قاعدة "فرق تسد" التي تهدف إلى دق إسفين بين السكان المسلمين العرب والبربر. وكان المسؤولون الفرنسيون يركزون في جهودهم على تقليص وإزاحة نفوذ الإسلام في المناطق التي كان البربر فيها أكثرية. وقد تمكن ضباط الاستخبارات من استغلال ثقة القبائل بهم في ترسيخ عادات القضاء والحكم البربري، وحاولا حيثما كانت القوانين الإسلامية سارية، تغلب القواعد البربرية عليه، وطالب الموظفون الاستعماريون ببعثات تبشيرية ومدارس كنسية وبيوت تعليم في القرى بمنطقة جبال الأطلس للصبيان وأولاد البربر ومدارس حيث لم يكن هناك مدارس عربية وإسلامية، وقد أسس الفرنسيون في غضون ذلك 16 مدرسة.

ومن خلال هذا القانون فقد انسحب قضاء السلطان من معظم مناطق البربر وحل بدلاً عنها ما يسمى بقانون التقاليد والعادات في محاكم القبائل Tribnaux Coutumiers وكان ذلك يجري تحت سيطرة قوميسار فرنسي في ما يسمى بالمحاكم المدنية والجزائية، وكان موظفو نظام الحماية الفرنسيون يحاولون بذلك أن يتوصلوا إلى نزع إسلام قبائل البربر، وغالباً ما كانوا يمتنعون عن جلبهم (سوقهم - المترجم) إلى المحاكم الإسلامية، ويمنعون عنهم الدراسة في مدارس القرآن ويمنعون تعلم الكتابة، وبالمقابل كان يجري تسهيل عمل رابطة الرهبان في

ترويج تعاليمهم بين القبائل، كما عمل المستشرقون الفرنسيون الذين كانوا يرافقون السلطات الاستعمارية على وضع أبجدية للهجة المحلية البربرية بالحروف اللاتينية.

وكانت القوى الوطنية المراكشية ترى في (الدهار البربري)، ولهم الحق في ذلك أن السلطة الاستعمارية تسعى من خلال ذلك إلى تحريض البربر وشقهم ضد السكان العرب، وتسعى أيضاً إلى تمزيق الروابط المشتركة من خلال الدين المشترك، والتاريخ والثقافة التي يمكن أن تشكل جبهة نضال متماسكة وعزلها عن السكان العرب، ومع الفعاليات ضد هذا القانون دخل الشعب المراكشي في مرحلة جديدة ضد سلطات الاحتلال الاستعمارية، وحتى ذلك الوقت كان الفلاحون والرعاة يساهمون بالمقاومة المسلحة ضد الاحتلال، والآن فإنها تتمركز في جبال الأطلس والريف إلى مدن المرتفعات والسواحل تتمثل قاعدتها الاجتماعية بالمثقفين والتجار وصغار رجال الأعمال والحرفيين وصغار التجار، وكذلك من الطبقة العاملة والكسبة. وبدلاً من الفعاليات المسلحة، قامت نشاطات سياسية منظمة كان أسلوبها النضالي المفضل هو إيصال طلباتهم إلى سلطات الإدارة(ضرب من النضال المطلبي ـ المترجم)، وكشفت الأقنعة عن نظام الحماية والتحريض على القيام بإصلاحات سياسية وتنظيم اجتماعات ومظاهرات وإضرابات من أجل تحقيق أهداف سياسية وتنظيم اجتماعات ومظاهرات وإضرابات من أجل تحقيق أهداف سياسية واجتماعية، وكان المثقفون البرجوازيون في مقدمة الحركة الوطنية.

وقد هبت ضد (دهار البربر) عاصفة من الاحتجاجات في المدن، انطلقت في نهاية حزيران ـ يونيو/ 1930، من مدن: الرباط، سالي، فاس، كازابلانكا، كما انطلقت في مدن أخرى من الجوامع في البدء، ولكن سرعان ما انتقلت الاجتماعات الجماهيرية إلى الساحات المفتوحة والشوارع احتجاجاً ضد هذا المرسوم.

وقدم المتظاهرون إلى السلطان طلباً بتاريخ 13/ آب ـ أغسطس/1939 من بينها: شمول البلاد كافة: المدن والقصبات والأرياف بدروس تعليمية دينية عربية/إسلامية في جميع المدارس، وإيقاف فعاليات البعثات التبشيرية الكاثوليكية، وكذلك الحرية لرجال الدين المسلمين. وقد جرت فعاليات احتجاج في القطاع الإسباني كذلك إذ تحركت الأوساط الوطنية ضد السياسة الاستعمارية وإدارتها في نظام الحماية، وقامت السلطات الاستعمارية باعتقال البارزين منهم وكذلك الكثير من المساهمين فيها، وفي 18/تموز ـ يوليو/1930 تم وبصفة علنية جلد 30 طالباً في مدينة فاس لاشتراكهم في المظاهرات.

وقد لاقى النضال ضد(الدهار البربري) صداه خارج حدود مراكش، في العديد من البلدان الإسلامية والتقى شكيب أرسلان أحد قادة الحركة القومية العربية مع ممثلي الحركة الوطنية المغربية، وقام بتنظيم حركة احتجاج واسعة ضد السياسة الاستعمارية الفرنسية، وقد أدان المؤتمر الإسلامي الذي انعقد من 6- 12/كانون الثانيـ يناير/1931 في القدس في إحدى قراراته: السياسية المعادية للإسلام في المسيح(أي حمل الناس على اعتناق المسيحيةـ المترجم) التي مارستها الإمبريالية الفرنسية.

رابعاً: الحركة الوطنية في الأعوام 1932-1934

ينتمي غالبية قادة الحركة الوطنية المراكشية إلى الوجهاء وميسوري الحال من العائلات البرجوازية في المدن الذين كانوا قد أتموا دراستهم في المراكز الإسلامية مثل: علال الفاسي، أو كما في حالة أحمد بلفريج وعمر عبد الجليل وأحمد حسن الوزاني في الجامعات الفرنسية.

وبدعم من اليساريين البرجوازيين والأوساط الاشتراكية في فرنسا أسس بلفريج والوزاني عام 1932 في باريس مجلة "المغرب" التي كانت توزع في مراكش بشكل غير شرعي، وفيها كشفوا في الواقع العملي والاستعماري لما يعنيه(نظام الحماية). وفي 4/ آب - أغسطس/1933 ظهر في فاس العدد الأول من المجلة الأسبوعية الحركة الشعبية L, Action du Peuple وكان يعمل في هيئة التحرير: عمر عبد الجليل، علال الفاسي وآخرون، ثم تطورت هذه المجلات حتى أصبحت نقاط تجمع للحركة الوطنية المراكشية، وكانت بمثابة ميكرفون لمطالبهم. وقاموا بتاريخ 18/ تشرين الثاني - نوفمبر/1938 بحملة من أجل القيام بالاحتفالات الملكية بتعبئة جماهير واسعة من أجل المطالبة بتقليص صلاحيات موظفي الحماية، ومن أجل وحدة الأراضي المراكشية. و لكن يكتب النجاح لجهود الحركة الوطنية في الاجتماع الذي دعت إليه هيئة التحرير والذي نظم بمناسبة تكريم زيارة السلطان محمد بن يوسف إلى مدينة فاس بتاريخ 10/ أيار - مايو/1934، بكسب السلطان البالغ من العمر 18 عاماً إلى جانبها، وكان هذا التجمع يحمل طابع معاداة للاستعمار، ولم يطل الأمر إذ قامت الإدارة الاستعمارية بمنع وإغلاق كافة الصحافة الوطنية في 16/ أيار - مايو/1934.

وفي عام 1934 تأسس الحزب الوطني البرجوازي الأول تحت اسم (كتلة العمل المغربية) وعلى رأسه علال الفاسي الذي كان أستاذاً في جامعة القرويين، وعمر عبد الجليل، وأحمد بلفريج، الذي كان مدير مدرسة في الرباط، وكذلك محمد حسن الوزاني، وأحمد مكوار وهو تاجر ثري ومحمد الغزاوي وهو رجل أعمال. وكانت لجنة العمل تسعى بدعم من أصدقاء الحزب الاشتراكي الفرنسي في خطة إصلاح قدمت إلى السلطان في 1/كانون الأول - ديسمبر/1934، وإلى المقيم الفرنسي العام وكذلك إلى رئيس وزراء فرنسا بيير لافال Pierre Laval ، وفيها وصف الوطنيون المراكشيون نظام الحماية بوصفها (عنصرية) ومتحيزة وغير واضحة، وغير ليبرالية واستعمارية وأنها تعمل على الدمج(الفرنسة).(14)

ومن الواضح أنهم كانوا قد توهموا أن سيادة دولة إمبريالية لا تحتاج بالضرورة لأن تحمل طبيعة وشخصية استعمارية، وذلك يوضح لماذا لم يطالبوا بتصفية مجلس الحماية، بل أنهم طالبوا بتقليص وتحديد صلاحياته.

ولهذا الغرض، فقد كان الأمر يتطلب العديد من الإصلاحات السياسية والاجتماعية بما في ذلك:

- تشكيل برلمان وطني.
- إحداث قوانين ونظام قضائي قائم على أساس الإسلام وإزالة المظالم القضائية.
- إنشاء وتطوير نظام تعليم حديث.
- تحسين مستوى المعيشة للسكان المراكشيين من خلال: إقرار يوم عمل ذي ثمان ساعات، وتحديد الأجور، ضمان البطالة، منع تشغيل الأطفال، إحداث التأمينات الاجتماعية.
- الحق بتأسيس نقابات للعمال المراكشيين.

- تـأميم مصـادر الثـروة الطبيعيـة المهمـة، ووسـائل الإنتـاج الرئيسـية مثـل ورش المنـاجم، السـكك الحديديـة، المـوانـئ، محطـات الكهربـاء، المصـرف المركـزي للدولة.
- إيقـاف وإنهـاء الهجـرة الرسـمية لمعمـرين فرنسـيين(مسـتوطنين) وتقـديم الـدعم الرسمي للفلاحين المراكشيين.
- الإيقاف القانوني للسياسة البربرية الفرنسية.

وقد تجاهلت الأوساط الفرنسية الحاكمة هذه الخطة الإصلاحية، وبدأ قادة لجنة العمل بنشاط تحريضي لمطالبهم، وكان ذلك قبل كل شيء في أوساط الطلبة في الثانويات ثم سرى ذلك حتى في القطاع الإسباني، وألفوا بذلك مع الجمعية الإسلامية الاتحاد الذي تأسس عام 1927 باسم "اتحاد الطلبة الإسلامي في شمال أفريقيا"، وابتداءاً من عام 1934 امتد نشاطهم إلى حرفيي المدن، صغار التجار، الشغيلة، ونشطوا أيضاً على مستوى الفلاحين في الأرياف، ولدى بعض من ملاكي الأراضي ولا سيما في أنحاء مدينة فاس التي وجدت لديهم طلبات الإصلاح صدىً واسعاً إذ كانوا يعانون من ظروف بالغة القسوة.

خامساً : تأثيرات الأزمة الاقتصادية العالمية وفعاليات الطبقة العاملة

لم تسلم حتى مراكش من آثار الأزمة الاقتصادية العالمية وإن حلت بها بعد البلدان الرأسمالية الرئيسية، فقد تراجع الإنتاج إلى الوراء بسرعة وبلغ أرباح الفوسفات الذي كان يقع في المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة في حجم الإنتاج العالمي، إلى مليون و300 ألف طن في عام 1930، وبلغت قيمة الصادرات من السلع المنتجة في البلاد في تلك الفترة إلى نصف ما كانت عليه عام 1929، وفي كازابلانكا، لم ينتج سوى 500 ألف طن وهو أقل مما كان عليه قبل سبع سنوات، وكانت قيمة الأبنية التي أسست عام 1936 قد وصلت إلى خمس ما كان قد أنجز من الأبنية، وتصاعدت البطالة بين العمال و كانت مدينة كازابلانكا فقط تضم 10 آلاف عاطل عن العمل، وانخفضت الأجور عام 1936 إلى أقل بنسبة 40ـ50% عما كانت عليه عام 1931-1932.

وكانت منافسة السلع الصناعية الأوربية قد عجلت أيضاً في انحلال الروابط القبلية القديمة، ودفعت بعملية التمايز الاجتماعي إلى الأمام، وقد تم توزيع أجزاء كبيرة من الأراضي الجماعية، وفقد الكثير من الفلاحين أراضيهم من خلال التلاعب والابتزاز والقوة والخداع لصالح الإقطاعيين وكبار ملاكي الأراضي أو إلى شركات المستوطنين الأوربيين، مما أدى إلى هبوط أسعار الأراضي.

وبسبب هذه المعطيات تناقص من عام 1930 حتى 1933 مدخول الفلاحين المراكشيين كمعدل بنسبة 40% وكان اثنان من خمسة 5/2 من الفلاحين (أي النصف تقريباً) يعيش تحت خط الحياة(أي أقل من الحد الأدنى بتلبية الحاجات الضرورية للحياة ـ المترجم) وغادر الكثير من الفلاحين القرى إلى المدن وإلى مناطق المناجم على أمل أن يجدوا هناك العمل والخبز، ولكن القليل منهم نجح في ذلك، ثم توقفت الهجرة من الريف إلى المدينة عندما انتهت الحاجة(الطلب) إلى القوة العاملة، وأدت إلى انفجار في النمو السكاني للمدن.

وأرغمت الأوضاع الاقتصادية الغالبية من القادمين الجدد من سكان الأرياف(وبسبب الضرورة) فيما يسمى بـ(مدن الصفيح) على حافات المدن، وفي عام 1932 كان يعيش من بين 200 ألف من سكان كازابلانكا، منهم 85 ألف في مثل هذه الأوضاع وتحت ظروف بائسة إنسانياً، ولم يكن الوضع بأفضل منه في الرباط وسالي، مكناس، بورت ليوتي(القنيطرة)، وجدة.

ومن هذه الخلفية الاجتماعية انتشرت واتسعت الحركة الوطنية المراكشية، كما اتسع ونما السخط وعدم الرضا بين الغالبية من شغيلة المدن والأرياف المراكشية الناهضة التي كانت تناضل ضد سوء حالة المعيشة التي جاءت كنتيجة للأزمة الاقتصادية العالمية وفعاليات الاستعمار بصفة عامة.

وفي حزيران وتموز/1936 حدثت في كازابلانكا وفي مناجم الفوسفات في خوريبكا، وكذلك في فاس والرباط، إضراب واسع عن العمل، وكان هناك في كازابلانكا فقط في حزيران - يونيو/1936 أكثر من 2000 عامل مضرب عن العمل، وطالب العمال بزيادة في الأجور وبتحديد وقت العمل بثماني ساعات، والحق في تنظيم أنفسهم في نقابات، وقد ناضلوا جنباً إلى جنب مع رفاقهم الطبقيين الأوربيين، ونجحوا في تحقيق العديد من المطالب، إذ أن الآلاف من العمال المراكشيين انضموا إلى النقابات الفرنسية التي كانت مجازة وشرعية، أو أنهم قاموا بتأسيسها، فيما بدأ موظفو الحماية لا يشعرون بالاطمئنان حيال هذه التطورات.

وفي القانون الذي صدر بتاريخ 24/كانون الأولـ ديسمبر/1936، منع العمال المراكشيين من الدخول إلى النقابات، ولكن على الرغم من ذلك، لم ينجحوا بإعاقة وحدة العمل كما ظهر ذلك في إضراب عمال الفوسفات في خوريبكا عام 1937 وعمال مناجم الرصاص في جبل سالغيف شباطـ فبراير/1937، وعمال البناء والأخشاب في كازابلانكا حزيران - يونيو/1938. وقد تهيجت المقاومة ضد النظام الاستعماري خلال موسم الحصاد السيء لعام 1937، الذي ترك جنوب مراكش بأكملها في حالة مجاعة، وكذلك من خلال وباء التيفوس الذي أودى بحياة الآلاف من السكان، وهذا التدهور العام اعتبره السكان بحق النتيجة الطبيعية لخمسة وعشرون عاماً من النظام الاستعماري.

ومع النصر الذي أحرزته الجبهة الشعبية فقد اتفق اشتراكيون وشيوعيون وراديكاليون في الانتخابات البرلمانية الفرنسية نيسان - أبريل/1936، فقد أدت لجنة العمل فعاليات كبيرة، وإن الآمال في مشاركة واسعة في وزارة الاشتراكي ليون بلوم Leon Blum لم تتحقق، وكان قادة الحزب الاشتراكي يتراجعون في قضايا الاستعمار أمام الرجعية الفرنسية، فقد رفضت الطلبات التي قدمها الوزاني وعبد الجليل في نهاية شهر تشرين الأول - أكتوبر/1936 إلى الحكومة الفرنسية، تلك الطلبات التي استغرقت صياغتها مدة عامين.

وفي نفس الوقت انعقد في الرباط برئاسة الفاسي المؤتمر الأول"لجنة العمل" الذي أكدوا وشددوا فيه على ما ورد في خطة الإصلاح لعام 1934 من نقاط وقرروا(بالنظر للرفض الذي واجهوه في باريس) المضي في تنظيم الفعاليات الجماهيرية كأسلوب ضاغط، وفي تشرين الثاني - نوفمبر/1936 حدثت مظاهرات عارمة في فاس، الرباط، سالي، كازابلانكا، وجدة، تازة، وفي مدن أخرى، في الجوامع وفي الشوارع كما جرت اصطدامات مع الشرطة واعتقل أكثر من مئة من المتظاهرين.

سادساً : الحركة الوطنية في القطاع الإسباني

وكانت الحركة الوطنية في القطاع الإسباني من مراكش قد خلقت صلات وثيقة مع (لجنة العمل) وكان من المنتظر أن تقوم الجمهورية الثانية في إسبانيا(1930–1936) بتحقيق الإصلاحات المطلوبة، ولما لم تتحقق تلك الإصلاحات، وجدت الحركة الوطنية دعماً قوياً من أحزاب العمال في ميناء طنجة، سبته ومليلة في النضال من أجل تحسين أوضاعهم الاجتماعية والحريات الديمقراطية بانتصار الجبهة الشعبية في أسبانيا في شباط ـ فبراير/1936 كقوة دافعة.

وعندما قام الجنرال فرانكو في 18/ تموز ـ يوليو/1936 بانقلابه الملكي ـ الفاشي، بمساعدة فعالة من الفاشية الألمانية والإيطالية ضد حكومة الجمهورية انطلاقاً من القطاع الإسباني في مراكش، استطاع أن يكسب الوحدات المراكشية في الجيش الاستعماري التي كان يعمل بها ضابطاً منذ عام 1927، وأن يضمها إلى المؤامرة، وكان الانقلابيون قد طرحوا أنفسهم على أنهم (أصدقاء العرب) و (المدافعون عن الإسلام)، بل أنهم كانوا يلمحون إلى استقلال شمال مراكش، ومن خلال ذلك تمكنوا من الحصول على الدعم ليس فقط من الإقطاعيين المراكشيين وأرستقراطية القبائل، بل وأيضاً وبنسبة مهمة من قادة الحركة الوطنية في القطاع الإسباني المحتل.

وبخيانة من قادة القبائل قتل الآلاف من الجنود المراكشيين في الحرب الأهلية الإسبانية كغذاء لنيران المدافع من أجل مصالح الإقطاع الأكريليكي والرجعية البرجوازية الكبيرة. وكان غزل فرانكو مع الحركة الوطنية المراكشية يهدف (بالاتفاق مع ألمانيا الهتلرية والفاشية الإيطالية) إلى نيل تعاطف الحركة الوطنية في الجزائر وتونس لإضعاف مواقع ونفوذ المنافسين الفرنسيين في تلك المناطق.

ومنذ ذلك الوقت مضت الحركة الوطنية في القطاع الإسباني في طريق ضيق، ففي عام 1937 نهض حزبان: حزب الإصلاح الوطني بقيادة عبد الخالق تورس، وحزب حركة الوحدة المغربية بقيادة محمد النسيري. وكانت هذه القيادات تدعم منذ البداية الفاشيين الفرانكويين الذين لم يرفعوا من جانبهم أية اعتراضات عندما طالب حزب النسيري الاستقلال التام لعموم مراكش، بل أن الفاشيين الفرانكويين قدموا للحركة الوطنية بعض التنازلات، ولكن لم يتأمل بجدية أن يقوم بإصلاحات كبيرة، وهذا ما عرفه بعض أعضاء الحركة الوطنية بسرعة، وفي حزيران ـ يونيو/1938 حدثت في تطوان تظاهرة معادية للفاشية، وفي أيلول ـ سبتمبر/ نهضت بعض القبائل في مناطق الجبال، وفي 1939 قام عبد الخالق تورس بنقد حاد للنظام الاستعماري الفاشي الفرانكوي.

سابعاً : الانشقاق في "لجنة العمل" والمظاهرات المعادية للاستعمار عام 1937

أدت الخلافات بين قادة الحركة الوطنية في القطاع الفرنسي من مراكش/ إلى الانقسام في لجنة العمل، وقامت الأغلبية التي انتظمت مع الفاسي وبلفريج ومحمد اليزيدي في نيسان - أبريل/1937 بتأسيس الحزب الوطني لتحقيق المطالب، وقام الجناح الذي يقوده الوزاني بعد ذلك بوقت قصير بتأسيس حزب الحركة القومية، ومارس كلا الحزبين عبر صحفهما الحزبية نقداً حاداً للإدارة الاستعمارية متمسكين بالبرنامج الإصلاحي لعام 1937. وكانت القاعدة الاجتماعية للحزبين مؤلفة من البرجوازية الوطنية والمثقفين، والبرجوازية الصغيرة والفئات الوسيطة ومن الفئات أشباه البروليتاريا، ولم يكن هناك سوى فرق طفيف في أهداف كلا الحزبين في اختيار أساليب العمل.

وقد اعتبرت منظمة الوزاني التي ضمت أعداداً كبيرة من خريجي المدارس الفرنسية، أن التجانس مع الثقافة الأوربية ضرورة لا بد منها كمقدمات لاستقلال مراكش، ومن أجل تطورها إلى دولة حديثة، وكانوا يأملون تحقيق هذا الهدف والتقرب إليه من خلال خطوات دبلوماسية بالدرجة الأولى.

واعتبر حزب الفاسي الذي يشكل أعضاؤه النشطاء بالدرجة الأولى من الطلبة والدارسين في المدارس الإسلامية، أن بعث وإحياء اللغة والثقافة العربية وكذلك استعادة التاريخ المجيد لمراحل التاريخ المراكشي سلاحاً فعالاً في تطور عملية الوعي الوطني والقومي، وفي النضال ضد السيادة الاستعمارية، وكان قادتهم على قناعة بأن مطالبهم لا يمكن أن تنفذ إلا من خلال تنظيم الفعاليات الجماهيرية، وقد خلقوا داخل الحزب تنظيماً مشدوداً وقوياً، كما أسسوا في العديد من المدن خلايا جديدة، وقد اتسع أعداد تنظيمهم إلى 6 آلاف عضو، وتمثل أسلوب نشاطها الرئيسي في فاعلية تأسيس العديد من المدارس الخاصة(على غرار مدارس القرآن) التي كانت تملصاً من سياسة التعليم الاستعمارية. ومع تعليم الدروس العربية، حاز الحزب القومي على إمكانات ممتازة لتنظيم الوعي القومي للجيل الصاعد، وفي نفس الوقت تأسست منظمات رياضية وطنية ومجموعات الكشافة والجوالة الإسلامية ووحدات أخرى، ومن خلال ذلك تمكن الحزب من شد إعجاب آلاف من المراكشيين إلى أهداف الحركة الوطنية وإحراز النفوذ في أوساط الحرفيين والتجار الصغار والعمال في المدن، وكذلك بين الفلاحين ولا سيما في شمال مراكش.

وفي خريف 1937 قامت الجماهير الشعبية في كافة أرجاء القطاع الفرنسي من مراكش بالتعبير بأقوى الأشكال عن معاداتها للاستعمار، وكان السبب المؤدي لذلك: أحداث مدينة مكناس في مطلع شهر أيلول 1937. حيث كان طغيان نهر بوفيكران لمصلحة المستوطنين الفرنسيين، ولكنه كان وبالاً على سكان هذه المدينة المراكشية الشمالية، فتسبب بإطلاق احتجاجات شديدة، فتح الجيش الفرنسي على أثرها النار على المتظاهرين، وقتل 13 شخصاً وجرح أكثر من 100منهم. وشهدت مدن مراكش الرئيسية: فاس، الرباط، مراكش، وجدة، القنيطرة، وكذلك في المدن الكبرى الأخرى بدعوة من الحزب القومي تظاهرات واجتماعات في الجوامع والشوارع والساحات ضد الطغيان الاستعماري.

وقد أعلن الحزب في مؤتمره الذي عقد بتاريخ 13/تشرين الأول - أكتوبر/ 1937 في مدينة فاس اتهامات حادة ضد الاستعمار الفرنسي، وعندما قام المقيم العام نوجيس Nogues بتاريخ

25/أيلول ـ سبتمبر/1937 ومعاون سكرتير الدولة الفرنسي رامادير Ramadier بزيارة إلى مدينة مراكش، مُنعا من مواصلة سفرهما بسبب المواجهة الحادة للناس الساخطين، و وصلت موجة السخط المعادية للاستعمار في تشرين الأول ـ أكتوبر/1937 إلى ذروتها عندما تصاعدت الهتافات"يجب على الفرنسيين مغادرة البلاد".

وفي نفس الوقت اكتسب نضال المقاومة للقبائل دافعاً جديداً من منطقة سوس، في أنحاء وزان وفي أماكن أخرى، إذ قامت انتفاضات تحت النفوذ المباشر للمنظمات الوطنية، وقد قام الحزب القومي بنقل الحركة المعادية للاستعمار إلى خارج حدود المدن، وسحب الفلاحين ولا سيما في شمال مراكش إلى النضال الوطني.

واضطرب موظفو نظام الحماية بشدة بسبب هذه التطورات، لذلك شددوا من إجراءاتهم الانتقامية، فقام الشرطة والجندرمة بتفريق المظاهرات باستخدام السلاح، وقد قتل وجرح الكثير منهم وقذف بالمئات منهم في السجون، كما أن سلطات الانتداب قامت في تشرين الأول ـ أكتوبر بمنع الحزبين القومي والكتلة الوطنية واعتقال قادته، وقد أرسل عمر عبد الجليل وأحمد مكوار ومحمد اليزيدي وحسن الوزاني إلى معتقل تابع للجيش الاستعماري في جنوب مراكش، وأبعد علال الفاسي إلى الغابون حيث لم يسمح له بالعودة إلا في عام 1946، وقد أعلنت الجماهير الشعبية رفضها وإدانتها لهذه الأعمال الإرهابية، ومعاداتها للاستعمار في تظاهرات شارك فيها الآلاف من المراكشيين من مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية.

وقد ساهمت الطبقة العاملة المراكشية الفتية بفاعلية في الحركات المعادية للاستعمار، وبرهنت كما كانت قبل سنوات على أنها قوة دافعة مهمة في الحركة الوطنية، وقد ربطت دخولها معترك النضال ضد الاستعمار بالحقوق الديمقراطية والمطالب الاجتماعية. ومن أجل تمثيل المصالح الحقيقية والثابتة فقد طوروا ما كان قد تأسس عام 1920 وهي الفيدرالية المراكشية(المنظمة المحلية) للحزب الشيوعي الفرنسي، وكان أعضاؤه يتألفون في السنوات الأولى من عمال أوربيين بشكل رئيسي، ومنذ البداية كان الحزب قد عمل أيضاً مع البروليتاريا المراكشية. وكان الشيوعيون والشغيلة الأوربيون قد نفذوا قراراً بضرورة النضال ضد العنصرية الشوفينية وإدانة الاستعمار، والعمل من أجل خلق جبهة موحدة بين العمال المراكشيين والأوربيين، كما كانوا يدافعون عن حق الشعب المراكشي في دولة مستقلة.

ومع انتصار الجبهة الشعبية في فرنسا تحسنت ظروف النضال الوطني وكسب نفوذاً متزايداً منها تطوير حركة النقابات، ومن خلال صحيفتهم مراكش الحمراء Moroc Rouge التي تحملت المهمة الأكبر في التطوير الجوهري للوعي الوطني للشغيلة المراكشية، وبفعاليات نشيطة لعامي 1936-1937 بدأت الحركة الوطنية التي كانت في السابق تنال دعم المثقفين تأخذ طابعاً جماهيرياً، فقد نمت وتطورت عما كانت به في مراحلها الأولى في البداية إلى ما هو أكثر من المطالب، وهي تعمل الآن مباشرة ضد نظام الحماية الاستعماري الفرنسي.

هوامش الفصل الأول

1. Die Europäische Zivilisation und Moroko in : Ausgewählte Schriften, Frunze, M, W. : Berlin 1956
2. Interview (Abd alkarims)in: Villain, J, Fellah ohne Faruk, Berlin 1969
3. Ebenda, S.9
4. Frunze, M.W., a.a.o. ,S.508
5. International Presse Korrespodenz , Wien, Jg 1925, Nr,93, S.1264
6. Ebenda, Jg, 1925,S.1813
7. Semard, P,: Marrokko, Hamburg 1925. S.76
8. Ebenda, S. 157
9. International Presse Korrespondentz, Wien, Lg 1925, Nr.84, S.1146
10. Rote Fahne: Berlin, vom 10-5 -1925
11. Bericht über die verhandlung des x Pareitag dder KPD, Berlin 1929, S.253
12. بينما كانت السلطات الفرنسية تقوم بنقل عبد الكريم الخطابي عام 1947 من جزيرة رينيون إلى فرنسا تمكن من الهرب في بورسعيد، وعاش حتى وفاته عام 1963 في مهجره بالقاهرة
.
13. Villain, J, : a.a.o., S.11
14. Le Tourneou, R. : Evolution Poitique de l, Afrique du Nord Musulman 1920-1961, Paris 1962, S. 189

الفصل الثاني

النضال التحرري للشعب الجزائري

1. التبدلات في العلاقات الاجتماعية
2. تأسيس المنظمات السياسية الوطنية ونضالها ضد السيادة الاستعمارية
3. تأثيرات الأزمة الاقتصادية العالمية والحركة الوطنية : من 1936 - 1939

أولاً: التبدلات في العلاقات الاجتماعية

استخدمت الإدارة الاستعمارية الفرنسية القدرات الاقتصادية الواسعة وحجم السكان في الجزائر بدون شفقة في خدمة أهدافها الحربية، وبدعم من الأرستقراطية الإقطاعية المحلية، فقد أخضعت الإدارة الاستعمارية 173 ألف جزائري إلى الخدمة العسكرية، وساقتهم مرغمين إلى مختلف الجبهات للقتال من أجل مصالح الرأسمال الاحتكاري الفرنسي، قتل منهم 25 ألفاً، كما أرسلت 119 ألف رجلاً إلى معسكرات العمل الإجباري(السخرة). وقد نهض الفلاحون ضد السوق الإجباري للعمل في مناطق بني شفران في تشرين الأول ـ أكتوبر/1914، وفي مناطق جبال الأوراس في أيلول ـ سبتمبر/1916 في مقاومة باسلة مسلحة.

وكانت سلطات الإدارة الفرنسية الاستعمارية تقوم بتصدير كميات كبيرة من الإنتاج الزراعي بدون الاعتبار أو النظر إلى أوضاع وحاجات السكان مع تصاعد في فرض الضرائب، فيما كان استيراد السلع والبضائع الصناعية والأدوات الاحتياطية والمواد الخام في تزايد، وأسعار السلع الاستهلاكية تتصاعد أيضاً. ومن خلال التضخم البطيء كانت مداخيل الفلاحين قد تعرضت إلى الهبوط، وفي مطلع عام 1917 و1921/1920 حدثت في بعض المناطق حالات مجاعة(قحط) ووباء التيفوس.

وكان يوجد في الجزائر حتى الحرب العالمية الأولى (عدا بعض ورش التصليح) مشاغل للتبغ ومعامل صغير للبيرة، ولم تكن هناك صناعة تستحق هذا الوصف، أما خامات الحديد في أوفيزا، والفوسفات في كويف، والفلين وأعشاب الحلفاء فقد كانت تصدر كمواد خام بدون تصنيع، وتسبب الاختناق في العلاقات الاقتصادية مع فرنسا في جعل تطور صناعة المناجم مناسباً، وكذلك الصناعات الخفيفة. وتم العثور في منطقة كولمب بيشار، كيناوسا في غرب الجزائر على مكامن للفحم. وتأسست في الجزائر ووهران، وقسطنطينية وعنابة، معامل لتطوير الإنتاج الزراعي بما في ذلك الطواحين ومعامل التعليب. وكان الأمل أن تتحول الجزائر من خلال الاستثمارات التي أسسها المستعمرون إلى مزرعة فخمة(مستوطنة) وجعلها المكسب الأكبر للبرجوازية الفرنسية، وفي نهاية القرن التاسع عشر حل مالكو أراضي أوربيون صغار مهاجرون من خلال جمعيات استيطان، وتم خلق مستوطنات ثرية بعد الحرب العالمية الأولى، وكانت ثلاثة أرباع الأراضي الخصبة بأيدي البورغديين Borgeudeud وجرماين Germain وفروكر Froger وبلاشته Blachtte ومجموعة جيني فويزة Genevoise وتقدر ب 15 ألف هكتار.

ولم تؤد هذه الفعاليات الاقتصادية إلى تحسين الأوضاع الحياتية للشغيلة الجزائرية ولا إلى إلغاء الصفة الاستعمارية في الاقتصاد وكان المستفيد الأوحد هو الرأسمال المالي والمستوطنيين. وقد أدى موسم الحصاد السيء عام1920/1919 وعام 1923/1922، إلى اشتداد الأزمة وتخلف الاقتصاد الزراعي الجزائري.

وفي مناطق شيليف خسر الفلاحون 60إلى 80% من مواشيهم، كما أن جزءاً كبيراً من الرعاة والخماسين (باللهجة الجزائرية، وهم صنف من مستأجري الأرض مقابل منح صاحب الأرض من الإقطاعيين وكبار الملاكين، خمس المحصول)، والفلاحين الفقراء الذين لحقت بهم أشد الأضرار في مقومات وجودهم وحياتهم، دفعت بهم إلى مرتبة الشحاذين. ولكن السلطات الاستعمارية واصلت سياسة نهب الأرض، فقد قفز حجم ملكيات المستوطنين من 1،847،000 هكتار عام 1910 إلى 2،344،000 هكتار، وقد تراجعت بقوة المساحات المزروعة من قبل

الفلاحين الجزائريين وإلى جانب ذلك، تصاعدت أيضاً عمليات تآكل التربة وتراجعت زراعة الحبوب وتربية الأغنام التقليدية إلى مناطق جنوب البلاد الجافة القليلة الخصوبة.

ومن خلال الضغوط الاقتصادية وأيضاً استخدام القوة خسر الكثير من الفرحين أراضيهم لصالح المستوطنين الأوربيين وإلى كبار ملاكي الأراضي المحليين، تراجع أيضاً إنتاج الحبوب من 20 مليون قنطار عام 1910 إلى 16 مليون قنطار عام 1939، وخلال أعوام 1926 وحتى عام 1928 تحولت ملكية 21،339 هكتار إلى أيدي المستوطنين الأوربيين، وتنامي أعداد البطالة بين السكان في الريف في أعوام الثلاثينات إلى 600 ألف، أو 700 ألف شخص، كما أن الاستخدام المتزايد للآلة في الزراعة دفعت الكثيرين من عمال الريف إلى جيش البطالة، وبدأ الآلاف من الفلاحين بمغادرة قراهم في الريف(منطقة القبائل) وكذلك في مناطق جبال الأوراس، والمرتفعات، لأن الكثير منهم لم يعد بوسعه إطعام عائلته، وقد اتسع هجوم النازحين في الأرياف إلى مناطق المستوطنات ومدن شمال الجزائر. كما أن الحاجة التي كانت في البدء إلى الأيدي العاملة سرعان ما انتفت. وللنجاة من البطالة فقد واصل الكثير منهم هجرته إلى فرنسا، وفي الفترة من 19020 وحتى 1938 كان يعمل هناك (في فرنسا) 617،469 ألف عامل جزائري كأيدي عاملة رخيصة بصورة استغلالية.

ومع تطور الصناعة ووسائط المواصلات تنامى عدد السكان في المدن، وكان معظمهم من مهاجري الريف الذين لم يحصلوا على أعمال لهم في المدن، أو أعمال دائمية منتظمة، فقد كانوا يعيشون بصفة جماعية في الأحياء القديمة في المدن، أو العيش اضطراراً في بيوت الصفيح على حافات المدن، وتظهر هذه الحقائق أن التناقضات بين الرأسمال الاحتكاري الفرنسي، و البرجوازية الاستعمارية والمستوطنين من جهة، والجماهير المستغلة المضطهدة من الجزائريين من جهة أخرى قد اشتدت واحتدمت.

ثانياً : تأسيس المنظمات السياسية الوطنية ونضالها ضد السيادة الاستعمارية

كان الوعي الوطني لدى الممثلين السياسيين من صفوف البرجوازية الوطنية والمثقفين في المدن من الفئات الوسطى، والطبقة العاملة والفلاحين يتنامى حيال الاضطهاد الوطني والبؤس الاجتماعي لشعبهم، وكان العائدين من ساحات الحروب قد اكتسبوا التجربة بأن أوضاع الدولة الفرنسية لم تكن سليمة. وكان من بين بحارة الأسطول الفرنسي في البحر الأسود والذين كانوا في نيسان - أبريل/1919 في ميناء أوديسا قد أقاموا العلاقات والصلات مع العمال الروس وطالبوا بإيقاف الهجوم والتدخل ضد الاتحاد السوفيتي، العديد من الجزائريين الذين عادوا إلى بلادهم ومعهم أفكار ثورة أكتوبر، كما أحاط الكثير من العمال الجزائريين علماً بالأحداث في روسيا السوفيتية، واطلعوا على أساليب وأشكال النضال، وعدا ذلك فقد كانت لديهم الفرصة في إجراء مقارنة بين أوضاع بلادهم والعلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية مع فرنسا واستخلاص النتائج والعبر.

وقد أقام شبان جزائريون(من الذين كانت فرص حصولهم على إمكانية الدراسة في فرنسا نادرة) الصلات مع حركات سياسية تقدمية ومع القوى اليسارية البرجوازية والمثقفين الإنسانيين، كما أقاموا الصلات مع ممثلي حركة التحرر المصرية والسورية والتركية والإيرانية. ثم أسسوا في عام 1927 منظمة(اتحاد الطلاب المسلمين لشمال أفريقيا) وقد نشط الطلبة الجزائريون في جامعة الأزهر الإسلامية(القاهرة) والزيتونة(تونس) في نفس المجال وكذلك المشاركون في سفرات الحج إلى مكة ومنهم من عقد هناك الصلات مع الحركات القومية ومع الإصلاحيين الإسلاميين.

وبازدهار الحركة الوطنية في المستعمرات والبلدان غير المستقلة وضعف الاستعمار كنتيجة للمواقف الدولية الجديدة في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى، فقد تنامى الاستياء في أوساط الشعب الجزائري وكذلك السخط على النظام الاستعماري، وابتدأت الحركة العمالية بالتطور، ومن شواهد ذلك كان الإضراب الذي قام به عمال أحواض السفن والسكك الحديدية 1919-1920، اشتدت الأفكار التقدمية المناهضة للاستعمار والاحتلال.

وكانت الإدارة الفرنسية قد وجدت نفسها عام 1919 مرغمة على أن تقوم الإدارة الاستعمارية في الجزائر ببعض الإصلاحات، إذ رفعت الضريبة المزدوجة والمرهقة التي كانت مفروضة على الشعب الجزائري، ووضعت نظام ضريبي جديد وكان بإمكان مجموعة صغيرة من السكان (طالما لا يظهرون المعاداة أو أنهم مستسلمون للسلطة الاستعمارية والخدمة في الجيش الفرنسي، وإتقان اللغة الفرنسية والتخلي عن الفرائض الإسلامية) امتلاك الأرض والسكن، وأن ينال حق الانتخاب، وكان هذا يلائم ويناسب بالدرجة الأولى الفلاحين الأغنياء ورجال الأعمال والمثقفين والموظفين، وكانت الأوساط الحاكمة في فرنسا تأمل أن تكسب من هؤلاء دعماً لسلطتها، وقد ناهض المستوطنون هذه الإصلاحات بقوة، إذ قاموا عام 1909 بتأسيس حركة(الجزائر الفتاة) الذين رفضوا مساواة الفرنسيين بالجزائريين.

وقد نجح هؤلاء الموالون للإدارة الاستعمارية في مساعيهم تلك بإبعاد الأمير خالد حفيد البطل الوطني الجزائري عبد القادر الذي كان قد انتخب عضواً في برلمان مدينة الجزائر، وكان يعمل سابقاً ضابطاً برتبة نقيب في الجيش الفرنسي، ومن أجل ذلك توجه خالد بخطابات مفتوحة والتماسات إلى الجمعية الوطنية، والرئيس الفرنسي يطالب فيها بإلغاء التميز (قانون الولادة) الذي يمس السكان، أي مواطني بلده الذين يمثلهم في البرلمان، وحماية الحقوق الديمقراطية

لكافة الجزائريين وفي الحفاظ على تقاليدهم الإسلامية وفرائضهم الدينية واستخدام القوانين والأنظمة السارية في فرنسا وفي الجزائر أيضاً. ورغم أن خالداً لم يثر في طلباته موضوع عائدية الجزائر إلى فرنسا، لكنه اصطدم رغم ذلك بمقاومة مريرة من الفئات العليا وسرعان ما طردته السلطات خارج فرنسا حيث ذهب على مدينة الإسكندرية بمصر، ومنها إلى دمشق حيث توفي هناك عام 1936.

وواصلت(الجزائر الفتاة) فعالياتها في نشاطات(فدرالية المندوبين المسلمين) وهو عبارة عن 150 من النواب المحليين في برلمان محلي(يختص بالشؤون العامة والمالية) وكانوا قد قرروا الاتحاد في 11/ أيلول - سبتمبر/1927 تحت رئاسة الطبيب محمد صالح بن جلول والصيدلي فرحات عباس. وكان هذا الاتحاد يضم محامين، أطباء معلمين، موظفين، وكذلك ممثلي البرجوازية الوطنية الذين كانوا قد أنهوا دراستهم في المدارس والجامعات الفرنسية، وكانوا يشعرون بأنهم فرنسيون أكثر مما هم جزائريون، وعن هؤلاء كتب المؤرخ الفرنسي مارسيل أكريتاود Marcel Egretaut " هؤلاء الرجال كانوا مؤقتاً قد فقدوا الثقة والأمل بجزائر مستقلة، وكانوا يعدون اضطهاد الجزائريين أمراً لا يمكن الخلاص منه، وأن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ شعبهم من البؤس والشقاء يكمن في قبول فرنسا كوطن، ولذلك كانوا من أنصار الاندماج التام، وكانوا يعتبرون الاستيطان الشامل أمراً يستحق المقاومة(ولكنهم كانوا يتجاهلونه)، كما كانوا يدركون التميز والاضطهاد والظلم للسيادة الاستعمارية، و يشكون للسماء شقاء شعبهم ولكنهم لم يعتقدوا بأن هذا الشعب بإمكانه أن يجد القوة الدافعة وخلقها، من أجل أن ينال حقه في الاستقلال".(1)

ولم يكونوا قادة الفدرالية ليعترضوا على السيادة الفرنسية على الجزائر، وكان فرحات عباس يعتقد بأنه لا يمكن الاعتراف بالشعب الجزائري، فقد أعلن عام 1936 " إنني سوف لن أموت من أجل الوطن الجزائري، لأن مثل هذا الوطن غير موجود، لقد تخلينا دفعة واحدة عن كل الخيالات حول الأرض، وأن مستقبلنا يرتبط بصفة نهائية بالعمل الفرنسي على هذه الأرض".(2)

وقد طالبت (الفيدرالية) إنهاء العمل بالقوانين الاستثنائية لا سيما (قانون مكان الميلاد)، وحماية حقوق المواطنة الفرنسية لكافة الجزائريين وحماية الحقوق الشخصية للديانة الإسلامية والحقوق والواجبات الانتخابية، وبمؤسسة برلمانية جزائرية موحدة، وتمثيل الجزائريين في البرلمان الفرنسي، وإعادة تسليم الجوامع إلى المسلمين، والتوقف عن منع الدروس العربية، وضع برنامج تعليمي مدرسي شامل، المساواة التامة في الأجور بين الجزائريين والفرنسيين، التطور الوظيفي للجزائريين، والتعين في المراكز الإدارية. وكان هدفهم هو تحويل الجزائر من مستعمرة إلى محافظة فرنسية. وكانت هذه الطلبات تعكس مساعي الأغلبية من برجوازية الجزائر، إذ أن مصالحها الطبقية هي في الاندماج مع البرجوازية الفرنسية. وبرغم الأهداف الإصلاحية "للفيدرالية"، فقد كانت فعالياتهم تحمل طابع القطعية والحسم، وفي توعية الجزائريين بأوضاعهم وبضرورة التغير، وأيضاً فقد أدت إلى توسع الأفكار الديمقراطية (المعادية للاستعمار).وكان على قادة الفيدرالية أن يجربوا بأنفسهم بأن الإدارة الفرنسية لم تكن مستعدة بأن تنهي النظام الاستعماري، لذلك فإن جزءاً منهم قد تمكن في نهاية أعوام الثلاثينات من التوصل إلى قناعة بأن الأهداف الديمقراطية لا يمكن تحقيقها إلا عبر النضال الوطني التحرري.

وفي آذار - مارس/1926 أسس العمال الجزائريون المنظمة السياسية L, Etoile Nord Africcaine "نجمة شمال أفريقيا" وكان على رأسها الحاج عبد القادر، وقد سمي الأمير خالد رئيساً فخرياً للمنظمة التي أعلنت أن الدفاع عن مصالح العمال المسلمين في شمال أفريقيا هو

هدفها الرئيسي، وبفضل صحيفتهم التي تصدر باللغة الفرنسية باسم "الأمة" فقد تمكنت هذه المنظمة أن تنال بسرعة نفوذاً كبيراً بين الشغيلة الجزائرية في فرنسا.

وفي عام 1927 انتقلت القيادة إلى مصالي الحاج المولود في تلمسان عام 1898، وكان مصالي الحاج خلال الحرب العالمية الأولى جندياً في الجيش الفرنسي، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها بقي في فرنسا، وأقام الصلات مع الحزب الشيوعي الفرنسي، وقد اضطر بعد ملاحقة من السلطات لمغادرة البلاد عام 1935 مرغماً، وشارك بنفس الوقت في المؤتمر الإسلامي في جنيف، وبفضل مساعي الشخصية اللبنانية شكيب أرسلان أقام مصالي الحاج صلاته الوثيقة مع الحركة القومية العربية.

وكانت نجمة شمال أفريقيا أول منظمة سياسية طالبت بإقامة الدولة الجزائرية المستقلة عام 1933 ثم بدأت بتوسيع فعالياتها إلى الجزائر بعد أن كانت مقتصرة على فرنسا، وقد عانى قادة نجمة أفريقيا العذاب والمتاعب ضد (إنكار) وجود الشعب الجزائري وطالبوا بتوفير الحريات الديمقراطية وتحقيق إجراءات من أجل تحسين الوضع الاجتماعي للشغيلة.
وفي حزيران - يونيو/1936 طالب مندوبون من منظمة النجمة بمقابلة مع وزير الداخلية الفرنسية بإلغاء قانون(مكان المولد) وتأسيس برلمان تمثيلي للشعب الجزائري، وتدريس اللغة العربية في المدارس، ضمان حماية الصحافة والاجتماعات، وكذلك سريان مفعول القوانين الاجتماعية الفرنسية في الجزائر، وقد لاقت منظمة النجمة الانتشار السريع بين العمال والفلاحين والحرفيين والتجار الصغار.

قابلت السلطات الفرنسية هذه الأنشطة بحملات قمع ضد منظمة النجمة، ففي تشرين الثاني - نوفمبر/1928 صدر أمر بمنع المنظمة، وفي عام 1933 نهضت من جديد باسم "نجمة شمال أفريقيا المجيدة" وبعد أن منعت في السنوات اللاحقة، أقامت المنظمة الصلات مع الاتحاد القومي لمسلمي شمال أفريقيا، وعندما تعين على هذه المنظمة أن توقف نشاطها، قام مصالي الحاج بتاريخ 11/آذار- مارس/1937 بتأسيس حزب الشعب الجزائري.

وكانت فعاليات منظمة نجمة شمال أفريقيا والمنظمات التي أعقبتها، مساهمات مهمة من أجل تكوين الوعي الوطني الجزائري وفي تطور حركة التحرير، وبسبب سياسة مصالي الحاج المعادية للشيوعية، والمواقف الضيقة الأفق أدت إلى عزل نجمة شمال أفريقيا والمنظمات التي تلتها عن الحركة السياسية الفرنسية بصفة عامة.

وقد احتلت تأثيرات التعاليم الدينية الإصلاحية والأساتذة الدينيين(العلماء) مكانة مهمة في حركة التحرر الوطنية، وإن عدداً من الطلبة الجزائريين تأثروا خلال دراساتهم في الجامعات الإسلامية في تونس، مصر، سوريا، وكذلك في رحلاتهم إلى المشرق العربي التي تعرفوا فيها على الأفكار الإصلاحية لجمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، باشروا بعد عودتهم وقد تأثروا بهذه الأفكار واقتنعوا بها، العمل على التجديد الثقافي للإسلام في الجزائر والسعي من أجل تحقيق تام لروح القرآن، والعمل على تنقية الإسلام من التزوير ومن الانحطاط، فقد كان يُنظر إلى المرابطين ونضالهم بين سكان المغرب باحترام، وكانوا غالباً في القرون الماضية من قادوا الانتفاضات ضد الإسبان والبرتغاليين وأخيراً ضد الفرنسيين من أجل الدفاع عن حرية البلاد. و كان جزء كبير منهم قد عقد الصلات مع السلطة الاستعمارية بعد تأسيس السيادة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، والتي ليس نادراً ما قدمت لهم المكافآت والأراضي.

وقرر العلماء المصلحون الذين كانوا قد أسسوا مختلف المدارس، قرروا في 5/ أيار - مايو/1931 تأسيس "جمعية العلماء المصلحين الجزائريين" وكان في مقدمتهم عبد الحميد باديس(قسطنطينة) وطيب العقبي(الجزائر) وبشير الإبراهيمي(تلمسان)، وكان نضالهم ضد الخرافات والعبادات، وكذلك كانت فعالياتها في العناية بالثقافة التقليدية وباللغة العربية، و وصل هذا النضال بتأسيس هذه المنظمة إلى مرحلة متقدمة.

ثم قام المصلحون الإسلاميون بتأسيس الكثير من مدارس القرآن التي بلغ عددها نهاية عام 1936 في ولاية قسطنطينة وحدها 130 مدرسة، وكانت هذه المدارس لأولاد الفلاحين والعمال الحرفيين وصغار التجار، كما أن هذه المدارس لم تكن مقتصرة على تعلم اللغة العربية، ولكنها كانت تشمل أيضاً التاريخ القومي والأدب العربي، بالإضافة إلى عناصر تعليمية أخرى. ولم تكن هذه المرافق التعليمية تحت سيطرة الإدارة الاستعمارية، وكانت تقدم إمكانية ممتازة لتعليم الجيل الشاب ولغرس الوعي فيهم، عن وجود شعب الجزائر كما أن شعار الجمعية "الإسلام هو ديني والعربية لغتي والجزائر وطني" مثّل شعاراً للملايين من الجزائريين وساهم في الوعي الوطني.

وقد نشر المصلحون الإسلاميون فعاليات عديدة بين الناس، وفي عام 1919 كان أن باديس قد أسس مطبعة عربية وأصدر المجلات: النجاح، المنتقد، الشهاب، البشائر، ومطبوعات أخرى للجمعية مثل: "السنة" و " الشريعة المطهرة" وكذلك "الدفاع" La, Defense ولكنها كانت باللغة الفرنسية. ودافع عبد الحميد باديس ورفاقه في العديد من المقالات والعروض عن مفهوم وجود الشعب الجزائري، وفي ذلك كان عليهم التنازع مع ما مر ذكره من مفاهيم" فيدرالية المسلمين". وفي عام 1936 كتب ابن باديس: " لدينا أيضاً في التاريخ كما في الحاضر الثابت، بأن الشعب الجزائري المسلم قد نشأ وتكون ووجد كما تكونت كل شعوب الأرض، وهذا الشعب له تاريخه وله دينه ولغته الموحدة وثقافته وتقاليده لذلك نقول إن هذا الشعب الجزائري المسلم ليس فرنسياً، ولا يمكن أن يصبح فرنسياً ولا يريد أن يكون فرنسياً".(3)

وبعد أن عمدت سلطات الاحتلال إلى غلق النوادي الوطنية، اتخذ العلماء من الجوامع منابراً لنشر تعاليمهم من خلال خطباء المساجد. وقد نجح العلماء المصلحون بسحب الكثير من الفلاحين والمضطهدين من عمال الأرياف إلى جانبهم من خلال تصديهم للانحراف وبذلك ألحقوا الضعف بالرجعية، كما ثبت أن تأسيس مدارس القرآن والعناية باللغة العربية كانت من العناصر المهمة في إضفاء الشخصية الوطنية، وكانت الأعمال التي قام بتأليفها مبارك الميلي1929، وأحمد توفيق المدني 1931 عن تاريخ الشعب والأمة تلقي الأضواء على الإنجازات والأعمال الكبيرة التي قام بها الشعب الجزائري، والتي أدت إلى تطور وعيه الوطني.

والحقيقة أن عبد الحميد بن باديس وهذه لها أهمية سياسية بالغة، قد بذل جهوده في سبيل توحيد كافة القوى الوطنية(بما في ذلك الشيوعيين) في وحدة عمل فعالة، فكان يقيم موقف الحزب الشيوعي الفرنسي بهذه الكلمات:" إننا سوف لن ننسى بأن الحزب الشيوعي كان البادئ باتخاذ الموقف الذكي والإنساني في العلاقات مع شعوب المستعمرات".(4)

وكان ابن باديس وأصدقاؤه يريدون أن تكون لجمعيتهم بأهدافها الدينية اتجاهات غير سياسية، كما أنهم كانوا يريدون أن يشكلوا فارقاً بينهم وبين مطالب مصالي الحاج الراديكالية، ولكنهم كانوا يعتبرون أن الاستعباد الاستعماري للبلاد من خلال قوة استعمارية مسيحية أوربية حالة من عدم الاتفاق والوفاق مع الإسلام، كما هو هضم لحق تقرير المصير الذي هو من الحقوق

الطبيعية لأي شعب، ويأملون أيضاً بأن فرنسا ستكون يوماً ما متعقلة ومتبصرة وتعترف للشعب الجزائري مطالبه بالحكم الذاتي على طراز الدومينو البريطاني Dominion واستمروا مقتنعين بهذا الهدف لمرحلة طويلة والوصول إليه بالأساليب السلمية.

وقد برزت فاعليتهم في البعث الإسلامي بشكل موضوعي ضد دعائم الإقطاع، وخلق المقدمات الضرورية للثورة التحررية الوطنية التي هبت في 1/تشرين الثاني ـ نوفمبر/1954. لذلك لم يكن مفاجئاً أن تتحرك السلطات الاستعمارية ضد فعاليات المصلحين الدينيين ولتحاول بالتالي تأسيس اتحاد علماء محافظين ولتقليص نفوذ القوى الإصلاحية، وعندما برهن هذا التكتيك عن عدم فاعليته عمدت وزارة المستعمرات الفرنسية إلى منع هذه الأنشطة عام 1937 وكذلك إلقاء الخطب في الجوامع، ونهض الشعب الجزائري حيال هذا الخرق الظالم للتعاليم الإسلامية في عاصفة من الاحتجاجات.

ثالثاً : تأثير الأزمة الاقتصادية العالمية والحركة الوطنية من 1939_1936

كان عام 1930 مناسب للاحتفال الرسمي بمرور مئة عام (قرن) على احتلال الجزائر، والإعلان بأنها فرنسية Algerie Francaise، وعقدت مؤتمرات وتجمعات للإشادة (بما فعله المستعمرون)، ولكن النجاح والتقدم الاقتصادي الجزئي(الذي كان بالدرجة الأولى لمصلحة وفائدة الرأسمال المالي للمستعمر) لم يكن بوسعه أن يغطي البؤس العميق الذي سجنت فيه الإدارة الاستعمارية الفرنسية الشعب الجزائري.

وكانت تأثيرات الأزمة الاقتصادية العالمية ذات وقع ثقيل على كاهل الفلاحين والعمال والحرفيين وصغار الحرفيين وصغار التجار، وفئات أخرى من الشعب الجزائري، ولم يعد يلق الإنتاج الزراعي(العنب بدرجة رئيسية) وكذلك إنتاج المناجم الطلب المرغوب به في السوق الفرنسية، وخفضت مناجم الحديد والفوسفات من إنتاجها وأوقفته تماماً، ونتيجة لهذه التطورات فقد الآلاف من عمال المناجم وعمال الأرياف والسكك الحديدية أعمالهم وأرغموا على العمل في الريف عام 1933 ولمدة 12 يوماً وحتى 15 ساعة عمل مقابل 8 إلى 10 فرنك فرنسي، وكان العمال الجزائريون يتقاضون أجوراً سيئة بصفة عامة قياساً إلى زملائهم العمال الأوربيين، كما أن التميز العنصري قد برهن عن وجوده حتى في سياسة الأجور.

وكانت أسعار المنتجات الزراعية قد تراجعت بنسبة 25% كمعدل، كما أن الموسم السيء لعام 1931/1930 وكذلك 1936/1935 قد أسرع في إفقار جماهير الفلاحين، إذ استدان الكثيرين منهم وفقدوا المقومات الأساسية للوجود والحياة، كما تنامت أيضاً الهجرة من الريف ورزح الحرفيون ورجال الأعمال تحت منافسة قاسية من البرجوازية الأوربية، وتنامت كذلك أعداد جيش البطالة وساد الفقر المرير والجوع والأمراض في القرى ومدن الصفيح.

واتسع الاستياء في أوساط الشعب الجزائري من الأوضاع القائمة، وأصدرت السلطات الاستعمارية بتاريخ 5/ نيسان ـ أبريل/1935 الأوامر بتشديد العقوبات الصارمة لأي نشاط أو فعالية أو إعلان يمت بصلة إلى المقاومة.

وكان انتصار الجبهة الشعبية في فرنسا نيسان ـ أبريل/1936 يعني فتح المجال واسعاً أمام الحركة الوطنية في الجزائر، وكان ممثلو الحركة الوطنية يأملون تحقيقاً سريعاً لمطالبهم، وفي 7/ حزيران ـ يونيو/1936 شكلت الفيدرالية الإسلامية والجمعية الجزائرية للعلماء المصلحين وكذلك الحزب الشيوعي وفداً إلى المؤتمر الإسلامي الجزائري، وبذلك حصل للمرة الأولى في الجزائر(وإن لم يدم ذلك سوى عامين) جبهة موحدة للقوى الديمقراطية، وعدا منظمة نجمة شمال أفريقيا، فقد انتمت كافة المنظمات السياسية إلى هذا التجمع، وكان للحزب الشيوعي في ذلك دور متميز.

وفي 20/تموز ـ يوليو/1936 اتخذ المؤتمر قائمة طلبات الشعب الجزائري، إذ طالبوا بالدرجة الأولى إلغاء كافة القوانين الاستثنائية وصيانة كافة الحقوق الديمقراطية لكافة الجزائريين، وحماية حقوق الشعائر الإسلامية وحقوق الانتخابات العامة وإزاحة العوائق أمام اللغة العربية، وعدم تدخل السلطات في الشؤون الثقافية الإسلامية، والتعليم الإلزامي للأطفال، وتحسين الرعاية الصحية للمواطنين، دعم البطالة. ثم سافر وفد إلى باريس في 23/تموز ـ يوليو/1936 ليسلم طلبات المؤتمر إلى حكومة ليون بلوم.

وتحت ضغط القوى الديمقراطية لم تجد الحكومة الفرنسية بداً من تقديم بعض التنازلات، وعملياً فإن قانون (مكان الميلاد) لم تعد له الفاعلية التنفيذية، وأجيزت شرعية نقابات العمال، وأدخلت إلى الجزائر بعض الإجراءات الاجتماعية المعمول بها في فرنسا، ولكن الحكومة لم تكن على استعداد لإزاحة النظام الاستعماري، وفي نهاية عام 1936 طرحت مشروع قانون كانت تأمل منه أن تحقق الأمنيات المستعجلة للبرجوازية الجزائرية(مشروع بلوم وفيوليت) الذي كان يرى من خلال شخصيات منتقاة لهم صلات طيبة بين الضباط ونواب الضباط والجنود السابقين في الجيش الفرنسي، كالحائزين على شهادات جامعية، التجار، الفلاحين، ميسوري الحال، الموظفين من الذين عملوا طويلاً في النقابات، الذين لا يؤدون الفروض الدينية الإسلامية لمنحهم حقوق المواطنة الفرنسية، وبذلك فإن حق الانتخاب السلبي والإيجابي الفاعل والخامد كما هو سائد في فرنسا، وكان هذا التخصيص يشمل 20 ألف شخص.

وأعلن أن هذا المشروع الإصلاحي سيتم تنفيذه، ولكن المشروع لم ينفذ، وقد اعتبرت جماعة الفيدرالية الإسلامية أن هذا الإجراء هو خطوة لإلغاء القانون الاستعماري، فيما اتخذ عبد الحميد بن باديس ورفاقه موقف الفتور والتحفظ، وأعلن مصالي الحاج النضال ضد القانون لأنه يحاول أن يلمع وجه الاستعمار الفرنسي وإحداث انشقاق بين صفوف الشعب الجزائري.

وقد جوبه مشروع بلوم ـ فيوليت بمقاومة مرّة من الرأسمال الفرنسي ومن المستوطنين في الجزائر، وتحدث المحافظ الفرنسي للجزائر في 14/كانون الثاني ـ يناير/1937 ضد مشروع القانون وقد هددوا بأنهم قد قرروا الاستقالة، وإصابة الإدارة بالشلل في حالة طرح المشروع للمناقشة في البرلمان، وبسبب ضغط القوى الاستعمارية قامت حكومة بلوم بسحبه، وقد وجد فرحات عباس وقادة آخرون في الفيدرالية الإسلامية أن آمالهم في الحكومة الاشتراكية والقوى البرجوازية اليسارية الفرنسية قد خابت وفشلت، فقد كان عليهم أن يعلموا بأن ما قاموا بالدعاية له من "الاندماج والتجانس" لم يكن سوى خيال وأوهام، واحتجاجاً على رفض الإصلاحات، تخلى في آب ـ أغسطس/1937 النواب من شرق الجزائر عن عضويتهم.

كان انتعاش الحركة الوطنية في أعوام الثلاثينات مرتبطاً بصورة ملحوظة بتصاعد الفعاليات النضالية للطبقة العاملة التي كانت قد بدأت تتشكل، ففي مدن عديدة حدثت التظاهرات الاحتجاجية من العمال العاطلين عن العمل كما في 1935 في سيدي بلعباس ومستغنم، وفي عام 1937 في تلمسان، وقد قام عمال مطرودون من أعمالهم باحتلال المعامل وفي عام 1936 و1937 حدث إضراب للعمال الزراعيين في مناطق متيدجة وفي وديان زمام، وكذلك في مناطق سكيكدة، ووهران، الجزائر، وفي عام 1937 و1939 أضرب العمال في موانئ الجزائر ووهران، مستغانم، ودجيدجيلا وكذلك عمال المناجم في كويف وتيمسريت وسيبادونا، وقد طالب العمال أجوراً أعلى وبتحسين أوضاعهم الاجتماعية، وقد تصدت الشرطة والجندرمة بقوة السلاح ضد الشغيلة، وسقط العديد من القتلى والجرحى.

وقد تركز اهتمام القوى الوطنية والتقدمية على المشكلات الاجتماعية للعمال والفلاحين وفئات الشغيلة الأخرى، وعبأها من أجل الدفاع عن نفسه ضد القوى الفاشية، وهؤلاء كانوا قد نهضوا أيضاً في الجزائر بدعم من العملاء الألمان والفاشية الإيطالية، ونشطت من خلال الانقلاب الملكي الفاشي للجنرال فرانكو في إسبانيا عام 1936، وحاولوا استغلال استياء وسخط الجماهير لتحقيق أهدافهم، وكانت صحيفة(النضال الاجتماعي) La, Lutte Social قد قدمت مساهمة مهمة في تكوين النضج السياسي للشغيلة من السكان الجزائريين وقبل كل شيء في تطور الحركة العمالية.

وكانت السلطات الاستعمارية قد اتخذت حيال انتعاش القوى الوطنية والاجتماعية إجراءات قمعية جديدة، ففي عام 1937 صدر الحكم على مصالي الحاج بالسجن لمدة سنتين، وفي عام 1938 صدر الأمر بمنع تأسيس مدارس أخرى لتعليم القرآن بواسطة العلماء المصلحين. وفي عشية الحرب العالمية الثانية، كانت القواعد الاجتماعية للحركة الوطنية الجزائرية قد بدأت بالاتساع، وكانت الاتجاهات الإصلاحية والاندماجية قد تراجعت وكانت موضوعياً تخلق المقدمات لنهوض وانتعاش النضال المعادي للاستعمار الشعب الجزائري.

مصادر الفصل الثاني

1. Egretaud, M: Nation Algerien, Berlin, 1958, S. 170
2. Abbas, F: La France Clest moi, In : I, Entente Algier, V
3. Tourneau, R: Evolution Polique de, Afrique du Nord Musliman 1920-1961, Paris 1962, S.319
4. Egretaud, M : a.a.o. , S.170

الفصل الثالث

تكون الحركة الوطنية في تونس

1. الوضع بعد الحرب العالمية الأولى.
2. تأسيس الحزب الدستوري.
3. آثار الأزمة الاقتصادية العالمية.
4. دخول قوى جديدة إلى الحزب الدستوري.
5. قيام الحزب الدستوري الجديد ـ الفعاليات الجماهيرية لعام 1934.
6. الحركة الوطنية في مرحلة الجبهة الشعبية.
7. الفعاليات الجماهيرية ضد الاستعمار 1938.

أولاً : الوضع بعد الحرب العالمية الأولى

بتوقيع اتفاقية باردو Bardo 1881 ولامارسا La Marsa 1883 كانت فرنسا قد مدت هيمنتها على تونس. ومن أجل تحقيق ظاهري لما يسمى بالحماية Protektroat، سمحت فرنسا شكلياً باستمرار إدارة العائلة الحسينية لشؤون البلاد، فيما كانت الصلاحيات الحاسمة من السلطة بيد المقيم العام الفرنسي وموظفيه، وقد وضعت الرأسمالية الفرنسية الكبيرة المصادر الاقتصادية للبلاد من مناجم وطرق وسكك حديدية ضمن مجال عملها، ومضت تنهب(كما في الجزائر) أكثر الأراضي خصوبة، وفي عام 1921 كان 641 ألف هكتار(ويمثل ذلك 8% من الأراضي الزراعية) قد غدا ملكاً للأوربيين، فرنسيين بالدرجة الأولى، ومستوطنين، وكذلك شركات رأسمالية مثل الشركة الفرنسية ـ الأفريقية Cociete Franco Africaine وشركة الحقول الفرنسية Cociete des fermes Francaises وشركات فوسفات وكيمياويات قفصة Compangnie de Phosphat et de chemin de fer Gafsa.

ولم يكن الشعب التونسي ليرضى بالاضطهاد الوطني والنهب الاقتصادي لبلاده دون أن يهب لمقاومته. وكان الفلاحون والرعاة وفقراء المدن قد قاموا في أعوام الثمانينات من القرن التاسع عشر، بانتفاضة مسلحة ضد زحف القوات الاستعمارية، وكان النضال المعادي للاستعمار في البلاد على أعتاب القرن العشرين الجديد قد تركز في المدن، إذ نهضت أولى المنتديات ومنها حزب تونس الفتاة الذي تأسس عام 1907، وكان أعضاؤه من بين صفوف كبار ملاكي الأراضي، والليبراليين، وبرجوازية المدن والمثقفين والموظفين، وقد طالبوا بتحديد السلطة السياسية والاقتصادية للنشاطات الاستثمارات الفرنسية الكبيرة في تونس عبر تطبيق دستوري.

وكانت الحركة الوطنية التونسية قد تأثرت بالثورات الديمقراطية الوطنية في روسيا 1905-1907 وفي تركيا 1908 وفي بلاد فارس 1905-1911 وكذلك كان نضال الفلاحين والبدو الليبيون بقيادة السنوسي ضد الاحتلال الإيطالي يقوي من عزيمة وإرادة الشعب التونسي في النضال والمقاومة، وقد عبر ذلك عن نفسه في الإضرابات ومقاطعة المتاجر الفرنسية، وأخيراً في انتفاضة عفوية لسكان كالاز وهي إحدى ضواحي مدينة تونس عام 1911.

وقد شددت الحرب العالمية الأولى من التناقضات بين الشعب التونسي والسياسة الفرنسية التي وضعت اقتصاد البلاد في خدمة الأهداف الحربية، كما استخدمت الميزانية التونسية من أجل تغطية النفقات العسكرية، كما ألزم 51 ألف شاب تونسي لخدمة الحرب، أو بالأحرى في الجيش الفرنسي. وبينما كانت الأرباح تتصاعد لمصلحة الرأسمال الفرنسي والبرجوازية الفرنسية الكبيرة، والمستوطنة في تونس من خلال الاستغلال الجاري للثروات الطبيعية، كانت الحالة تسوء بالنسبة للشغيلة المحلية. وكانت حالة الطوارئ قد فرضت من عام 1911، ولم يكن بوسع حزب تونس الفتاة الضعيف تنظيمياً مقاومة الضغط والاضطهاد، لذلك فقد تمزق وانهار أخيراً.

وكان بعض القادة التونسيين الشباب الذين طاردتهم السلطات الفرنسية عام 1912 قد فروا إلى سويسرا، ليواصلوا من هناك النضال وقد ابتدؤوا بتوضيح الظروف السائدة في بلادهم للرأي العام العالمي، كما أصدر محمد باش صمبا مع شقيقه علي صحيفة أخبار المغرب Revue de Maghreb ونشر في مهجره بجنيف عام 1918 كراساً بعنوان الحماية الفرنسية على تونس Le Protectorat Francaiscan en Tunisie الذي فضح فيه النظام الاستعماري ونادى شعبه لمقاومته.

وقد تأثرت الحركة الوطنية التحررية التونسية بالأفكار والأجواء السياسية التي انتشرت في أوربا بعد الحرب العالمية الثانية في هذا البلد الواقع شمال أفريقيا. وكان الكثير ممن عادوا إلى بلدانهم مثل العمال المراكشيين والجزائريين قد عادوا بالتجارب السياسية والفكرية الفرنسية وغيرها وأيضاً بالصلات معهم, وكان البعض منهم قد ساهم في صفوف النضال ضد الحرب وضد النضال الاجتماعي ضد الاستغلال، وأيضاً طلبة تونسيون تلقوا دراساتهم العليا في كليات فرنسا، تأثروا بالأفكار الديمقراطية المعادية للاستعمار ونقلوها إلى بلادهم، كما استفادوا من إقامتهم في باريس ومرسيليا وليون والمدن الأخرى في إقامة الصلات الحركات السياسية الفرنسية والقوى الديمقراطية الأخرى.

وفي سنوات الحرب وما بعدها، كان الآلاف من التونسيين من جميع الطبقات والفئات قد وعوا الحرمان من الحقوق السائدة في بلادهم كذلك من البؤس الاجتماعي، وقد انضمت قوى طبقية من الحقوق السائدة في بلادهم وكذلك من البؤس الاجتماعي. وقد انضمت قوى طبقية جديدة إلى الحركة الوطنية، وكان في تشكل الشغيلة ونضالها أهمية كبرى لمسألة التطور، وهي عملية بدأت في أعقاب القرن الجديد(العشرين) مع تواجد رؤوس أموال أجنبية ومستثمرين فرنسيين وإيطاليين في مجال المناجم ومواد البناء والصناعات السلع الاستهلاكية وفي مجال المواصلات والتجارة والاقتصاد الزراعي. وقد بلغ عدد العمال عام 1921 أكثر من 110 ألف عامل، وكان الجزء الأكبر منهم لم يكن يحوز على عمل دائمي والضعف أو قلة التركيز والصلات القوية مع القرية، كانت هذه من العناصر التي تضعف تنظيمهم، كما أدت إلى سرقة حقوقهم الاجتماعية وتجعلهم غير متجانسين في تكوينهم الاجتماعي كطبقة عاملة. ومن خلال تفضيل ومحاباة العمال الفرنسيين والإيطاليين، كما حاول الرأسماليون الأجانب(مع تحقيق شيء من النجاح) زرع النفور والشقاق بين البروليتاريا.

ولم تحرم الإدارة الاستعمارية الفرنسية الفئات الوسطى من المساهمة في السلطة فحسب، بل وأيضاً أعاقت نموها الاقتصادي، وكان الممثلين المتنورين لهذه الفئات ولفترة طويلة مقتنعين بالأطروحة الاستعمارية(سيادة الحماية) ورفعوا الطلبات من أجل الاستقلال السياسي. وكان عبد العزيز الثعالبي أحد القادة السابقين لحزب تونس الفتاة، قد ذهب إلى باريس عام 1919 من أجل الاتصال بالأوساط البرلمانية لتفهم القضية التونسية، وفي عام 1920 حاول سوية مع أصدقاء تونس الفتاة من خلال نشرهم كراس "تونس الشهيدة ـ طلباتها " من أجل جذب انتباه الرأي العام العالمي إلى الأوضاع في تونس.

ثانياً : تأسيس الحزب الدستوري

في نفس العام انتظمت الحركة الوطنية التونسية من جديد، وعلى أنقاض حزب تونس الفتاة نهض الحزب الدستوري الحر(سمي اختصاراً بالحزب الدستوري) وقد انبثقت القوى الرئيسية في المنظمة الجديدة من بين صفوف التجار الأغنياء وأصحاب الورش(المانفكتورات) وكبار مالكي الأرض الليبراليين وموظفين كبار. وكان برنامجهم في جوهره مقتبس من أفكار كتاب الثعالبي، الذي ينطوي على الطلبات الرئيسية التالية: *إعادة العمل بدستور 1861، *وتأسيس برلمان تونسي يضم تونسيين وفرنسيين نتيجة انتخابات دستورية عامة، *وتأسيس حكومة تكون مسؤولة أمام البرلمان، *إحلال تونسيين ينفي كافة وظائف الدولة *المساواة التامة بين الموظفين التونسيين وزملائهم الفرنسيين، *العمل بالتعليم الدراسي الإلزامي *حرية الصحافة والتجمعات والائتلافات، ويعكس هذا البرنامج مساعي البرجوازية التونسية لممارسة المشاركة في السلطة وتحقيق ذلك(ليس كما توقع قادة الدستوري) سوف لن يؤدي إلى تصفية السلطة الاستعمارية، ولكن بدون شك قد حسّن من ظروف وشروط نضال حركة التحرر الوطنية.

وقد وافق السكان التونسيون بحماسة على طلبات الحزب الدستوري، وغضبوا عندما رفضتها الحكومة الفرنسية وفي غضون ذلك، كانت الحركة الوطنية تنمو بصفة مطردة، بل أن الشيخ الطاعن في السن الباي محمد الناصر دعم برنامج الحزب الدستوري وعندما جاء الرئيس الفرنسي ألكسندر ميلران Alexander Millerand إلى البلاد في نيسان أبريل/1922 قادماً من مراكش في سفرة له إلى بلدان المغرب، هدد الباي بالاستقالة ما لم يباشر نظام الحماية الإصلاحات بدون تردد. ومن أجل التحوط من اتساع نشاط الحركة الوطنية، فقد قررت الحكومة في باريس تقديم بعض التنازلات، وفي تموز- يوليو/1922 طرح المقيم العام الفرنسي لوسيان Lucien تأسيس فرع فرنسي للمجلس الكبير المؤلف من تونسيين وفرنسيين، ومهمة هذا المجلس الذي أعدته تلك الأوساط برلماناً كان مقتصراً على التصديق على الميزانية والتداول في قضايا السياسة الداخلية.

شعرت الجماهير الشعبية بخيبة أمل من تلك الإصلاحات التي يرثى لها، وأبدت استعدادها لمواصلة النضال، ومقابل ذلك كانت هناك أوساط من البرجوازية الوطنية، وكبار مالكي الأرض يشعرون بالارتياح والرضا، وتركوا الحزب الدستوري وشكلوا الحزب الإصلاحي وهم من المتعاونين مع السلطات الفرنسية. وفي عام 1926 قامت السلطات الاستعمارية بالضربة، حيث قلصت من الحريات الديمقراطية التي ناضل الشعب من أجلها، كما جرى تحديد وتضيق نشاطات النقابات، ومنعت الاجتماعات والتظاهرات والوقوف بوجه سلطات الحماية التي كانت تهدد بعقوبات شديدة.
وأرادت القيادات البرجوازية الكبيرة في الحزب الدستوري أن تتعاون في الضربات الانتقامية، فطالبت بوقف الفعاليات المعادية للاستعمار على الرغم من أكثرية الأعضاء ومؤيدي الحزب كانوا على استعداد لمواصلة النضال، وفي السنوات المنصرمة كان العديد من الحرفيين وصغار التجار وصغار الموظفين والمثقفين، وأيضاً العمال والفلاحين، كانوا قد هبوا إلى الحركة الوطنية ووسعوا من قاعدتها الاجتماعية. ومن بين الفئات الوسطى نما جيل من القادة السياسيين والكوادر. ومن أجل تنظيم جهود الحزب وترسيخها وتوسيع نفوذه السياسي، نجحوا بتأسيس العديد من الخلايا الحزبية في الأرياف أيضاً، كما اتسع حجم المؤيدين له في صفوف الشعب من خلال تأسيس اتحادات ثقافية ورياضية وكشفية. ولكنهم أظهروا أنفسهم أنهم لا يمتلكون الإرادة ولا القدرة على تنظيم الكفاح ومواصلة النضال ضد اضطهاد الاستعمار والفقر المتزايد لجماهير الشغيلة بصفة عامة على عكس ممن اعتمدوا التطور على قاعدة السلطات التنفيذية من القوى القيادية القديمة في إيقاف فعالياتهم.

ثالثاً : آثار الأزمة الاقتصادية العالمية

كانت الرأسمالية الأجنبية قد تأسست في تونس في السنوات المستقرة نسبياً التي مرت بها الرأسمالية 1925–1928 من البرجوازية الاستعمارية الفرنسية والإيطالية للعمل في مجال الفوسفات ومناجم الحديد والرصاص والزنك، وكذلك الاستثمارات في مجال صناعات النسيج والصناعات الكيماوية ومعامل تصنيع الإنتاج الزراعي. وكانت الفئات الأوربية العليا من كبار ملاكي الأراضي والشركات الاستيطانية قد اتسعت على حساب الفلاحين المحليين وممتلكاتهم، من خلال استحواذهم على 700 ألف هكتار من أخصب الأراضي، وكان من نتائج ذلك هو تبعية الاقتصاد التونسي إلى السوق الفرنسية، كما شملت البلاد تأثيرات الأزمة الاقتصادية العالمية البلاد بنتائجها حتى عام 1935.

وكانت منتجات المناجم وكذلك الاقتصاد الزراعي لم تعد تجد رواجاً لها، وإن قيمة 66%من البضائع التي كانت تصدر إلى فرنسا هبطت عام 1929 من 3،393،000 فرنك إلى 2،708،000 عام 1931 وإلى 1،680،000 فرنك عام 1930، وإن تصدير خامات الحديد قد هبط من 977،000 عام 1929 إلى 209،000 عام 1932، وكنتيجة لذلك هبط أيضاً أعداد العمال في المناجم من 20،350 عام 1927 إلى 11،500 عامل عام 1931 ثم هبط مرة أخرى إلى 7،450 عام 1933، وكانت مثل هذه الأوضاع مشابهة في بعض مجالات الصناعة ومجالات المواصلات، وكذلك في القطاع الرأسمالي في الاقتصاد الزراعي.(1) كما اتسعت البطالة بين الجماهير في أرجاء تونس عامة.

وبسبب سوء وتقلص الرواج هبطت أسعار الحبوب، زيت الزيتون، الفواكه، العنب، وغطس الكثير من الفلاحين في الديون، وقد ساءت أحوالهم بشدة بسبب الفيضان الشديد عام 1932/1931 وما أعقب ذلك من سنوات قحط، وفي بعض المناطق هلك 80% من المواشي، ولم تكن إجراءات المساعدة التي قام بها موظفو الحماية كافية، وخصصت أثمانها إلى كبار ملاكي الأراضي والفلاحين الأغنياء، واضطر الكثير من الفلاحين إلى بيع أراضيهم أو جزء منها والقبول لوضع جديد كمستأجر للأرض، أو العمل بالأجرة اليومية كما تنامى التفاوت في الملكية وتصاعدت أسعار البناء بصورة كبيرة، وقد حدثت المجاعة في بعض المناطق، وأرغم الشقاء الاجتماعي الكثير من الفلاحين وعمال الأرياف على مغادرة قراهم، ولكنهم لم يجدوا لا عمل ولا سكن في المدن، وارتفع بالمقابل أعداد الذين يعانون شقاء العيش وأعداد البروليتاريا الرثة.

رابعاً : دخول قوى جديدة إلى الحزب الدستوري

رسخ اشتداد البؤس الاجتماعي والاضطهاد الوطني استياء الشعب التونسي من نظام الحماية، واستنكر الكثير من أعضاء وأتباع الحزب الدستوري تردد وانتهازية قياداتهم وطالبوا القيام بفعاليات وطنية. ونهض من بين صفوف الحزب تيار يساري معارض، وهو مؤلف من شبان من بيئة البرجوازية الصغيرة ومن المثقفين الذين تلقوا دراساتهم في كليات فرنسا وتعرفوا هناك على الأفكار الاشتراكية وتأثروا بها، وكانوا يلقون عند التيار اليساري النصيحة والدعم في النضال الوطني التحرري لأوطانهم، وقد درسوا باهتمام الأساليب النضالية وأشكال التنظيم للحركة الوطنية وحاولوا استخدامها بعد عودتهم إلى بلدانهم في النضال ضد الاستعمار، وقد توصلوا إلى القناعة، بأن حركة التحرر الوطنية ليست (كما سعى القادة القدامى للحزب التونسي) من خلال الجمعيات الإسلامية التقليدية في تحفظهم على الحضارة الأوربية وفي الوصول إلى أهدافهم بل وأكثر من ذلك، ينبغي عليهم الملاحظة والأخذ بنظر الاعتبار العملية الاجتماعية/الاقتصادية، وأن يكون نضالهم مرتبطاً مع الشعب.

ومضت قوى المعارضة بطاقة وحيوية كبيرة إلى توسيع طلبات الحزب الدستوري وجماهيره بين العمال والحرفيين والتجار الصغار وبين الفلاحين وعمال الأرياف، وكانت جهودهم هذه في وقت كانوا يعانون من آثار الأزمة الاقتصادية العالمية والتناقض بين أغلبية الشعب التونسي والإدارة الاستعمارية الفرنسية يتواصل احتداده بصورة تفوق المألوف، وحيث كان النضال المعادي للاستعمار قد بلغ مرحلة جديدة في الأقطار العربية المجاورة، ففي مصر حيث كانت التظاهرات والاضطرابات السياسية قد اندلعت في تموز - يوليو/1930 وأيار - مايو/1931، وكذلك في فعاليات المقاومة الباسلة للفدائيين الليبيين ضد الاحتلال الإيطالي الفاشي الذي كان له أبلغ الأثر والنفوذ على الحركة الوطنية التونسية، وكان لانعقاد مؤتمر عالمي للكنائس المسيحية في قرطاجة(ضاحية مدينة تونس) قد صاحبه موكب احتفالي بطريقة استفزازية أثارت غضب السكان المسلمين.

وكان في مقدمة القوى السياسية الناشطة في النضال السياسي للحزب الدستوري، الأخوة: حبيب، ومحمد أبو رقيبة(أصبح لاحقاً رئيس جمهورية تونس) (2)ومحمد المطيري وصلاح فرحات وطاهر صفر، وقد تمكن حبيب بورقيبة من إحراز نفوذ سريع وحاسم في الحركة الوطنية.

وكان بورقيبة قد ولد في 3/ آب - أغسطس/1903 لعائلة متوسطة الحال، كثيرة الأطفال في مدينة منستير بجنوب تونس، وكان والده ضابطاً برتبة ملازم في جيش الباي(حاكم تونس)، توجه بعد إنهاء دراسته الثانوية في تونس إلى باريس بعد عام 1924 لدراسة الحقوق والعلوم السياسية، وعاد في 1927 إلى تونس، وترك مهنة المحاماة جانباً وباشر عمله فعالاً نشيطاً في الحزب الدستوري الذي كان ينتمي إليه منذ عام 1922.

وكانت هيئة التحرير للصحيفة التي تأسست في 1/تشرين الثاني - نوفمبر/1932 باسم العمل التونسي L, Action Tunisienne في وسط قوى المعارضة، وكان هناك العديد من المقالات التي طرح فيها بورقيبة وزملاؤه مناهجهم وأهدافهم في الحركة الوطنية التحررية وعن خلافهم مع قيادة الحزب الدستوري القديم.
وكانت القيادة القديمة للحزب تقود النضال ضد السيادة الأجنبية من أجل تأسيس دولة تونسية مستقلة على أساس الإسلام، والدفاع عن المجتمع التونسي الذي يتعرض إلى الاضطهاد والقمع،

ولكن القوى المحافظة كانت تضع العراقيل أمام عملهم(وهي من ضمن الحزب) في تعبئة الجماهير الشعبية في هذه المرحلة التي احتدمت فيها التناقضات مع الإدارة الاستعمارية الفرنسية متمسكين بالجمود وعدم التحرك.

وكان موقف القوى الجديدة مبدئياً حيال الطلبات التي صاغها الحزب الدستوري، وقد حملوا راية العمل متحملين الآلام من أجل حق الشعب التونسي في الاستقلال ودافعوا عن الثقافة الوطنية وعن اللغة العربية ضد مساعي الاندماج التي تبذلها السلطة الاستعمارية، وكانت وطنيتهم قائمة على قاعدة تختلف عن قادة الحزب الدستوري السابقين، ليس على الإسلام بالدرجة الأولى بل أنها كانت تحمل شخصية جوهرية، حيث أنها كانت متأثرة جوهرياً بالأفكار الديمقراطية البرجوازية الأوربية. وقد نجحت المجاميع التي كانت تلتف حول (العمل التونسي) بالتعرف على أن حركة التحرر الوطني ليست إلا عملاً من التعامل الفعال للجماهير الشعبية، وبالتوصل إلى هذا الهدف على مراحل، وكانت هذه من أهم الواجبات في بداية الثلاثينات إذ قاموا بتعبئة الجماهير، وكانت احتفالات الحزب الدستوري قد جعلت منه تنظيماً مهماً وقوة سياسية ضاربة.

وقد شن الدستوريون الجدد في صحفهم حملات ضد الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في البلاد، وهجمات شديدة ضد الإدارة الاستعمارية التي قطعت الطريق على محاولات ومساعي الموظفين التونسيين بناء على طلب البرجوازية المحلية، وفي نفس الوقت وجهت الانتقاد إلى قيادة الحزب الدستوري وموقفهم الذي تميز بالتردد والانتظار.

وقد تطورت في هذا الوقت واحدة من المشكلات التي كانت الجماهير الشعبية تعاني منها، وهي تأمين حقوق المواطنة الفرنسية وتسمية (المواطنة) على الأفراد التونسيين، وكانت الأوساط المتدينة من السكان تعدها كالارتداد عن الإسلام. وقد تنامت المقاومة ضد التطبيع والدعوة للنضال ضد هذا الشكل من السياسة الاستعمارية الفرنسية بعد المؤتمر الإسلامي الدولي في القدس 1931، وفي الأيام الأولى من كانون الثاني - يناير/1933، حدثت في بنزرت اضطرابات عندما رفض مئات من المسلمين دفن أحد التطبيعيين(جماعة المواطنية) في المقبرة، وقد منحت (العمل التونسية) هذا العمل العفوي المعادي للاستعمار صفة سياسية وقامت بمهاجمة عنيفة لنظام سيادة الحماية، وبنفس الوقت فقد تحفظت (جماعة العمل) على مواقف الإصلاحيين من العلماء الذين كانوا يرون في جماعة التطبيع بأنهم مرتدون عن الإسلام ليس إلا، كما أن الاستياء الذي كانت تشعر به الجماهير انفجر على شكل تجمعات وتظاهرات ساهم بها الآلاف من الناس، وقد تمكن الشباب الوطني الملتف حول حبيب بورقيبة في وقت قصير نسبياً من تحقيق نفوذ مهم في الحركة الوطنية كما تنامى أيضاً التناقض في قمة الحزب الدستوري.
وكانت قيادة الحزب خلال هذه التطورات مضطربة، لذلك فقد نادوا إلى عقد مؤتمر استثنائي للحزب من أجل الحفاظ على نفوذها والحيلولة دون حدوث انشقاق في الحزب، والذي انعقد فعلاً في الفترة 13- 13 / أيار- مايو / 1933 في تونس، وفي البيانات التي أدلى بها المندوبون كان النضال من أجل الحرية للشعب التونسي قد ارتسم كهدف للحزب، واستقرار دائم وكذلك إجراء انتخابات عامة وبرلمان يعمل بموجب الدستور، وتكون الحكومة مسؤولة أمامه و ضمان الحريات الديمقراطية لكافة التونسيين، وكان المندوبون الرافضون أي تعاون مع النظام الاستعماري، كانوا يسعون بذلك إلى الحكم الذاتي في تونس.

وقد تمكنت مجموعة حبيب بورقيبة من ترسيخ مواقعها، وبرغم ما كان يبدو ظاهرياً من توافق في الآراء، فقد كان هناك في الحزب خلافات فيما يخص الأهداف والأساليب وأشكال النضال.

خامساً : قيام الحزب الدستوري الجديد ـ الفعاليات الجماهيرية لعام 1934

لم يكن بوسع الوحدة التي يبدو أنها قد عادت إلى الحزب أن تحتمل الصراع مع السلطات الاستعمارية، فقد أصدر المقيم العام مانسيرون Manceron الذي كان في مطلع عام 1933 أمراً باعتقال أعداد كبيرة من المتظاهرين، كما أصدر في 31/أيار ـ مايو/1933 أمراً بحظر الحزب الدستوري وكذلك على صحيفته الناطقة باسمه.

ورد السكان حيال هذا التنكيل بالإضراب، وإغلاق الريف ومقاطعة البضائع الفرنسية، بينما كان القادة القدامى للحزب الدستوري يتراجعون إزاء مثل هذه الإجراءات القمعية وكانوا يظهرون التفهم لإجراءات المقيم العام الجديد بيرتون Peyrouton، وكان الحبيب بورقيبة وأصدقاؤه قد قرروا مواصلة النضال تحت ظروف صعبة. وفي أيلول ـ سبتمبر/1933 غادروا اللجنة التنفيذية للحزب وتنادوا لعقد مؤتمر حزبي استثنائي الذي انعقد في 2/ آذار ـ مارس/1934 في قصر هلال، وفيه قرروا إعادة التنظيم، وانتخب المندوبون مكتباً سياسياً كقيادة جديدة، وانتُخب محمد المطيري رئيساً وحبيب بورقيبة سكرتيراً عاماً، ولم تعترف القيادة القديمة للحزب الدستوري بقرارات المؤتمر، ومضت إلى عقد مؤتمر حزبي في نيسان ـ أبريل لنفس العام، ولكن التفاوت الحاصل لم يعيق انشقاق الحزب، وقررت الأكثرية من مجموعة الحزب في قصر هلال تسمية قيادة جديدة، أطلق على التنظيمات التابعة لها بالدستوري الجديد، فيما أطلقت القيادة القديمة على نفسها الحزب الدستوري القديم.

وبصرف النظر عن الإجراءات القمعية التي كانت تنتظرهم، حمل الدستوري الجديد المطالب الوطنية ودافع عن مصالح الجماهير. وقد لعبت الصحيفة الصادرة بالفرنسية(العمل) دوراً مهماً، وبدأ الحزب الدستوري الجديد يتطور إلى حزب جماهيري استلم قيادة الحركة الوطنية التونسية، وكان أعضاؤه وأتباعه من بين صفوف حرفيي المدن والتجار الصغار والمثقفين والعمال، والفلاحين وعمال الريف وكذلك من البرجوازية الوطنية وكان قادة الحزب من بين بين أوساط الفئات الوسطى للبرجوازية الصغيرة.

وفي خريف عام 1934 اندلعت الاضطرابات في مختلف المناطق في تونس، ساهم فيها الفلاحون وعمال الريف، وكانت تطالب سلطات الحماية بإجراءات دعم فعالة ضد تأثيرات الأزمة وتقليص وتحديد المستوطنات الأوربية، كما أنهم رفضوا دفع الضرائب، وتكرر لأكثر من مرة الصدام الدموي بينهم وبين وحدات الجندرمة لقمع الاضطرابات.

وتبنى الحزب الدستوري الجديد مطالب الفلاحين التي حرروا فيها التماساً إلى السلطات على العكس من الحزب الدستوري القديم الذين رفضوا المساهمة في اللجنة المشكلة من المقيم الفرنسي لدراسة المطالب، ونادوا السكان إلى مقاطعة البضائع الفرنسية والامتناع عن دفع الضرائب.
ولما كان موظفي الحماية غير مرتاحين إلى تنامي الحركة الشعبية، لجؤوا إلى الإجراءات القمعية والتنكيل، وفي 3/ أيلول ـ سبتمبر/1934 ألقت تلك السلطات القبض على ثمانية من قادة الحزب الدستوري الجديد، بما فيهم حبيب بورقيبة، سيقوا إلى الاعتقال وسفروا إلى المقاطعات الصحراوية في الجنوب، وقد نظم الحزب ضد هذه الإجراءات القمعية تجمعات احتجاجية وتظاهرات في الشوارع وإغلاق الريف ومقاطعة وسائط النقل العامة، كما حدثت
الاضطرابات في المدن، ولم يكن بوسع الإجراءات القمعية خنق الموجة المتصاعدة للحركة الوطنية التي كان قادتها، وبصفة خاصة حبيب بورقيبة يكسبون المزيد من الشعبية.

سادساً: الحركة الوطنية في مرحلة الجبهة الشعبية

منح انتصار الجبهة الشعبية للأحزاب المتحدة في الانتخابات البرلمانية عام 1936 في فرنسا، الحركة الوطنية التحررية التونسية مساحة كبيرة للحركة، ورفع موظفو الحماية بعض الإجراءات المفيدة، حيث أطلق سراح العديد من المعتقلين من أعضاء الحزب الدستوري الجديد والشيوعيين، كما رفع الحظر عن الصحف الوطنية.

واستغل قادة الحزب الدستوري الجديد مناخ هذه المرحلة الليبرالي في تقوية منظمات الحزب، وتمكنوا في فترة قصيرة جداً من تأسيس أكثر من 400 من منظمات المناطق التي تضم 100 ألف عضو، وكذلك المنظمات التي كانت مرتبطة بالحزب الدستوري الجديد أو أنها تحت تأثيره وقد تنامت هيبة ومكانة الحزب بين الجماهير.

وناضل إلى جانب الحزب الدستوري الجديد عناصر وطنية وديمقراطية من أجل التحولات الديمقراطية العامة في تونس وكذلك من أجل تحسين الوضع الاجتماعي لفئات الشغيلة، ومن خلال فعالياتهم في الحركة النقابية، قدموا مساهمة مهمة في تنظيم الطبقة العاملة، وتطور وعيها السياسي. وكتعبير عن ذلك كانت الإضرابات ولا سيما في مجال البناء، وعمال المعادن(المناجم) في تونس وبنزرت، قد تصاعد في تونس عام 1936 أعداد المضربين عن العمل إلى 21 ألف مقابل 772 في الأعوام المنصرمة، كما طالب العمال بعقود جماعية وتحقيق الضمان الاجتماعي، والضمان ضد الحوادث والدعم المالي عند البطالة. وقد رأى موظفو الحماية أن المناسبة قد حانت، ففي 4/ آب ـ أغسطس/1936 كانت الحكومة الفرنسية قد قررت تحقيق ما كانت الطبقة العاملة الفرنسية قد ناضلت من أجله في تحقيق إصلاحات اجتماعية(40 ساعة عمل في الأسبوع، إجازة سنوية مدفوعة الأجرة، عقود عمل جماعية، وإجراءات أخرى) ونال العمال التونسيون حقوقاً مماثلة رغم أن بعض المستثمرين والمشاريع الأجنبية قد عارضت تحقيق هذه القرارات، ولكن عدد من الإضرابات(عام 1937 أضرب 26 ألف عامل عن العمل) أرغمتهم على الرضوخ وتنفيذ طلبات العمال التونسيين. كما طرح التهديد المتنامي للعالم من خلال الفاشية على الحركة الوطنية التونسية مهماتها أيضاً، لتأخذ مكانها في النضال الدولي للقوى الديمقراطية.

وكان الحزب الشيوعي التونسي قد سحب في هذه المرحلة المطالب من أجل الاستقلال، واتخذ الحزب الدستوري الجديد موقفاً مشابهاً الذي كان على استعداد للعمل بثقة مع القوى الديمقراطية الفرنسية المعادية للفاشية من أجل تحرير تونس من الاستعمار، وكان حبيب بورقيبة ورفاقه على قناعة بأن التحرير الوطني لبلادهم لا يتحقق دفعة واحدة، بل عبر مراحل على طريق الخطوات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لتحرير الشعب التونسي، وتحقيق ذلك من خلال علاقات تعاون وثيقة مع القوى الديمقراطية في فرنسا، وفي المرحلة الأولى ينبغي(برأي قيادة الحزب الدستوري الجديد) على فرنسا منح البلاد الاستقلال الذاتي السياسي، ودستوراً مشابهاً لسوريا في اتفاقية 9/ أيلول ـ سبتمبر/1936.

كما طالب الحزب الدستوري الجديد من سلطات الحماية أن تجري بدون تردد الانتخابات العامة وتأسس مجلس تشريعي ونظام ديمقراطي يشارك فيه الشعب وتمكينه من ممارسة الحكم، وإزالة الفساد من إدارة الدولة، تعيين التونسيين في كافة وظائف الدولة، الاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية للدوائر، تطبيق التعليم الإلزامي، تأسيس صندوق لدعم العاطلين عن العمل، تأمين القروض للفلاحين الصغار والمتوسطين، والكف عن تحويل الأراضي إلى المستوطنين

الفرنسيين، تغيير قوانين الضريبة لصالح الشغيلة من المواطنين، تأميم المؤسسات الصناعية الكبرى، وكذلك إزالة الامتيازات للفرنسيين حيال المواطنين التونسيين.

وكان الحزب الدستوري الجديد يأمل أن يحقق برامجه في العمل وأهدافه الاستراتيجية بالطرق السلمية، وفي الاجتماعات الكبرى، في البدء في مدينة تونس بتاريخ 28/آب - أغسطس ثم في 11/ أيلول - سبتمبر/1936 ومن ثم في نابوبل، صفاقس، قصر هلال، بنزرت، وفي المدن الأخرى، حملوا هذه المطالب إلى الجماهير، وفي ذات الوقت أبلغ حبيب بورقيبة ممثل الحكومة الفرنسية في باريس طلبات حزبه، وكانت وزارة ليون بلوم قد وعدت بإصلاحات ولكنها تراجعت نتيجة ضغط شديد مارسته الاحتكارات الرأسمالية وكذلك المستوطنون الفرنسيون في تونس الذين قاوموا أي تنازل يقدم لشعوب المستعمرات.

لم تتحقق الآمال الكبيرة المنتظرة التي عقدها قادة الحزب الدستوري الجديد على حكومة الجبهة الشعبية، فبعد استقالة حكومة ليون بلوم في حزيران - يونيو/1937 انهار التعادل بين القوى الديمقراطية في فرنسا والحركة الوطنية التونسية، وقد استلزمت نهاية مرحلة حكم الجبهة الشعبية توجهات تكتيكية جديدة.

وحاول قادة الحزب الدستوري القديم استغلال الخيبة لدى الجماهير الواسعة أن يحققوا من خلالها مكسباً، بعد أن كانوا واقعياً حتى عام 1936 يمارسون سياسة تعاون مع سلطات الحماية ويحولون دون قيام فعاليات جماهيرية، انطلقوا في مرحلة الجبهة الشعبية بتوجهات جديدة قائمة على أساس الأيديولوجيات الدينية المحافظة. وبدعم من كبار ملاكي الأرض المحليين، ومن الشخصيات الاعتبارية الإسلامية ضد الحكومة في باريس. وقد طالبوا بالاستقلال الفوري لتونس. وفي تموز- يوليو/1937 عاد عبد العزيز الثعالبي من مهجره إلى الوطن، وبدأ يتدخل في الفعاليات التي كان ينظمها الحزب الدستوري، وكان هدفه توحيد الحزب الدستوري بتوجهات إسلامية محافظة، لكن الجماهير الشعبية خذلته، إذ أنها كانت تؤمن بقيادة الحزب الدستوري الجديد للحركة الوطنية، وقد هبت الخلافات حول التكتيكات في العمل ضمن قيادة الحزب الدستوري الجديد عام 1037، وكان حبيب بورقيبة يرى ضرورة القيام بالاجتماعات والتظاهرات من أجل تحقيق طلباتهم، في وقت كان الدكتور مطيري قد استقال من منصبه كممثل للجناح اليمني للحزب.

سابعاً : الفعاليات الجماهيرية ضد الاستعمار لعام 1938

نادى الحزب الدستوري الجديد الجماهير تلبية مع اتجاهات حبيب بورقيبة في العمل من أجل القيام بفعاليات نضالية، ففي تشرين الثاني ـ نوفمبر وكانون الأول ـ ديسمبر، أقيمت الاجتماعات والتي قام بها قادة الحزب المشهورون بالتصدي لسياسة الإمبريالية الفرنسية والتشهير بها، ونادوا السكان إلى المقاومة وعندما تصاعد عزم الشعب التونسي على النضال اتخذت السلطات الاستعمارية التي كانت تراقب بحذر وبغير ارتياح حملة قمع جديدة، وفي 8/كانون الثاني ـ يناير/1938 أطلق البوليس النار على تجمعات الفقراء المتظاهرين من العمال في بنزرت وقتل ثمانية منهم، وقد تصاعدت في الشهر الثلاثة الأولى من عام 1938 موجة من الإضرابات والتظاهرات السياسية ضد للإرهاب عمت البلاد، وكانت الإدارة الاستعمارية قد شددت حملات القمع، ووصل الصراع مع السلطات الاستعمارية إلى ذروته في نيسان ـ أبريل/1938.

وبعد أن اعتقلت الشرطة أحد قادة الدستوريين الجدد، انتظم الآلاف من سكان مدينة تونس في 9/ نيسان ـ أبريل/1938 في تظاهرة احتجاجية عارمة وفتحت الشرطة النار على التظاهرة لتحدث مذبحة في الشوارع قتل فيها 22 وطنياً، وفرضت سلطات الحماية نظام منع التجول في شمال تونس بما يشبه الحصار، وحتى بعد رفع هذه الإجراءات في 18/آب ـ أغسطس/1938 ظلت الصحافة والاجتماعات وحرية التنظيم في قانون صدر في 1/ حزيران ـ يونيو/1938 محددة بشدة، وقد مُنع كلا الحزبين الدستوريين من ممارسة العمل، وأُغلقت مكاتبهما، وقُلصت نشاطات النقابات واتهمت السلطات الاستعمارية الفرنسية 29 من قادة الحزب الدستوري الجديد بإعداد مؤامرة ضد أمن الدولة، وبالنسبة إلى حبيب بورقيبة وغالبية المعتقلين معه، فقد استغرقت فترة سجنهم خمس سنوات.

وهكذا كانت قد لحقت بحركة التحرر الوطنية التونسية عشية الحرب العالمية الثانية ضربة شديدة، ولكن الإدارة الاستعمارية الفرنسية لم تنجح في تصفيتها، وواصل الحزب الدستوري الجديد فعالياته في العمل السري، وتم إعادة تشكيل مكتب سياسي جديد بقيادة الدكتور تيمور، وأقامت الصلة مع القادة المعتقلين، ونظمت المحاولات من أجل إطلاق سراحهم، وفي نفس الوقت كان هناك خطر محدق بالشعب التونسي يتنامى في الخارج، إذ رفعت الفاشية الإيطالية في تشرين الثاني ـ نوفمبر/1938 طلباً رسمياً بسيادتها على تونس، الذي حاولت تنفيذه في الحرب العالمية الثانية.

———

هوامش الفصل الثالث

1. Ivanov, N.A: Krizis francyzkogo Protektorata, V. Tunise 1918 – 1939 Moskau 1971, S. 120
2. للمزيد من التفاصيل عن تطور حبيب بورقيبة إلى قائد للحركة الوطنية التونسية، انظر: Garas, F. : Bourguiba et la naissance d,unenation, Paris 1956

الفصل الرابع

المقاومة الليبية ضد الاحتلال الاستعماري للفاشية الإيطالية

كانت القوى الأوربية العظمى في سعيها لترسيخ مواقعها الاستعمارية في أفريقيا قد اتخذت من ليبيا أيضاً كميدان عمليات في الحرب العالمية الأولى بين القوى الإمبريالية المتصارعة، وكانت هذه القوى جميعها تلعب دوراً غادراً ضد حركة التحرر العربية المعادية للاستعمار في ليبيا.

وقد حاول عملاء ألمان وأتراك بصورة مباشرة بعد دخول الإمبراطورية العثمانية الحرب إلى جانب قوى الوسط(1)، في جر واستخدام الحركة السنوسية بوعود ديماغوجية من أجل أهداف ومصالح القوى الاستعمارية، والقيام بهجمات تحت راية الإسلام على مواقع بريطانية في مصر والسودان، وقد أمر الإمبراطور الألماني الذي كان طامعاً بالتوسع والاستيلاء قائلاً:
" إن قنصلنا في تركيا والهند وعملاءنا ..الخ عليهم أن يشعلوا النار في كافة العالم الإسلامي ضد هؤلاء المكروهين الكذابين، هؤلاء التجار عديمي الضمير، وتحريض المسلمين على المقاومة".(2)

وبالفعل فبعد أن تم طرد القوات الإيطالية من فزان، كان مصير الفعاليات التي قام بها وكيل السلطان العثماني القائد السنوسي سعيد أحمد الشريف (الخليفة) الذي سمّي على مناطق شمال أفريقيا، الحدود الليبية ـ المصرية، والذي قام بعمليات عسكرية، انتهت في 14/ آذار ـ مارس/1916 بالقرب من السلوم، ليس فقط باندحار كبير أمام القوات العسكرية البريطانية المتفوقة بل وأيضاً بخسارة السيد أحمد الشريف لهيبته واحترامه.

وكان التناقض بين برنامج الأهداف الحربية الواسعة للاستراتيجية الألمانية وإمكاناتها السياسية والاقتصادية والعسكرية قد حكمت في ليبيا أيضاً على التحالف الألماني ـ التركي بالفشل، والتي كانت بريطانيا قد عوضت إيطاليا لدخولها الحرب إلى جانب دول الوفاق، بالاعتراف القانوني بسيادتها على ليبيا بموجب اتفاقية لندن المعقودة في 26/ نيسان ـ أبريل / 1915(3)، وكذلك باتفاق سري بتاريخ 31/تموز ـ يوليو/1916(4)، وبدأ عملاء الأتراك والألمان بإفساد المقاومة العربية ضد الاحتلال الإيطالي، وبتقديمهم المساعدات إلى قادة الفروع المصرية للقبائل الليبية، وكذلك بمعونات مالية مهمة في إثارة أطماع السيد محمد إدريس، وهو ابن عم القائد السنوسي والذي يتنصل في رسالة له إلى السلطات الاستعمارية في مصر(5) من الهجمات العسكرية على المواقع البريطانية، وكان يأمل في تحالف مع بريطانيا العظمى التحرر من الخطر الألماني ـ التركي والاستعمار الإيطالي، وأن يتمكن من إقامة دولة سنوسية ثيوقراطية تحت قيادته.

وأخيراً وبعد مفاوضات طويلة ومتعبة مع موظفين إيطاليين وبريطانيين، دارت في تموز ـ يوليو/1916في الزوايتينه az zwaitina(6) وكذلك في مطلع عام 1917 في عكرمة، نال السيد إدريس لقب أمير برقة، وممارسة مهمات إدارة الواحات الجنوبية بما يشبه حاكم الولاية المعينة تحت إمرة السلطات الاستعمارية، كما كانت بريطانيا قد تفاهمت من وراء ظهر حركة التحرر العربية في المشرق، مع فرنسا في اتفاقيات سايكس بيكو بتاريخ 16/ أيار ـ مايو/1916 (7) لاستعباد منطقة الشرق الأوسط، وأقدمت بسبب مصالحها الاستعمارية في ضمان إمبراطوريتها الاستعمارية الآفروأسيوية، فقد باعت مقاتلي المقاومة الليبية إلى البرجوازية الإيطالية المتعطشة إلى الاستعمار، كما توجب على الإدارة الاستعمارية الإيطالية أن تؤدي من جهة منطقة عازلة(مصد) بين منطقتين استعماريتين، البريطانية والفرنسية في العالم العربي وكبح جماح الزحف التوسعي للحليف المنافس شرقي تونس، ومن جهة أخرى أن تقوم بتمزيق حاسم للمقاومة الليبية.

كان التموين بالسلاح والعتاد الألماني ـ التركي قد توقف بعد نهاية الحرب العالمية الأولى مباشرة، وأدى إلى هزيمة الانتفاضة كما قررت الحكومة الإيطالية أن الساعة قد حانت من أجل

القيام بحملة احتلال جديدة خالية من الرحمة أو الشفقة من أجل الاستيلاء على كامل الأراضي الليبية وضرب مركز المقاومة العربية، ومضت هذه القوة تضرب حتى تم لها احتلال مصراته في 21/ أيلول ـ سبتمبر/1919، ثم كان لموجة الاضرابات في إيطاليا التي هبت عام 1920 والتي هزت بصورة لم يسبق لها مثيل هيمنة السياسة الإيطالية، وكذلك فعاليات التضامن التي قام بها الشغيلة الإيطالية مع قوى المقاومة العربية، وكذلك النضال التحرري المعادي للاستعمار لمقاتلي القبائل العربية في الجبل الأخضر التي تقع بمحاذاة الساحل الليبي الشرقي، جعلت الإمبراطورية الإيطالية الهادفة إلى التوسع في حالة عجز من أن تنشر سيادتها على ليبيا بصفة تامة.

أرغم فشل التصدي العسكري وكذلك الأوضاع الداخلية المتأزمة أصحاب الحكم في إيطاليا على تجاهل مسألة توطيد سيادتهم في ليبيا والعمل بسياسة ظاهرية تقدم فيها التنازلات، وبنوع خاص حيث كانت الحركة المعادية للاستعمار في غرب ليبيا بقيادة سليمان باشا البارودي ورمضان السواحيلي وكذلك مستشارهم المصري عبد الرحمن العزام الذي أصبح لاحقاً الأمين العام للجامعة العربية، وطالبوا إيطاليا الاعتراف بالحكم الذاتي، وبما يسمى بالقانون الأساسي، وكانت طرابلس وبرقة وحسب المبدأ الاستعماري "فرق تسد" قد أصبحتا مقاطعتين إيطاليتين ذات حكم ذاتي فيما يخص الإدارة المحلية، وأصبح بذلك سكانها مواطنين إيطاليين، كما كان السيد إدريس قد تمكن من ترسيخ مواقعه داخل المجموعة السنوسية بعد فرار خصمه السيد أحمد الشريف في تموز ـ يوليو/1918 بواسطة غواصة ألمانية، ونال بموجب اتفاق الرجمة في 26/تشرين الأول ـ أكتوبر/1920 لقب أمير بالإضافة إلى راتب شهري، والإشراف على الإدارة السنوسية في واحات جنوب برقة مع الاعتراف بالسيادة الاستعمارية الإيطالية وتشتيت (أدوار) وهي معسكر عربي حصين للمقاتلين العرب.(8)

وفي معرض الدفاع التبريري الذي صدر عن مؤرخي البلاط الليبي بعد نيل الاستقلال عام 1951 وترسيخ نظام السلطة الملكية الإقطاعية الجديدة، في خلق الأساطير عن الدور القيادي غير الملوث للسيد إدريس في النضال التحرري المعادي للاستعمار، هو أمر لا يتفق إلى حد بعيد مع الحقائق التاريخية، عندما كانت المقاومة الجماهيرية الليبية وأغلبية قبائل برقة تقف بصلابة ضد طيش التنازل عن المصالح الوطنية والتي كانت ترى في استلام السلطة من قبل القبائل الفاشية في إيطاليا خطراً وحشياً يهدد بحرب استعمارية. ومضى السيد إدريس في نهاية عام 1922 إلى الحماية البريطانية في مهجره بمصر ليتابع ومن مسافة أمان التطورات اللاحقة والتناقضات بين الاستعمار والقوى المعادية للاستعمار في ليبيا، وقد هرب الأمير في لحظة كانت فيها حركة التحرير توشك على تسمية السيد إدريس أميراً على منطقة طرابلس وخلق جبهة معادية للاستعمار للمرة الأولى واضحة المعالم وثابتة.

ومع استلام الفاشية للسلطة في إيطاليا بدء الواقع العملي للاستعمار الإيطالي في ليبيا مرحلة جديدة متناسباً مع الهيكلية الاجتماعية حيث كانت الفوارق الطبقية غير متطورة نسبياً وحيث يسود طابع العلاقات القبلية التقليدية، بينما كانت الأصول العرقية تشير في طرابلس إلى البربر وفي برقة إلى العرب، كما أن مؤسسة رؤساء القبائل وتقاليدها لم تكن فقط عند القبائل، وقبائل البدو في برقة وفي المجال الشبه بدوي في شمال طرابلس، وفي مناطق واحات فزان، بل وأيضاً في مدن الحمام الساحلي ما تزال قوية، حيث أنها تلاءمت مع المعطيات الجديدة واستمرت بالوجود.

وفي حقل تأثيرات الحركة السنوسية، كانت مكانة وسلطة الاستقراطية القبلية قد اشتدت وتقوت، ولم تكن تمارس مهامها الاجتماعية في المجال الاقتصادي والاجتماعي فحسب، بل وأيضاً

وبدرجة عالية في المجال الأيديولوجي، وكلما كانت عملية التحول من البداوة إلى الاستقرار نشطة، كلما كانت الصلات القبلية تتطور وتظهر التناقضات في التراكيب الاجتماعية داخل المنظومة العشائرية، وأيضاً لدى الطوارق الذين هم في مرحلة البداوة في واحات فزان أو عند القبائل العربية الرئيسية بني هلال وبني سليم وقبائل مرابوط المتحالفة معهم، وطوروا شكلاً من العلاقات الاجتماعية بين البدو البسطاء والفئات العليا للقبائل، وقد اشتدت هذه العملية من خلال حلول علاقات نقود ـ سلع والشخصيات ذات الامتيازات التي استغلت ذلك في زيادة الثروة الشخصية ولا سيما في مجال المواشي.

وإجمالاً فقد سادت في مجال القبائل البدوية علاقات بطريركية على الرغم من أنها كانت تحمل بذرة تقوضها. وفي المدن كما بعض القبائل في فزان وطرابلس(التي كانت مستفيدة من التجارة البعيدة المدى على طريق قوافل السلع والبضائع إلى جنوب ليبيا) كانت تستفيد من الأرض، ومقابل ذلك كانت عملية الانقسام تتقدم في المجتمع القبلي الذي كانت تنمو فيه قوى طبقية، وبدأ زعماء القبائل الذي أصبحوا مالكين للأرض بالتطور إلى فئة قوية متسيدة، والتي من خلال عمليات النهب والسلب تمكنت من تحقيق تراكم في الثروة(عملية تراكم محلية بدائية ـ المترجم)، وكان أعضاء القبائل خاضعين لعلاقات سيادة اضطهادية، وكانت القواعد الاجتماعية والاقتصادية لها خاصية إقطاعية وشبه إقطاعية.

وكانت القوى الرجعية والشوفينية التي قد جاءت إلى السلطة مع الفاشية والاستعمار الإيطالي، قد أنهت على الفور وبشكل صارم المحادثات بأن ينالوا من خلالها امتيازات ومكاسب محدودة، عاقدة العزم على تحطيم المقاومة العربية المعادية للاستعمار، وقد ألغيت اتفاقيات عكرمة والرجمة وشنت حرب إبادة واقتلاع بقوات مسلحة متفوقة عدداً وكذلك في المعدات العسكرية الحربية في الجيش الاستعماري ضد الشعب الليبي، ومن أجل إحداث انشقاق في جبهة النضال الموحدة قام الفاشست بإشعال نار الخلافات والتنافس بين القبائل، وقد زجوا بقوات استعمارية من أريتريا ومن الصومال، كما قاموا برشوة زعماء القبائل ولا سيما في منطقة طرابلس وزعماء قبائل البربر(غير الرحل) وألحقوهم في جبهات القمع الاستعماري في الحر ضد القبائل المنتفضة، حيث جرت عملية إبعادهم وقطع مصادر المياه عنهم وكذلك طرق إمدادهم، ونزع سلاحهم، وأعدمت رمياً بالرصاص أعداد هائلة من مقاتلي الحرية من أبناء القبائل. وبهذه الطريقة الوحشية في خوض الحرب، تمكنت الإدارة الفاشية من خنق النضال التحرري الدفاعي الذي خاضه زعماء القبائل: عبد الجليل، سيف الناصر، أحمد سيف الناصر، عبد الغني بلكار، محمد بن الحاج حسن في منطقة طرابلس وفزان عام 1925- 1929.

وقد خاضت القبائل العربية التي كانت تقطن في منطقة برقة نضالها بقيادة القائد السنوسي المشهور **عمر المختار** الذي على الرغم من خسارته لقواعده التموينية(واحة جغبوب عام 1925، بسيلا و جيلاجالو عام 1927) وكذلك الاستسلام غير المشروط للسيد محمد رضا الذي هو شقيق السيد إدريس وممثلين آخرين للأرستقراطية القبلية(9)، فقد واصل المختار على الرغم من ذلك النضال والمقاومة، وقد وقفت إلى جانبه القبائل العربية وبنفس الوقت كان السكان يمدونه بالغذاء والمواد المعيشية ويؤمّنون طرق التجارة.

وقد ألحق المختار أفدح الهزائم والخسائر بالجنود الفاشست، وارتفع عدد المقاتلين المدربين في حركة المقاومة وكذلك توفر المزيد من السلاح والعتاد من خلال هروب الكثير الوحدات العربية في الجيش الاستعماري، مما اضطر الجنرال الفاشي رودلفو غرازياني Rodolfo Graziani الذي كان قد عين في كانون الثاني ـ يناير/1930 نائباً لحاكم برقة، والذي كلف بمهمة ضرب المقاومة العربية بدون أي اعتبارات إنسانية أو غيرها، فقد اضطر هذا القائد الفاشي

للاعتراف:" إن السكان جميعهم مشاركون في الانتفاضة بشكل مباشر أو غير مباشر"(10)، و " لقد وقفت موجة المقاومة ضدنا وكأنها جدار".(11)

وفي برقة مثلت المقاومة ضد الاستعمار حرب تحرير حقيقية، وهذا النضال المسلح للشعب الليبي ضد الاحتلال الفاشي الاستعماري يعد من أفضل التقاليد الثورية لحركة التحرر العربية، ومن أجل تحطيم المقاومة فقد اعتمد الجنرال غرا زياني جلاد ليبيا وإثيوبيا لاحقاً، المبدأ التالي: خضوع غير مشروط لكافة العرب لقوانين الدولة الفاشية، إيقاع عقوبة الموت لمن يعمل مع المناضلين الوطنيين، الطرد الجماعي بالقوة والعنف للسكان من مناطق سكناهم واعتقالهم في معسكرات أسر، إحراق العديد من القرى التي قتل سكانها أو جرت مطاردتهم إلى الصحراء. ومن خلال ترحيل السكان بهذه الطريقة، يكتب الجنرال غرازياني عن انتصاراته في مذكراته:" كانت مشكلة إبعاد جميع السكان البدو في برقة قد حلت جذرياً "(12)

وقد أدت ندرة المياه والمواد المعيشية وقلة المراعي في معسكرات الاعتقال إلى وفيات جماعية للسكان والحيوانات، وعند احتلال واحة كفرة هجم الفاشست بوحشية وانتقموا بصورة بربرية من المقاومة البطولية الباسلة لقبائل البدو وقد قاموا "بقتل جميع السكان تقريباً، الرجال، النساء والأطفال "(13) هكذا كتب السفير البريطاني في القاهرة إلى لندن، وحولوا الجوامع إلى اصطبلات، وأحرقوا المصاحف، وقد اعتقل العديد من قادة الانتفاضة، ومن أجل إقناع القوات الاستعمارية اقتيدوا أمام أنظار السكان وقذف بهم أحياء من الطائرات. وكانت هذه الوحشية في الحرب ضد سكان مدنيين عزل في الغالب بسبب الإجراءات المرعبة التي اتبعوها في معسكر الاعتقال وعزل السكان، فإن أعداد المقاتلين لم تكن تزيد، وبدأت المقاومة تضعف، فيما كانت السلطات قد مدت الأسلاك الشائكة على طول الحدود المصرية ـ الليبية، وبذلك نجحوا في الحد من تهريب السلاح والعتاد إلى ليبيا.

وفي 11/ أيلول ـ سبتمبر/1931 سقط عمر المختار قائد حرب التحرير الشعبية بأيدي الفاشست وأعدم بعد عدة أيام علناً أمام الملأ، وقد تسبب الإرهاب الفاشي الدموي الاستعماري في فقدان الشعب الليبي بحسب تقديرات عام 1931 لما يقارب 750 ألف نسمة، وفي منطقة برقة لوحدها أعدم بين عام1923 وعام 1929 4329 شخصاً.(14)

وقد عبر عن ذلك السكرتير العام للحزب الشيوعي الإيطالي بالميرو توليياتي Palmiro Togliatti عام 1935 في موسكو عن فعاليات الاستعمار والفاشية في ليبيا بما يلي:
" وفي هذا المجال أيضاً برهنت الفاشية عن بربرية البرجوازية، إن حرب الإيطاليين في ليبيا هي من البداية حتى النهاية حرب اقتلاع وإبادة ضد السكان المحليين، لقد انتهت بإبادة 20 ألف رجل وامرأة وطفل اقتيدوا إلى المناطق الصحراوية حيث لاقوا حتفهم جوعاً وعطشاً، وقد أُلقي بهم من الطائرات أيضاً ".(15)

وعلى الرغم من الحدود المصطنعة، والإرهاب الاستعماري، فقد نهضت في كافة الأقطار العربية عاصفة من الاحتجاج والاستياء ضد الأفعال الإجرامية للفاشية والجنود الاستعماريين، وقد استلزم حراسة القنصليات الإيطالية وحمايتها عسكرياً، وتحدث خطباء الجوامع عن جرائم الاستعمار الفاشي البربرية، ولم تتمكن السلطات البريطانية والفرنسية من صد المظاهرات الشعبية العارمة في القاهرة والإسكندرية ودمشق واللاذقية إلا باستخدام قوات كثيفة للشرطة.(16)وبعد خضوع مركز الكفاح التحرري الشعبي، عجل المحتلون الفاشست بمختلف الوسائل سلطتهم وسيادتهم واستخدام الأراضي الليبية من أجل توسع استعماري لاحق للتقدم إلى أقطار أخرى.

ومن الفعاليات الرئيسية للاستعمار الفاشي كان هناك ما يدعى بالاستيطان الزراعي، وبصورة متوازية مع مصادرة 800 ألف هكتار من الأراضي الخصبة بين أعوام 1922 - 1940، فقد واصل موظفو السلطات الفاشية في جلب مستوطنين إيطاليين من أجل خلق فئة استغلالية من المستوطنين، ودفع العناصر العربية إلى الصحراء، وحتى اندلاع الحرب العالمية الثانية كان هناك 110 ألف مستوطن إيطالي قد حل في ليبيا.(17) كما استولوا على أراض زراعية، وكانت الشغيلة العربية من السكان مرغمة على العمل بأجرة في مزارع المستوطنين، وبلغت ممتلكات الحاكم الإيطالي فولبي Volpi تشتمل على 55 ألف هكتار، وكانت السياسة الاقتصادية المركبة للاستعمار الإيطالي تهدف بوضوح إلى جعل ليبيا مخزناً للحبوب ومصدراً للمواد الخام، وسوق لتصريف الصناعات الإيطالية، وقد وصل العجز في التجارة الخارجية الليبية عام 1926 إلى 515،300،000 ليرة إيطالي.(18)

ومن أجل حرمان وعزل حركة المقاومة المعادية للاستعمار من قياداتها بعد هزيمتها العسكرية أنهت السلطات الاستعمارية ولا سيما منذ تحضيراته للحرب الاحتلالية ضد إثيوبيا جزءاً من أرستقراطية القبائل، كعناصر عاملة في الإدارة الاستعمارية، وقد استلمت هذه العناصر الخائنة مواقع ثابتة في الإدارات المحلية وفي الدوائر القضائية، وترك لهم أن يمتلكوا الأراضي والمساهمة في استغلال الشعب، ولا سيما في التعاون مع حسونة باشا أحد أعضاء أسرة القره منلي، ومحمد رضا الذين كانوا أداة للسلطات الفاشية في إفساد إرادة المقاومة للشعب المضطهد.

وفي بداية الثلاثينات (على أبعد تقدير)بدأت التناقضات تتكون بين المصالح الوطنية للشعب الليبي المستعبد وبين قادة القبائل المتحالفين تقليدياً مع السلطة الاستعمارية التي تفجرت أخيراً في ثورة أيلول/1969، فلا المغازلات مع الفئات العليا المحلية، ولا بواسطة الإجراءات الوحشية العقابية ضد القبائل العربية التي سيق رجالها مرغمين إلى الخدمة العسكرية في الجيش الاستعماري، وجُعلوا كوقود لنار المدافع في العدوان الفاشي على إثيوبيا وإسبانيا، ولا من خلال السياسة المعادي للشعب التي كانت تعتمد بشكل منتظم على الأمية والعناصر المحافظة، استطاعت الإمبريالية الإيطالية من إطفاء إرادة الحرية لدى الشعب المضطهد، حيث ابتدأت الهجمات المسلحة من جديد على المعسكرات الإيطالية التي أرغمت المحتلين على بقاء الإدارة العسكرية وقوانين الطوارئ(الأحكام العرفية - المترجم) وتصاعدت أعمال المقاومة ضد الاستعمار في مناطق الواحات الجنوبية لبرقة وأيضاً في المدن، على الرغم من أن الفاشست كانوا قد حلوا نقابات الحرفيين وروابط التجار الذين لعبوا دوراً يستحق الإعجاب في تنظيم النضال التحرري ضد الأتراك ولاحقاً ضد السيادة الأجنبية الإيطالية، وكتعبير لا عن نوعية جديدة في التركيب الاجتماعي للقوة الدافعة لحركة أيار- مايو/1939، وللمرة الأولى في تاريخ المقاومة الليبية ضد الاستعمار دخلت الشغيلة من جديد في النضال ضد الاضطهاد.

وفي غضون ذلك كانت القوى الفاشية تستعد من أجل تقسيم جديد للعالم، في ليبيا أيضاً التي مثلت قاعدة إطلاق لقوى المحور من أجل تحقيق خطط سيادتها على العالم، وفي أفريقيا التي لها أهمية استراتيجية عسكرية كبرى، وكان قد تم تعزيز قوات الاحتلال الإيطالية إلى 200 ألف عسكري، وفي نفس الوقت كان سياسيون وعسكريون ألمان بارزون في ألمانيا الفاشية أمثال: الجنرال برواخيتش، وأوديت، ولوتسه، وكذلك كبار قادة النازي أمثال: غورنغ، وهملر، وهيس قد قاموا برفقة خبراء عسكريين وشرطة بزيارات إلى ليبيا في إطار فحص ومراجعة خطط الاحتلال الإمبريالية الألمانية.(19)

وكانت بريطانيا العظمى حتى منتصف أعوام الثلاثينات تتعامل مع الهيمنة الاستعمارية الإيطالية بود وتسامح، وبناء على توجيهات السلطات البريطانية، امتنعت مصر(غير المستقلة) ذات النظام الإقطاعي عن الدعم المادي أو السياسي، ولكن بعد تهديد المواقع الاستعمارية البريطانية من خلال العدوان الإيطالي على إثيوبيا واستعدادات قوى المحور الفاشية للحرب العالمية، بدأت بريطانيا بتغير مواقعها وقررت الأركان العامة البريطانية والفرنسية تأمين المواقع الاستعمارية لكلا البلدين في حالة وقوع الحرب وذلك في مؤتمر الرباط الذي عقد للفترة من 4 وحتى 6 أيار - مايو/1939 بإجراءات تفصيلية في إثارة وتحريض القبائل الليبية ضد السلطة الاستعمارية الإيطالية.(29)

وبعد دخول إيطاليا للحرب العالمية الثانية إلى جانب الفاشية الألمانية(10 - حزيران - يونيو/1940) كانت ليبيا، ولا سيما بعد هجوم إيطاليا الفاشل على مصر أيلول - سبتمبر/1940، والهجوم البريطاني المقابل(كانون الأول - ديسمبر وحتى شباط - فبراير/1941 وكذلك زج قوات الدروع الألمانية تحت اسم الرمزي(زهرة الشمس) في شباط - فبراير/1941 من أجل كسب مناطق تقرب لإعداد خطط هجوم على الاتحاد السوفيتي في خطط الاحتلال الاستعمارية على المحور الفاشي، فقد أصبحت ليبيا من أهم ميادين الحرب في أفريقيا.

هوامش الفصل الرابع

1. Rathmann, L.: Sto?richtung Nahost 1914-1918 , Berlin 1963 , S.119.
2. Ausgwärtiges Amt. Abt. A, Aktenbetr. Gegen unsere Feinde, Ägypten, Syrien, Arabien, Bd.4-8
   Rathmann, L, : a.a.o., SMA
3. Relation between Great Britain, Italy and the Senussi 1912 to 1924, Publie Record Office, London, F.o , 371/ 12392
4. Ebenda
5. Ebenda
6. Ebenda
7. Ebenda
8. Ebenda
9. Ebenda
10. Graziani, R: Die Eroberung Libyens, Berlin 1939, S.221
11. Enenda, S.263
12. Ebenda, S.267
13. PRO London, a., a., o., F. O., 371/15432
14. Novejsaja istorija arabskich stran, Moskva, 1968, S. 484
15. VII Kongreß der Kommunstischen Internationale Gekürztes stenografisch Protokoll, Moskva 1039, S. 407
16. PRD , Lodon, a., a., o., F. O. 371 / 15432
17. Novejsaja istorija arabskich stran, a., a., o., S.485
18. Enenda, S. 486
19. PRO, Lodon, a:, a., o., F. O. 371/ 20919, 23387, 23392
20. Ebenda, 371/23384

الفصل الخامس

التعبيرات الأيديولوجية للنضال المعادي للاستعمار

1. الإسلام والنضال المعادي للاستعمار.
2. الحركة القومية العربية.
3. الأفكار الاشتراكية في حركة التحرر العربية.

تنويه

* أود أن ألفت انتباه القارئ الكريم إلى قراءة هذا الفصل بعناية وانتباه شديدين، فهو ينطوي (بتقديري) على تحليل دقيق وعميق لأبرز التيارات والاتجاهات الفكرية والثقافية والحضارية في الوطن العربي، وقد قمنا بترجمة هذا الفصل دون أي تدخل بصرف النظر عن اتفاقنا مع هذه الآراء أو اختلافنا معها، لقناعتنا بأنه سيطلق موجة من الانتقادات، وهي ظاهرة إيجابية نتمنى حدوثها. فالأمر ليس مع الرأي أو ضده بقدر ما هو في التفاعل الفكري المفترض الذي يؤدي إلى تعميق للآراء واستجلاء نقاط، والبحث في أخرى.
ويؤكد الكاتب استناداً إلى أدلة نظرية وحقائق تاريخية أن البلاد العربية شهدت ثلاث تيارات تاريخية مثلت الاتجاهات الأساسية للحركات الوطنية هي:
*التيار الديني(الإسلامي).
* التيار القومي العربي.
* التيار الاجتماعي(الاشتراكي)
وأما كاتب هذا الفصل فهو: د. هيب وهو واحد من أهم العلماء في أكاديمية العلوم الألمانية(جمهورية ألمانيا الديمقراطية).

المترجم

وجد الانتعاش في النضال التحرري الوطني للشعوب العربية، والذي استلهم من ثورة أكتوبر/ 1917، وجد التعبير عنه لصورة واضحة وجلية في الصراعات الأيديولوجية المحتدمة في الأقطار العربية في تلك المرحلة حيث كانت الجبهات الإيديولوجية قائمة على الأسس الموضوعية والذاتية لوجود وشروط نضال الحركة الوطنية الناهضة. وبصفة خاصة في الهيكلية الاجتماعية المتقادمة والتي كانت بعيدة عن التطور، وهكذا تتفاعل الآن بما يستحق الملاحظة، احتدام النضال المعادي للاستعمار وأيضاً نبرة الخطاب الوطني للطبقات والفئات المختلفة على شكل تيارات أيديولوجية معينة في عملية استقطاب متزايدة، وبذلك تصبح رؤية الصراع الأيديولوجي سهلة في المواجهات المنتشرة بصفة واسعة.

جرت هذه العملية بصفة خاصة في البلدان التي لها علاقة بالتشكل (التكون) التدريجي لعناصر العلاقات الرأسمالية، وفي ذات الوقت أيضاً كانت هناك التناقضات بين مفاهيم مختلف الطبقات وفئات المجتمع على كافة الأصعدة والتي بدأت تتعمق، وكان هذا يعني من جهة بأن النضال الذي تقوده الطبقات البرجوازية للجماهير العربية من أجل الاستقلال الوطني قد وجد شكله الأيديولوجي المعبر والثابت. ومن جهة أخرى، وكان ذلك انعكاس ديالكتيكي للتأثيرات المتبادلة بين الوطني والاجتماعي في تركيبات النضال الأيدلوجي للتغير في أشكالها ومستوياتها، وليس هناك ثمة شك بأن هذا التطور أيضاً وبناء على تلك الحتمية الموضوعية، والتي عبر عنها لينين في سياق آخر بقوله : " كلما كان النهوض الجماهيري العفوي قوياً، كلما أصبحت الحركة عريضة وواسعة، وسريعة أيضاً وليس لسرعتها مثيل، كما تنمو الحاجة إلى الوعي ".(1)، وكلما " انتشرت واتسعت الحركة الشعبية كلما اتضحت أكثر الطبيعة الحقيقية لمختلف الطبقات".(2)

وجدت هذه الاتجاهات في الأقطار العربية القمع سواء في تشكلها أو في التطور النظري والتوسع جوهرياً في أربعة تيارات مختلفة من حيث المحتوى والشكل، التي تعبر عن مصالح وأهداف مختلف الطبقات الاجتماعية. كان البعض منها قد تكون في المراحل المبكرة للحركة

الوطنية. وكان الأمر يدور بصفة خاصة عما يسمى بحركة تحديث الإسلام وكذلك عن حركة القومية العربية التي كانت على صلة وثيقة مع نشأة علاقات الإنتاج الرأسمالية في الشرق الأوسط وكذلك بحركة التنوير البرجوازية المبكرة التي كانت قد نهضت في النصف الثاني للقرن التاسع عشر. وقد مثلت تلك الحركة بصفة عامة أساس القاعدة الأيديولوجية للبرجوازية العربية، والأخرى التي وإن لم تكن معروفة أو ملفتة للنظر حتى ذلك الوقت، ونعني بها: الحركة الاشتراكية للبرجوازية الصغيرة. وقد بدت هذه الظاهرة الجديدة للمرة الأولى في أقطار الشرق العربي في نهاية القرن التاسع عشر. وكذلك في مصر من خلال تأسيس أحزاب شيوعية في الأقطار العربية، وبتأثير الأفكار الماركسية اللينينية التي كانت قد اتسعت بصورة كبيرة. وتحت ظل شروط وظروف صعبة كان الشيوعيون العرب يمثلون مصالح الشغيلة فوقفوا في الصفوف الأمامية للنضال من أجل التحرر الوطني والاجتماعي، وسعوا إلى ترجمة التعاليم اللينينية والدروس الشيوعية الحقيقية إلى لغة شعبهم.

وكانت الصراعات الروحانية في المرحلة الجديدة لنضال الشعوب العربية المعادي للاستعمار هي المسألة الرئيسية هذه التيارات الإيديولوجية. إذ كانت العلاقات المميزة لمرحلة التحرر العربية هذه، قد تمثلت ابتداءاً في كفاح جميع الطبقات والفئات الاجتماعية تقريباً من أجل الاستقلال بقيادة القوى البرجوازية. وقد ظهرت اتجاهات التصادم ضد الإقطاع وضد الاستعمار في مفاهيم هذه الأيديولوجيات موضوعياً كمركبات جوهرية في تعارض الأفكار في تلك المرحلة.
وفي ذات الوقت(وقد جعلت الفعاليات السياسية الأيديولوجية للشيوعيين العرب من ذلك أكثر وضوحاً، وكذلك بعض وجهات النظر للحركات الاشتراكية للبرجوازية الصغيرة)، كانت قد ابتدأت مركبات معادية للرأسمالية تتشكل أيضاً في حركة التحرر. وهذه الظواهر بالذات جعلت من الممكن رؤية أو إدراك أي أهمية تكمن في فحص التعبيرات الأيديولوجية سواء في طبيعتها أو في مهامها، وكذلك على أصعدة النضال الأيديولوجي في هذه المرحلة، حيث أنها لا تمنح فقط إيضاحات ومهمة حول حالة الإدراك في حركة التحرر الوطنية والقومية، ولكنها تتوسط (دور الوساطة ـ المترجم) إلى معارف أخرى مهمة أيضاً، لا بد منها لتفهم الصراعات الروحية التي تدور الآن في الأقطار العربية.

لذلك وفي الصفحات التالية سنقدم وصفاً موجزاً لبعض وجوه النضال الأيديولوجي لتلك المرحلة، ومن الطبيعي أن هذه الظواهر ليست متوفرة في جميع الأقطار العربية(3) وأنه لمن الملاحظ ولأسباب تكنيكية عملية تستوجب تصنيف الظواهر التي ستعرض هنا، التيارات غير البروليتارية، أو التي لا ينبغي أن تضلل على أنها كذلك، وعزلها عن بعضها وعن سائر التطورات الاجتماعية في الأقطار العربية بل وأكثر من ذلك، الإحاطة بالتناقضات النظرية والسياسية ونبذه عن التعقيدات وتعدد وجوه النضال الأيديولوجي، والتي جرت في حالات كثيرة في السابق كما اليوم في بعض الأقطار العربية تحت ظل ظروف وشروط جديدة.

أولاً: الإسلام والنضال المعادي للاستعمار

إذا أردنا بحث دور ومهمة الإسلام كوسط إشكالي رئيسي، فنحن لسنا بحاجة إلى الإسهاب في أسباب ذلك. إن تاريخ العرب يشير إلى أمثلة لها أهمية عظيمة للدين الإسلامي في كافة مجالات وفروع الحياة الاجتماعية وفي أفكار البلدان العربية ضد حملات الغزو الأجنبية والمضطهدين، كما تطرح لنا على سبيل المثال بأن(العرب) خاضوا تحت راية الإسلام وتحت شعار الجهاد، النضال ضد المستعمرين المحتلين البرتغاليين، وكذلك في نضال الوهابيين ضد الطغيان العثماني، وفي حركة انتفاضة المهديين ضد البريطانيين، والسنوسيين ضد الاستعماريين الإيطاليين وهي أمثلة لا يمكن تجاهلها.

هذه الأمثلة وغيرها كثيرة تؤكد وتثبت بصورة مؤكدة الحقيقة العلمية التي توصل لها ف. أنجلز، بأن الرؤية الدينية للمسلمين " لها تأثيراتها الفعالة على مسيرة النضال التاريخي وفي حالات كثيرة يكون لها شكلها الغالب"(4) وهي تثبت في نفس الوقت أن الإسلام لم يكن قط نظاماً أيديولوجياً متجانساً بل أكثر من ذلك، فكما يشير لنا التاريخ بأن قوى اجتماعية مختلفة حاولت تبرير مساعيها ووجدتها، من اتباع الحلقات الإسلامية الأولى فيما كان احتجاجهم السياسي والاجتماعي ضد سيادة النظام في العهود الإسلامية الأولى، أو عبرت عن نفسها بانتفاضات الفلاحين المضطهدين، والحرفيين، أو في انتفاضات مجاميع عرقية ضد تسلط الإقطاع الإسلامي والتي كان أكثرها تحت راية شعبية جماهيرية، وكلها تظهر سواء كان المستغلون أو المستغلين من الديانة الإسلامية هم في خدمة مصالحهم الأصيلة، وهي مفهومة على هذا النحو.

وكلتا الرؤيتان وهما أيضاً عند تقرير دور ومهمة الإسلام في نضال الشعوب العربية المعادي للاستعمار. وفي هذه المرحلة من النضال الوطني التحرري، فقد امتلك الدين الإسلامي كما كان في السابق النمط الشعبي والعقيدة ذات الأهمية الحاسمة في نطاق المصالح للقوى الاجتماعية المختلفة بدون أن تستطيع في هذا المجال، سواء في الهيئة أو في طبيعة المهام العمل التي كانت عليه حركة المذاهب، أو التنظيمات الإسلامية التي كانت قد برزت إلى الوجود في أواسط القرن التاسع عشر وهذه لها أهمية خاصة بالنسبة إلى الإشكالية التي نبحثها.

وتحت شروط نشوء وتكون علاقات الإنتاج الرأسمالية في معظم الأقطار العربية التي كانت متأثرة وبمقاييس قوية بشدة بالرأسمالية الأوربية قد أصابها التشوه من جراء هذا التأثر بالإضافة إلى تفاعلات التوسع الاستعماري في شمال أفريقيا والشرق الأوسط، وكذلك من خلال صلات وثيقة مع حركة التنوير العربية البرجوازية التي بدأت في مصر وفي المغرب العربي بدأت اتجاهات أيديولوجية جديدة بالتشكل والتكون: عملية التحديث الإسلامية.

وفي هذا التيار الذي يتشابه في بعض الوجوه مع حركة الإصلاح المسيحية في أوربا وقد عوملت كما جرى التنويه من أجل أن تكون الأساس الأيديولوجي لكل ما صدر عن الإسلام في مرحلة الازدهار والسيادة والتي تعد تاريخياً قوى تقدمية من البرجوازية العربية الفتية ومن خلاله خلقت " دينها الخاص الذي يناسبها".(5)، إسلامياً طور علاقات إنتاج جديدة تتلاءم مع المصالح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية للطبقات الجديدة، وفي نفس الوقت عبر المحدثون الإسلاميون الذين كان بروزهم لا ينفصل عن اسم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، بوصفهما من أهم إشكال التعبير الأيديولوجية للحركة التحررية العربية المعادية للاستعمار، وقد أصبحا أحد معالم التقاليد التقدمية وتشبه فعالياتهما ما قام به(مارتن لوثر). وقد تأثر بذلك

علماء دين وثوريون على حد السواء في مشاركاتهم الحماسية في أول نهوض وطني للشعب المصري بقيادة أحمد عرابي ضد الاستعمار الذي مثّل اتجاه التحديث في الإسلام.

والمحدثون الإسلاميون في القرن العشرين بذلوا أيضاً جهودهم في تعميق العملية التي كان يقودها محمد عبده في فتح باب الاجتهاد، وكان ذلك يعني فتح الأبواب أمام تفسير واسع لمصادر الدين الإسلامي من أجل التغلب على التقاليد وأبعادها.وبذلك قاموا بدور حاسم بوضع نمط من التفكير الجديد في الإسلام الذي كان يشوبه الجمود، وتحطيم جمود إيديولوجية إقطاعية لم تتغير منذ القرون الوسطى، وجعلها ملائمة للعصر وجعلها كعامل تعبئة أيضاً في خدمة النضال الوطني التحرري.

هكذا إذن كانت توجهات حركة التحديث الإسلامي في القرن العشرين والتي يعد محمد رشيد رضا من ممثليها البارزين والذي أسس في مصر السلفية الحديثة، وأيضاً عبد الحميد باديس مؤسس رابطة علماء الجزائر الذي له آراء محترمة ومقبولة، ومن مراكش عبدة شعيب الدوكالي. وكانت مهماتهم تكمن في تحرير الإسلام من الخرافات والجهل والتعصب، ووقوف الإسلام كعصبة واحدة موحدة، بل وكسلاح في النضال التحرري الوطني والقومي من خلال إبراز التقاليد التقدمية التاريخية وليس أخيراً التأكيد على اللغة العربية كهوية مميزة للأمة العربية التي أصابها الاهتزاز من خلال القوى الغربية وإعادة الوعي والثقة إلى الشعوب العربية.

ولكن هذه المساعي لتحديث الدروس ومحتوى التعليم وانعكاساتها لمركز لحركة التحرر الوطني فشلت، وبشكل ملموس في محاولات الإصلاح حيال المراكز الدينية الكلاسيكية الواسعة النفوذ، في القاهرة(الأزهر) والزيتونة(تونس) والقرويين(فاس / المغرب)، ويبدو بوضوح أكبر في الأزهر. وعندما يتذكر المرء الدور الهام والفعال للنشاطات السياسية للشخصيات الروحية والطلبة في الثورة المصرية عام 1919، وذلك يطرح نفسه أيضاً في نضال المحدثين في شمال أفريقيا ضد الرجعية والغموض والتعصب في بعض الاتجاهات الإسلامية والتي كانت تقف إلى جانب الاستعمار الفرنسي في قمعه لحركة التحرر الوطنية. وأخيراً الجهود التي بذلت في مصر بصفة خاصة للتغلب في مجال قواعد التعامل والحقوق، فوجد انعكاسه في مقترحات إصلاح ديمقراطية ـ برجوازية من شأنها إصلاح مكانة المرأة المسلمة واعتبارها في الحياة الاجتماعية، وذلك بصورة مترابطة مع أعمال قاسم أمين لا سيما في الحركة النسوية المصرية المهمة التي كانت ملتفة حول هدى شعراوي.

وهذه الأمثلة القليلة توضح الدور المهم الذي لعبته حركة التحديث الإسلامية في فعاليات وتعبئة النضال التحرري الوطني للشعوب العربية. ومن بين هذه الفعاليات برز قادة لعبوا أدوار تاريخية مهمة في حركة التحرر العربية مثل : علال الفاسي، شكيب أرسلان، الثعالبي، فرحات عباس، لطفي السيد، سعد زغلول، وآخرون كثيرون.

وفي وصف وتميز ظاهرة حركة التحديث الإسلامية، لا ينبغي تجاهل التناقضات النظرية الداخلية وكذلك السياسية العملية تلك التناقضات التي (بدون شك هي نتيجة لحاجات ومستلزمات اجتماعية) التي أدت مرغمة إلى أن تلعب دوراً تقدمياً لا جدال فيه في النضال المعادي للاستعمار وجعلت من أي أمر آخر حيال ذلك نسبياً. وقد كان المحدثون الإسلاميون الطلائعيون وأبرزهم : جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، قد برهنوا في أعمالهم الدينية أو السياسية على أن فاعلية التناقضات هذه على أساس النظرية البرجوازية، وهكذا فإن أعمال الأفغاني هي أيضاً تعد في خدمة الحركة القومية العربية بدون شك. وفي تأسيس فكرة الجامعة الإسلامية(التي كانت

أساساً توجهات معادية للاستعمار) والتي أصبحت فيما بعد سلاحاً بيد آخر سلاطين العثمانيين وقادة تركيا الفتاة، فتحولت إلى سلاح خطر ضد الحركة القومية العربية، وحتى اليوم تعد هذه ذخيرة وترسانة روحية وسياسية بيد الرجعية الإسلامية. وعلى المرء أن لا يتجاهل بأن الأفغاني كان يوجه نضاله ضد الحركة الاجتماعية للبرجوازية الصغيرة في الأقطار العربية، كما بادر إلى استخدام مصطلح (الاشتراكية الإسلامية) ووضع أسسها النظرية، وما زال حتى اليوم خصوم التقدم الاجتماعي يستخدمونها كقاعدة أيديولوجية.

وختاماً فإن الحقيقة التي لا يمكن الصمت عنها، هي أن محمد عبده لم يكن مؤيداً للنضال الثوري للجماهير، أو للحركة الوطنية المصرية في تعبئتها وراء أحمد عرابي ومصطفى كامل، كما أنه كان صديقاً مقرباً من القنصل البريطاني العام في مصر اللورد كرومر.

ومن الواضح الجلي هو حدود حركة التحديث الإسلامية التي استخدمت كعنصر تعبئة في النضال المعادي للاستعمار مقابل فعاليات محمد رشيد رضا، والتي بواسطتها تطور هذا التيار الأيديولوجي إلى ذروته، وبنفس الوقت إلى مرحلة تحجره والانحدار إلى تعصب جديد، وبه ومن خلاله كان أبرز وأهم تلاميذ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده الذين مضوا في عملية يمكن للمرء أن يقارنها بالظاهرة التي حدثت قبل بضعة قرون، عندما كان اللاهوتي الأشعري والغزالي والمعتزلة والصوفية قد وضعت في قائمة الأفكار المحافظة، وبذلك فإن هذه التيارات غير المتعصبة سلبت مئات من السنوات قوتها الثورية.

وإذا جاز لنا اعتبار الغزالي مؤسساً لمدرسة التعصب الإقطاعية في العصور الوسطى، فإننا سنعتبر محمد رشيد رضا "غزالي من نوع جديد" وظاهرة تاريخية تقدمية وعنصراً ثورياً في الأفكار المعادية للاستعمار والتعامل في الحياة مع الإسلام وتجميد المدرسة المتعصبة. وهو الذي خلق " الاقتصاد الأخلاقي الإسلامي " وصاغ منها تلك الاشتراكية الديماغوجية عن طريق ثالث بين الرأسمالية والاشتراكية، وعن إمكانية توافق طبقي سلمي من خلال الضرائب الاجتماعية والزكاة التي تظهر اليوم في الأقطار العربية تعبر في الأساس عن معتقدات / الأيديولوجيات البرجوازية المحافظة وصغار البرجوازيين، وكحجج ضد الأفكار الاشتراكية والحركات التقدمية في شمال أفريقيا والشرق الأوسط العاملة في الميدان، ونعد سعي العناصر الرأسمالية وكأنها مسألة مبررة واستحقاقات دينية.

ومرة أخرى تجلت شدة هذه الاتجاهات المحافظة الجديدة لرضا في مواقفه حيال قضية علي عبد الرازق. ففي عام 1925 كان علي عبد الرازق وهو الأخ الوحيد لشيخ الأزهر مصطفى عبد الرازق قد تخرج من الأزهر، وبتأثير شديد لسياسة فصل الدين عن الدولة في تركيا الحديثة التي كان مصطفى كمال أتاتورك يمارسها، وقد أثار نشره لكتابه "الإسلام وأصول الحكم" الاضطراب في أوساط الرجعية الدينية، وبالصلة والتواصل مع أفضل التقاليد في استفهام والاستيضاح العربي، طالب علي عبد الرازق بتعميق متواصل لعملية التحديث الإسلامية، والذي استطاع من خلال دراسة قام بها في جامعة أكسفورد، أن يكون على تماس مع أفكار هوبس Hobbs ولوقا Locke التي تضم أفكاراً عن فصل الدين عن الدولة وبحسب رأيه، فإن مؤسسة الخلافة تعني إلحاق التهمة بالدين الإسلامي والمسلمين وما يمارس باسم الإسلام من طغيان ثيوقراطي يتناقض مع النوايا الحقيقية للنبي محمد وتعاليمه. وقد كتب قائلاً :
" الدين الإسلامي الذي يدين به المسلمون لا علاقة له بأي خليفة، وكذلك بالسلطة والسلطان وكذلك مع الاجتهاد، وأن الخلافة لا تعد من المؤسسات الدينية وكذلك وظيفة القاضي. والوظائف الحكومية الأخرى والمواقع في الدولة المركزية" وقد أكد مفكر عقلاني مسؤوليات التنوير العربي، بأن " ليس في الدين الإسلامي ما يمنع من التنافس مع الأمم الأخرى في

المجالات الاجتماعية والعلمية وفي إلغاء أي نظام قديم يذلهم ويخضعهم، ووضع أسس الدولة والنظام الحكومي وفق أفضل وأحدث ما توصل إليه الفهم البشري وما أشارت إليه تجارب الشعوب كأفضل ما يمكن من مبادئ مهام الدولة والعمل بها".(6)

وعملياً فإنه بذلك كان قد وجه التحية إلى القرار الذي اتخذه الاجتماع الوطني الكبير(البرلمان) في الحل الرسمي للخلافة، وفي نفس الوقت وقف ضد الانشقاق في الحركة المعادية للاستعمار، وعززت من جهوده فيما يخص الخلافة. وكان يقف هذا الموقف محمد وشوكت علي، محمد رشيد رضا، ورجال الدين المشهورين الذين ينتمون إلى الأزهر، والذين كانوا قد ساهموا في مؤتمر الخلافة في أيار/ مايو - 1926 في القاهرة، وفي تموز/ يوليو - 1926 في مكة، وكذلك في إيجاد مؤسسات إسلامية دائمية(مؤتمر العالم الإسلامي) الذي ما زال يحاول حتى اليوم يسعى لخلق الإمبراطورية الإسلامية العظمى.(7)

وهكذا لم يكن مثيراً للدهشة بأن مجلة رضا(المنار) ذات النفوذ، والتي كانت تدعم (وكذلك كان البلاط) حزب الاتحاد. وقاد أصحابها معارضة شديدة ضد علي عبد الرازق الذي كان ومن خلال إدانات نشرتها مجلة المنار لكتابه، أدت إلى منع أول كتاب من قبل علماء الأزهر(كما أُدين هو شخصياً وصدر تحريم تقليده أي وظيفة عامة)، وبذلك كان رضا من أشد خصوم علي عبد الرازق وكذلك مفتي مصر محمد بخيت. ووصفوا هذا المسلم الليبرالي بأنه عدو للإسلام، وهو الذي اشتهر بسبب مقالته" الدين، الإلحاد، الاشتراكية" و " الاشتراكية، البلشفية، الدين" التي سببت تعاطفاً مع الاشتراكية. وكان رضا متفقاً مع قرار الأزهر بقطع الصلة مع "مثير المشاكل" علي عبد الرازق، ووصف مقاصده بأنها تنطوي على الإلحاد، وتتهمه الرجعية بديماغوجية " ببلشفة الإسلام". هذه التوجهات من محمد رشيد رضا الذي لم يخف إعجابه بالنظام الوهابي الإقطاعي السعودي، كما بلغت التوجهات المحافظة الجديدة أوجها بتأسيس جمعية الإخوان المسلمين.

تأسست جمعية الإخوان المسلمين في سنوات 1928/ 1929 في ظروف الأزمة الاقتصادية العالمية التي كانت مؤثرة على الأقطار العربية أيضاً كما في مصر. ففي الوقت الذي كانت فيه أقسام من البرجوازية المحلية تبدي الاستعداد من أجل التفاهم والوفاق مع الإدارة الاستعمارية البريطانية عن طريق أحزابها، وهنا فإن البرجوازية الوطنية وفي حالات كثيرة كادت أن تتنازل عن قوتها الثورية. كما أنها أظهرت فيما يخص قضايا الملكية المختلفة تأثراً بأيديولوجية الإخوان المسلمين موقفاً متعصباً دينياً وقومياً، كما أنهم عكسوا احتجاجا عفوياً وآمالاً بالاستقلال وأمنيات غير واضحة المعالم في ظروف الاضطهاد الاستعماري من خلال المضطهدين من القوى المحلية الذين كانوا يلحقون الأذى بالفلاحين الفقراء والحرفيين وصغار التجار والمثقفين من البرجوازية الوطنية.

وكان حسن البنا هو المؤسس والمرشد الأول لهذه المنظمة الدقيقة التنظيمات ذات المراتب المتدرجة. والبنا هو ابن أحد مصلحي الساعات في منطقة الدلتا المصرية، وكان يعمل معلماً في مدرسة ابتدائية في الإسماعيلية. وقد مثل محمد رشيد رضا والوهابيون المتشددون، ومن الملتزمين بالمذهب الحنبلي، الأوساط المحيطة به وبرضا وبمجلته المنار التي واصل إصدارها بعد عام 1949، وكان البنا حتى اغتياله عام 1949 القائد الديكتاتوري لهذه المنظمة الجماهيرية التي كان قد وضع لها أساسها الأيديولوجي الذي يرتكز في النهاية على القرآن واتجاهات أخرى غير محددة بدقة ولكنها متجهة بصفة أساسية إلى خلق وتأسيس دولة إسلامية عظمى على هذى الإسلام كأيمان مشترك، وبذلك فأنها مواصلة واضحة لأفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. وفي ضرورة إقامة حكم "عادل مستبد" كضمان " لبعث الشرق"ووجدت هذه نفسها في نظرية

الدولة لدى البنا كما لدى "محمد رشيد رضا" دولة يكون القرآن دستورها وهناك خليفة على رأس هذه الدولة.

وكان البنا يعتقد أن سقوط الشرق هو بسبب رجوع الناس عن التعاليم الأساسية للإسلام، وطالب بالتطبيق الشامل في كافة مناحي المجتمع وكذلك الحياة الخاصة، (القوانين الإسلامية ـ الشريعة) كما طالب بحل جميع الأحزاب السياسية وإلغاء كافة القوانين والأنظمة والتعليمات الليبرالية ـ البرجوازية، وإحلال سيطرة صارمة لمساعي الدولة الإسلامية في السيطرة على حياة البشر وعلاقاتهم وفق تعاليم الإسلام. ولما كانت اللغة العربية هي المعبرة عن التعاليم الإسلامية الأساسية، لذلك ينبغي أن يكون جزءاً أساسياً من فعاليات التعليم للدولة الإسلامية الجديدة، ومرحلة التعليم لما قبل الدراسة الابتدائية ويجب أن تكون في الجوامع.

واستطاع الإخوان المسلمون بديماغوجية اجتماعية من خلال محاكاة شاملة للنموذج الفاشي لماكثة الدعاية وتحت شعار " رفع الفوارق الطبقية على قاعدة الأخوة الإسلامية" وكذلك " النضال ضد النفوذ والتأثير المادي والروحي للغرب " و " النضال ضد الفساد والنزاعات الحزبية"، أن يحققوا وبسرعة نفوذاً وكثير من الأتباع بين جماهير الفلاحين وبين البرجوازية الصغيرة في المدن كما حاولوا أن ينالوا ويحققوا لأنفسهم مكانة بين الطبقة العاملة حيث نجحوا بتمرير بعض عناصرهم في النقابات. وفي حوالي نهاية الحرب العالمية الثانية كان عدد أعضاء الحركة قد بلغ أكثر من نصف مليون، وبما يشبه الشبكة من الفروع لحركة الإخوان المسلمين كانت قد انتشرت في معظم أقطار المشرق العربي والسودان. ومن خلال تشكيل " الأخوات المسلمات" في مسعى للحصول على أتباع بين النساء وأيضاً من خلال وحدات " الكشافة " لنيل نفوذ بين أوساط الشبيبة. كما أسس الإخوان المسلمين المزارع، ومشاريع صناعية وأعمال الخدمات، وبذلك كانت لديهم الوسائل المالية القوية في نضالهم السياسي. وتحت شعار منظمة الجوالة " للشباب الأكبر سناً من الكشافة" والتي تأسست فيها المنظمة العسكرية "الكتائب" ذات القوة الضاربة.

وليس ثمة شك بأن العداء للأجانب قد طبع بالحقد من المتشددين دينياً والقوميين المتطرفين، وقد ضم شيئاً من عداء الإخوان المسلمين للاستعمار. وكان الإخوان المسلمين قد أقسموا على المصحف والسيف، وساهموا بفعالية في الانتفاضة العربية في فلسطين خلال أعوام 1937 - 1939 وكسبوا تعاطف الجماهير العربية معهم. وكان حسن البنا هو القائد لمثل هذه الاتجاهات المعادية للاستعمار، وبحسب المعطيات فهو ينحدر من منطقة الإسماعيلية(حيث مركز القيادة البريطانية في قطاع السويس) وهناك تعرف على الاستعمار وشحن بالكراهية ضد المستعمرين وسلوكهم التسلطي القائم على البطش.

ولكن قادة الإخوان أظهروا الانتهازية، حيث كانوا على استعداد لسياسات توفيقية. فقد أبدوا المبالغة في صراعهم المرير مع الوفد، ثم في تعاونهم مع الفاشية(الألمان) أو مع السلطات البريطانية بدرجة متساوية ألحقت هذه السياسة الأضرار بحركة التحرر العربية، وكذلك في موجة من الإرهاب التي تنامت منذ الأربعينات لواسطة أعمال وفعاليات المنظمات العسكرية للإخوان المسلمين ضد الخصوم من الداخل والخارج، وفي العداء المعلن ضد الشيوعية، وكذلك الرجعية الاجتماعية العميقة أضعفت جبهة النضال ضد الاستعمار. ومثل هذه الفعاليات كانت مضرة مثل مواقفهم في الثورة المضادة ضد النظام الثوري الديمقراطي في مصر في أعوام الستينات.

وتشير هذه الملاحظات إلى كون الإسلام قوة تعبئة لا جدال فيها ولكن أيضاً إلى محدوديته في النضال المعادي للاستعمار. وحيث كان الاتجاه الإسلامي يطرح : بأنه وفقط بشروط وظروف الإسلام تكون الحركة المعادية للاستعمار والشعور العربية ممكنة، وتوفر للبرجوازية المحلية قاعدتها الفعالة.

ثانياً : القوميـة العربيـة

تفتقر البرجوازية والطبقات المتوسطة الصغيرة إلى القدرة في أن تتمكن من تحقيق وتأسيس هيمنتها وسيطرتها على مواقعها داخل حركة التحرر الوطنية والقومية نظرياً وسياسياً، ولكن تلك النظرية سيكون بوسعها أن تقوم بالتعبير بصورة فعالة عن مصالحها الطبقية وتحقيق شخصيتها في الحركة الوطنية, وإن ذلك يؤكد ما جاء في ملاحظات ماركس " باسم الحقوق العامة للمجتمع تحصل طبقة خاصة على السلطة العامة". ومن أجل " اقتحام هذا الموقع وبذلك يتم استغلال سياسي لجميع الطبقات والفئات في المجتمع لمصلحتها. وحيث لا تكفي قواها الثورية الذاتية، لذلك فإن ثورة أي شعب وتحريره طبقة خاصة في المجتمع البرجوازي يتم بصورة تدريجية حتى يشمل المجتمع بأسره. وإلى جانب ذلك ينبغي عودة كل أقلية في المجتمع لتتركز في طبقة أخرى وينبغي أن توجه الضربات ضد الفساد الداخلي، وإلى جانب ذلك ينبغي أن تكون هناك حواجز اجتماعية خاصة للجرائم المعروفة. ولذلك فإن التحرر من هذه الدوائر يبدو وكأنه التحرر الذاتي العام".(8) وربما إن عرض ماركس هذا يكون ملائماً ومصيباً في مجال آخر. ولذلك فإنه يعتمد على الظرف الذي كانت فيه حركة التحرر العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين وهذا يثبت الحاجة إلى الأيديولوجية التي تمنح القوة التحررية بقوة إضافية مساعدة.

هذه المقتضيات تناسبت في مرحلة النضال ضد الاستعمار الذي كان كالمجرم المشهور الذي لا يمكن تجاهله حيال الشعوب العربية، حيث نالت الحركة القومية موقع الصدارة ومكانة أهم من الحركة التحديثية الإسلامية أيديولوجياً للفئات الوسطى القوية، والاتجاهات التي قامت بناء على ذلك " لحظة نسبية من التطور التاريخي، سواء في خصوصيات أمة مقابل أخرى، أو تظافر وتعاون القوى الاجتماعية المقابلة ضمن الأمة الواحدة من أجل جعلها مطلقة".(9)

وقد عرضت البرجوازية المحلية الأساس الأيديولوجي المناسب، وانطلاقاً من ذلك أصبحت في وضع يمكنها من السعي بحيوية وفاعلية نحو مصالحها وتساويها بمجموع مصالح الأمة (والسيادة الكاملة) كتأمين سيطرتها على أشكال النضال المعادي للاستعمار. وفي نفس الوقت قدمت الأفكار المتحضرة(التلاحم القومي) وبمقياس قوي كعنصر موحد ومعبأ في النضال ضد الاستعمار. ومن أجل الاستقلال الوطني(كما أشرنا قبل قليل) مع تصاعد التوجهات الدينية الإسلامية وسائر (المقدسات) التقليدية الأخرى والحركات التحررية(المهدية ـ السنوسية) وكذلك الحركة التحديثية الإسلامية التي كانت في تلك المرحلة محصورة في المجاميع المثقفة(في حالة وجودها). إن العلاقات الاجتماعية الغير المتطورة وبخاصة الهيكل الاجتماعي غير الناضج، والنهب الاستعماري المتزايد بحده وكذلك ازدهار النزعات الدينية والاحتدامات العرقية المؤثرة على النضال الوطني التحرري استلزم المزيد من التعميق والتجذير التي ما زال لها حتى اليوم النفوذ على التيارات الأيديولوجية في الأقطار العربية.

ويلاحظ بأنه على رغم "حلول أنماط العلاقات الرأسمالية ونماذجها الأولى، فإن ذلك كان يقابله تقلص وانتعاش على مستوى أنصار الملكية في الرجعية الثيوقراطية على الأرض" أو " نوعاً من ألعلب البرجوازية الوطنية، أفرز ذلك في البدء الأفكار المازنية ـ الليبرالية كمثال يحتذي به والتي تنافست مع الأفكار الديمقراطية التي أعقبت الثورة الروسية 1905".(10)

حلت جميع هذه الظواهر والأفكار في البلدان العربية في مرحلة التحول إلى القرن العشرين، وقد عبر ذلك عن نفسه في فاعلية الرواد الطلائعيين القومين العرب(التي كانت متأثرة بالحركة

القومية الإيطالية(البعث) Risorgimento بتأثير اليهودي المصري يعقوب صنوع(في مجال التأثر بالأفكار الليبرالية، وقد ورد ذلك تفصيلاً في مكان آخر من الجزء الثالث ـ المترجم)، وأفكار السوري المسلم الكواكبي، وكذلك السوري المسيحي أديب إسحاق، والمصري المسلم عبد الله النديم، والمصري المدافع عن حقوق المرأة ذو الأصل الكردي قاسم أمين. وليس أخيراً الوطني المصري مصطفى كامل، فهؤلاء وغيرهم كثيرون من المنظمات القومية السرية التي كانت قد خاضت النضال قبل عام 1918 ضد الطغيان العثماني وقدمت تضحيات عالية تخضبت بالدماء، فقد كانوا يمثلون في أفكارهم وفي تعاملهم لأفكار القومية العربية يمثلون في الواقع قوة تحررية تشير إلى كونها أو بوصفها " شكلاً غير متطور من الوعي الجماهيري المعادي للإمبريالية".(11)

وفي المرحلة التي يدور البحث فيها عن حركة التحرر الوطنية تطورت القومية إلى إيديولوجية رئيسية كشكل معبر لنضال الجماهير العربية ضد الإمبريالية وأيضاً إلى نظرية صالحة عموماً وإلى أساس لهذا النضال بمشاركة مهمة وأساسية من البرجوازية الوطنية والبرجوازية الصغيرة التي دخلت ميادين النضال.

وهذه العملية كانت مرتبطة (متلازمة) مع تأسيس العديد من الأحزاب البرجوازية الصغيرة القومية في أغلب الأقطار العربية، وكانت مطالبهم تتمثل في الاستقلال الوطني وفي الإصلاح الداخلي قد وجدت صداها الكبير لدى الفئات العريضة للشغيلة التي عبرت عن ذلك في انتفاضات مسلحة وتظاهرات واسعة والقيام بإضرابات، وبذلك فإنها عبرت بوضوح (الحركات القومية) عن كونها أقوى الحركات التحررية المعادية للاستعمار، وفي نفس الوقت أنجزت وعلى خطوات منتظمة الموقف العقائدي للحركة القومية العربية كما تظهر لنا المحاولات النظرية لجعل ذلك مجسداً أمام الأعين.

وقد طرحت هذه في أماكن أخرى العديد من الأمثلة، فمن أجل وضع المناهج السياسية للحركة القومية بصورة مباشرة في حركة نضال الجماهير المعادية للاستعمار، فقد استلزم ذلك في الصفحات التالية إيلاء أهمية خاصة لقضايا النضال المهمة للحركة التحررية القومية والتي تبلورت من خلال المطارحات الأيديولوجية للقوميين العرب، وفي الوسط الذي كان يجري منذ أواسط الثلاثينات حيث يشتد مباشرة في مجال السياسة العملية للصراع بين أوساط القوميين العرب والذي كان جوهره حول عقدتين من القضايا:

الأولى: في المناقشات حول العوامل الأساسية للحركة القومية.
الثانية: كانت حول استخدام الأفكار القومية وربطها بالخطوات الأولى من أجل تحقيق الوحدة العربية.

وفي ملاحظة للمناقشات حول الأجزاء المكونة للحركة القومية العربية التي ساهم فيها إلى جانب المنظرين القوميين الشيوعيين العرب أيضاً، وبذلك فقد يبدو للوهلة الأولى أنها لا تضم إلا القليل من المواد السياسية البالغة الأهمية. وكانت هناك وحدة في الرأي بين المفكرين القوميين حول اللغة العربية في أن تنال المكانة الأولى، فقد مثلت اللغة العربية (ضمير الأمة العربية) وهي تعد عربياً من كانت " العربية لغته الوطنية، بها يفكر وبها يعبر عن آرائه وأفكاره وبصرف النظر عن الانحدار العرقي لوالديه" وبصورة مماثلة كان هناك اتفاق يتوافر عند تقيم التقاليد التاريخية للشعوب العربية" بما في ذلك الثقافية" كعوامل أساسية للقومية العربية. وعند تقرير ما يسمى بالمصالح المشتركة التي أسماها السوري قسطنطين زريق وهو قومي مسيحي أرثودوكسي له

تأثير كبير على القراء الليبراليين، واللبناني عبد الله العلايلي، مثلت عناصر جوهرية للقومية وأشعلت المساجلات الحامية.

وكانت المجادلات ذات نوعية خاصة منها ما يختص بالمصالح المشتركة أو "حماية المصالح" التي كانت قد طرحت من قبل ساطع الحصري الذي كان مفكراً رائعاً ومنظراً للقومية العربية، وكذلك من خلال مساهمة الماركسي اللبناني رئيف خوري الذي نشر عام 1941 كتاباً بعنوان " معالم الوعي القومي"، ففي هذا الكتاب وقف ضد تلك الاتجاهات الرائجة في تلك المرحلة، وكذلك وفي المراحل اللاحقة، من رومانسية غير معقولة في القومية تلك التي كان قد صاغها زريق في كتابه "الوعي القومي" عام1938. وبحجج متينة جعلته ينال التقدير في صفوف القوميين، أخضع فيها أطروحات زريق "المهمة العربية الخاصة" إلى النقد المقنع، والخوري الذي أنزل الرومانسية القومية إلى الأرض من عليائها، ثم أسدى خدمة أكبر بأطروحته" الحاجات الخاصة" إلى قضية الاستقلال والتقدم الاجتماعي التي تناضل من أجلها الجماهير وربطها ببعضها، فبالنسبة له كان ذلك " الهدف الأخير للفكرة القومية الحقيقية وأمضى قوة، تمنح طاقة إنتاج للأمة من أجل تحسين الشروط المادية والثقافية وتوسيع عملية التمدن والتحضر وإزالة كافة الحواجز عن طريق انطلاق الأمة والتي تعيق نمو عبقريتها" وبذلك نزع عن الحركة القومية العربية ثياب الصوفية، ووضع بدلاً عنها الأساس المادي الموضوعي.

وهذا الأسلوب كان ملزماً وقد استند خوري على أطروحة زريق التي تتحدث عن " اجتماع المصالح" وطرح بصورة جوهرية مفهوم " عندما تكون مصالح أطراف وأقسام أي أمة متصادمة، فإن هذه الأمة ستكف عن الوقوف" كما أنه أكد بالمقابل، بأن بوسع المرء مناقشة المصالح التي يشترك فيها أغلبية الأمة في مرحلة محددة من مراحل تطور الأمة. وفي نفس الوقت فقد أوضح الخوري بأن أكثرية الأمة بالنسبة إليه كانت : " إن الأمر يدور عن قوى تنتمي إلى عملية الإنتاج، تلك القوى التي ينبغي دعمها بالإضافة إلى أنهم يشكلون مادة البناء، فأنهم أيضاً يمثلون الولادة الجديدة للأمة".

وبموجب الذي توصل إليه الخوري فقد أصبح واضحاً بأن النقد الذي تصاعد مبكراً وبسرعة في الأقطار العربية التي تعرضت للخطر، واتضح لديها بأن من خلال الحركة القومية التي تقودها البرجوازية، تنطوي على ديماغوجية شعار" اجتماع المصالح". وإن الجهود كانت في مجال إماطة اللثام عن الظاهرة المؤقتة المتمثلة ببروز السلام الطبقي الدائم من بين الظروف المادية للنضال المعادي للاستعمار الذي تخوضه الشعوب العربية، والتفاعلات الضرورية لمختلف الطبقات والفئات من أجل الاستقلال الوطني ونيل الحريات الديمقراطية بوصفها حقوق مواطنة.

وقد وجد الخوري ذلك ضرورياً في تأكيد على الجماعية في النضال ضد المضطهدين الأجانب وإبراز حقوق ومصالح هؤلاء الذين منحوا قواهم لقضايا فكرة التحرر القومي من خلال الفعاليات الجماهيرية. إذ أن: القومية العربية تحتاج في سعيها للتحرر القومي من خلال الفعاليات الجماهيرية، إذ أن " القومية العربية تحتاج في سعيها إلى التحرر، إلى طليعة مناضلة، التي تنظّم نفسها وتعبّئ قواها من خلال النضال والعمل، وهي تضم نوعية أخلاقية ومعنوية عالية، كما أنها تمتلك الحماس وروح التضحية ويتألف أعضاؤها وقادتها من الطبقات الشعبية ليس فقط من المثقفين ولها رؤية فلسفية للطبيعة وإلى المجتمع والتاريخ، والتي أساسها في الدراسات العلمية التي في واقعها تطور وانقلاب في رؤية الأشياء".(12)

وفي المناقشات الفائقة الأهمية حول مسألة مواصلة تطور نظرية وممارسة الحركة القومية العربية في الأيديولوجية القومية. وفي هذا النزاع وفي هجمات شديدة ضد المحاولات التي كانت

تقوم بها على الأغلب قوى إقطاعية من أجل الإبقاء على المثاليات الإسلامية الصرفة، كان قد غدا واضحاً، بأن لم يكن الدين سواء لدى القوميين المسلمين، أو القوميين المسيحيين(وهذا بصفة خاصة)، يحتل عند تقرير الأساس النظري للحركة القومية موقعاً متقدماً بل وأكثر من ذلك، فقد أنذروا وحذروا" وكان زريق قد انضم إلى الكتلة الوطنية، وكذلك أدمون رباط، والعراقي عبد الرحمن البزاز" وحذروا صراحة من طغيان العامل الإسلامي في الحركة القومية، بل وقد اعتبر باحترام أن : الدين الإسلامي جزء لا يتجزأ من الإرث القومي للشعوب العربية، وقد حدث ذلك بالدرجة الأولى تحت تأثير توافق و انسجام قواعدها ومبادئها الأساسية الرقة والأخلاقية العامة مع الأديان الأخرى في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وبالتحديد المسيحية.(*)

وهذه الرؤية الليبرالية لمعظم القوميين التي تنطوي جوهرياً على توجهات دنيوية في إيديولوجيتها قد عبرت عن نفسها على سبيل المثال في مصر تحت شعار " الدين لله والوطن للجميع". هذه الرؤية منحت الفرصة وإمكانية التغلب على الحواجز والموانع وفي توجيه الخطاب إلى جماعات السكان غير المسلحة، وجرها إلى النضال ضد الاستعمار تحت راية القومية العربية.

وقد بقيت لنا ملاحظة، بأن مواقف روحية كهذه تضم فيما تضم، الطبقات المعتدلة التي كانت تتحول إلى الإسلام الحديث، وكان ذلك واضحاً في قناعاتها الاجتماعية والسياسية، والتي صاغها محمد رشيد رضا في " الاقتصاد الأخلاقي" والانخراط في المشروع القومي، وبذلك فإن المساجلة والمناظرة التي استغرقت طويلاً حول العلاقة بين الإسلام والقومية حسمت تدريجياً لصالح القومية.

والمجموعة الثانية المهمة المثيرة في المجادلات النظرية وفي الصراعات السياسية العملية بين القوميين العرب في أعوام الثلاثينات والأربعينات التي أحرزت الانتصار التدريجي على ما يسمى ب(القطرية) والتحقق التدريجي للأفكار القومية والارتباط بشكل وثيق بالمحاولات الأولى لإحياء فكرة الوحدة العربية.

بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية كان هناك في معظم الأقطار العربية شكل مما يسمى (القومية القطرية، أو المحلية) تسمى في الأدب الوطني (الوطنية) وهذا التطور كانت له أسبابه الجوهرية الكامنة، فمن خلال النضال التحرري الوطني دخلت القوى البرجوازية كقوى مسيطرة في هذه البلدان بوجه المعطيات الاقتصادية والسياسية وقد بدا لها هدف واقعي وظاهري من خلال نيلها للاستقلال الوطني من أجل وجودها المباشر ومجالات تأثيرها أدى بسرعة وفاعلية إلى تلك الشروط التي سمحت " بالنهوض كطبقة رأسمالية اعتيادية في بلدانها"(13) وهنا لم يظهر أغلبية القوميين العرب في هذا الوقت المزيد من الاهتمام إلى رؤى قومية عربية صرفة، أو أنها أزاحت على الأقل مثاليات المستقبل البعيدة.

وهكذا فقد ساد في أعوام العشرينات في المغرب العربي والشرق الأوسط، ما يسمى بالقطرية(المراكشية) و(التونسية) و(السورية) و (المصرية) وفي نفس الوقت تعميق للشعار الذي كان مصطفى كامل قد طرحه " مصر للمصريين" وجد تعبيره بصورة رئيسية عند أفكار وممارسة قائد حزب الوفد سعد زغلول، والكاتب محمد حسين هيكل، والقومي الليبرالي لطفي السيد، الذين كانوا خصوم الفكرة الداعية إلى الحركة الإسلامية. وقد لاقت هذه الفكرة(القومية المحلية) تطوراً منعزلاً من خلال الكاتب الكبير المحدث للأدب العربي طه حسين، والقبطي سلامة موسى في الدعاية لفكرة المصرية ـ الفرعونية والتي ترجع (الأحداث) العربية ـ الإسلامية العنصر الأساسي للقومية العربية لصالح فكرة أفكار البحر المتوسط) وقد اتخذت

(القومية المصرية) شكلاً ضخماً في عام 1933 في الحزب البرجوازي الفاشي الذي أسسه محمد حسين (مصر الفتاة) الذي كان يتشابه مع حركة الإخوان المسلمين في فعالياته الإرهابية.

واتجاهات مشابهة كانت هناك أيضاً في لبنان وسوريا، وعلى أساس ما قام المسيحي المثقف شارل قرم وميشيل شيحا وسعيد عقل الذين أسسوا الحركة الفينيقية التي لاقت الدعم من السياسي اللبناني الموال للفرنسيين أميل أده قائد الكتلة الوطنية التي شكلت منظمة لبنانية متطرفة، وتمثلت إحدى منجزاتها بتأسيس حزب الكتائب الذي أسسه المسيحي بيير الجميل عام 1936 وكان هدفها الأساسي هو التصدي لمهمة حماية المصالح السياسية والاقتصادية للبرجوازية المارونية.

والآن لم يعد هناك شك بأن سلسلة من (القوميات) (المحلية) أو (القطرية) كانت قد نشأت في بعض الأقطار وبعضها كان قوياً. وهنا نذكر فقط الأحزاب : حزب الحركة الوطنية يرأسه الوزاني، وحزب الإصلاح الوطني بقيادة عبد الخالق توريس، والحزب الوطني لتحقيق المطالب يرأسه الفاسي واليزيدي وبلفريج، وحزب فيدرالية المسلمين برئاسة عباس فرحات، ونجمة شمال أفريقيا بقيادة مصالي الحاج في الجزائر، والحزب الدستوري الجديد يرأسه الحبيب بورقيبة في تونس، والوفد المصري برئاسة سعد زغلول، وحزب الشعب السوري برئاسة الشابندر، وحزب الإخاء الوطني برئاسة ياسين الهاشمي في العراق.

ولا يمكن تجاهل الاختلاف في وجهات النظر التي يمكن وصفها بكونها حقيقية وعميقة، والصراعات الحادة بين الشخصيات القيادية وبين أنصار هذا الحزب أو ذاك. وبادئ ذي بدءٍ فإن الأحزاب كانت ملتزمة في أهدافها(القطرية والمحلية) وكانت هدامة ومخربة في بعض الأحيان، لأن فعالياتها كانت انشقاقية وتتبع في بعض الأحيان تكتيكات معينة في المصالح المتناقضة بين القوى الإمبريالية في الأقطار العربية والتي ليس نادراً ما أدت إلى الأضرار بأطراف أخرى في حركة التحرر العربية والفئات الصغيرة بين المواطنين. وقد كانت نسبية مساهمتها في النضال واضحة من أجل إحراز الهيمنة السياسية والاقتصادية في شمال أفريقيا والشرق الأوسط. وكان ذلك يشير بوضوح إلى الإخلال بأهمية وضرورة توحيد الجبهة للنضال ضد الاستعمار، بل أنها يسرت بشكل مباشر أو غير مباشر للسياسة الإمبريالية المشهورة فرق تسد Divide et impera

وفي هذه الظروف بدأت في أواسط الثلاثينات عملية تحقق متزايدة لاتجاه في المجال النظري والعملي للقومين العرب، يقيم بصفة عامة كفكرة عربية خالصة(وصفت عادة بالقومية) وصل ما يهدف إليه ويتمناه هذا التيار البرجوازي الصغير وكذلك بعض القوى الإقطاعية التي انضمت إلى هذا التيار في الأقطار العربية، تهدف إلى تحقيق الدولة العربية الموحدة سياسياً، واقتصاديا، وثقافياً.

إن أتباع الفكرة القومية كانوا ماضين إلى جانب ذلك من أجل التغلب على ما اعتبر من قبلهم بالقطرية(الإقليمية) والتي من خلالها تضع الأمة العربية حداً لنتائج قرون طويلة من الاضطهاد الأجنبي وأنها تقاسي الآن أشد الآلام والتقسيم من خلال السياسة الاستعمارية لبريطانيا وفرنسا وإيطاليا والاستغلال والسيطرة حيال واقع يعبر عن الانقسام للشعب العربي.

وإحدى أهم النظريات للقومية العربية التي كانت متأثرة بآراء فيختة Fichte وهيردر Herder وآرنت Arndt ، كانت تلك التي تقدم بها السوري ساطع الحصري. ويمكن ملاحظة ذلك في كلماته التالية :" إن الفروق والخلافات التي يمكن ملاحظتها اليوم بين الدول العربية سواء من زاوية اختلاف الإدارة أو التشريع، وفي التأسيسات الاقتصادية، وكذلك أيضاً في توجهاتها

السياسية فهي جميعاً الإرث الذي تسلموه من الاحتلال. وهي وليدة الإمبريالية". وقد لاحظ أكثر من ذلك بقوله " إن العرب هم أمة واحدة: المصري، العراقي، المغاربة، هم شعب واحد وفرع من الأمة الواحدة، وهي الأمة العربية.".(14) والنضال من أجل الوحدة العربية، ومن أجل ولادة جديدة (بعث) للأمة العربية، كما كتب مكرم عبيد المصري القبطي وأحد ممثلي الفكرة القومية العربية في مصر قائلاً " إن هدف إقامة الجبهة ضد الإمبريالية هو الدفاع عن القومية، وتأمين تطور مستوى الحياة، وتطور الموارد الاقتصادية، وتصدير المنتوج الوطني، وتكثيف المصالح المتبادلة والتنسيق في العلاقات".(15)

وبادئ ذي بدءٍ عندما يشير المرء إلى نضال الشعوب العربية من أجل حقوقها التاريخية، وعندما تكون الأهداف غير واضحة فإن ذلك يثير المنازعات بل وأكثر من ذلك، إذ كثيراً ما طرحت حقوق عائلات في السيطرة مصالح سياسية واقتصادية متناقضة لقادة وشخصيات، برجوازية وإقطاعية أضعفت الفكرة القومية وجعلتها تعاني من التناقضات، وهكذا فإن الاتجاهات المعادية للاستعمار حتى في هذا التيار(القومي) كانت ظاهرة وملحوظة: فهم انتشلوا بلا ريب قوى حقيقية وكسبوها إلى جانبهم، مساهمة في تنسيق الفعاليات الجماهيرية المعادية للاستعمار في بعض الأقطار العربية وفي ذلك تعزيز وزيادة للقوة الضاربة في جبهة النضال ضد الإمبريالية.

ولم يكن هناك شك بأن تنسيقاً في نضال الشعوب العربية المعادي للاستعمار، وبالذات في هذا الوقت في عشية الحرب العالمية الثانية، أضافت الأهمية ووفرت شروطاً ملائمة نسبياً، بل أن بعض الفصائل في حركة التحرر العربية، ومن خلال نضالها وتضحياتها كانت في السنوات الماضية قد تمكنت من انتزاع بعض التنازلات من الإنكليز والفرنسيين، ولكن ذلك لم يكن ليخدع أحداً بأن الإمبريالية ماضية بلا هوادة في تنفيذ سياستها القمعية الاضطهادية ولا سيما ضد شعب فلسطين وعدا ذلك، كان هناك خطر الفاشية قد ابتدأ يتنامى بالنسبة للشعوب العربية، ومن جهة أخرى كانت قد ظهرت استعدادات ملموسة للتضامن العربي الذي يستحق التطوير. وهنا فإن حالة دعم القوميين التونسيين لقبائل الريف(مراكش) حيث كانت منذ عام 1937 لقاءات تنسيق بين القوميين المراكشيين والجزائريين والتونسيين. كما كان ما يقرب من الإجماع لكافة فصائل حركة التحرر العربية من أعداء التضامن لنضال الشعب الفلسطيني وكذلك في سلسلة من الاتفاقات بين العديد من أقطار المشرق العربي يمكن اعتبارها خطوات على طريق التقارب السياسي والاقتصادي والثقافي.

وهكذا نشأ في هذه المرحلة لحركة التحرر العربية مقدمات مناسبة لتحقيق الأفكار القومية المثالية أكثر مما كانت عليه في مطلع القرن، تلك التي نجحت في أن تحقق انتشاراً وشعبية لها. وكان السوري المسيحي نجيب عزوري (الذي أسس في باريس عام 1904، الجامعة العربية Ligue del la Patrie Arab) قد عبر في كتابه (يقظة الوطن العربي في آسيا) عن تطلعاته لدولة عربية مستقلة عن الدولة العثمانية(1905) التي تشمل مناطق لبنان، سوريا، فلسطين، العراق. وتصورات مماثلة كانت لدى المسلم السوري الكواكبي الذي كان ما يزال يعتبر أن الإسلام عنصر التحام قوي لذلك فأنه شمل في مشروعه الوحدوي شبه الجزيرة العربية أيضاً.

وفي أعوام الثلاثينات بدأ العديد من البرجوازيين القوميين العرب على هدي هذه الأفكار القومية التي تضم توجهات واضحة للعداء والاصطدام مع الاستعمار وبهدف إقامة الدولة العربية الواحدة، بدأت النضال ضد الاتجاه الديني الصرف، وغلاة الإقليمية وتوجهاتهم في صفوف حركة التحرر العربية.

وفي مقدمة الجهود الجدية من هذا النوع كان في المؤتمر العربي المنعقد في القدس عام 1931، وهذا الاجتماع الذي حضره قوميون برجوازيون من مراكش، الجزائر، تونس، ليبيا، مصر، سوريا، فلسطين، والعراق والحجاز، جاء باعتباره رد فعل واضح على المؤتمر الذي عقد في نفس الوقت، وفي نفس المكان من قبل القوى الإسلامية الإقطاعية باسم (المؤتمر الإسلامي)، وقد أظهر بشكل واضح بأن القيادة الرجعية للمؤتمر الإسلامي (كانوا تحت ضغط موظفي وسلطات الانتداب البريطاني)، بذلوا مساعي شديدة في إعاقة إسهام المندوبين من القوميين العرب، وكانت هذه كما في حالة مساهمة عبد الرحمن عزام القومي المصري ومحمد سعيد ودرويش الليبي على شكل لائحة اتهام ضد السياسة الاستعمارية.

وهكذا فقد أصبح مفهوماً بأن القوميين العرب وعلى هامش المؤتمر الإسلامي قد نجحوا في تكوين الشكل المعبر العامل لهم (المؤتمر العربي). ومن النتائج الهامة لهذا الاجتماع هو التوصل إلى (الميثاق العربي) التي تضمنت صياغة لتشكيل دولة عربية مستقلة، والثاني هو التنسيق في النضال من أجل الاستقلال والنضال ضد كافة أشكال الاستعمار في شمال أفريقيا والشرق الأوسط. وعدا ذلك فقد تقرر التحضير لمؤتمر قومي باسم " مؤتمر الأمة العربية" ولغرض التحضير لذلك تأسست لجنة تحضيرية، وهذه اللجنة قررت أن يكون عام 1933 موعداً لعقد المؤتمر. وقاد المؤتمر السيد ياسين الهاشمي، كما كان السوري الشهبندر موجوداً، ونبيه العظم وشكري القوتلي وشكيب أرسلان ورياض الصلح ومحمد عزت دروزة. وقد اختير الملك العراقي فيصل الأول كرئيس شرف للمؤتمر.

ومن أجل الاستباق فهذا المؤتمر كان ينبغي عقده في بغداد والذي كان قد استثار مصالح إمام اليمن لم ينعقد ، وإحدى الأسباب الحاسمة لذلك كان في الضغط الشديد الذي مارسته الإمبريالية البريطانية على الأوساط الحكيمة لإفشال مشروع اللقاء القومي العربي المرتقب الذي كان ذو توجهات معادية للاستعمار ولكن بنفس الوقت لعبت الخلافات في صفوف التحضير لعقد المؤتمر من المشاركين القوميين دوراً مهماً في فشل عقد المؤتمر. وهكذا فقد عبر العديد من القوميين السوريين والفلسطينيين في الشكوك (ولم يكن بعضها مخطئاً) بأن وجود الملك فيصل على رأس المؤتمر القومي العربي هو في المقام الأول أداة من أجل تحقيق سيطرة الأسرة الهاشمية، الأمر الذي سوف يستغل مستقبلاً في ظل الدولة العربية الموحدة.

إن أسباب فشل عقد المؤتمر القومي في بغداد سيجعل من الممكن فهم وإدراك أي صعوبات أضيفت للجهود اللاحقة للمناوئين للفكرة القومية، بالإضافة إلى الفروق الاجتماعية والسياسية، إذ برغم هذا الفشل للفكرة القومية الذي كان له صداه المهم منذ أواسط الثلاثينات في أغلب الأقطار العربية وقبل كل شيء في أوساط البرجوازية ومثقفي البرجوازية الوسطى، وفي أوساط الطلبة القوميين في أقطار المشرق العربي، كانت المحاولات قد بذلت لتأسيس منظمات جماهيرية غير قطرية والعمل الدعائي للفكرة القومية وتأسيس المنظمات والتأثير تدريجياً والتقريب بين الأقطار العربية على بعض الأصعدة الاجتماعية. و في المؤتمر التاسع للطب الذي عقد في القاهرة في كانون الأول ـ ديسمبر / 1933 الذي كان قد دعا إليه الطبيب السوري القومي عبد الرحمن الشابندر، ولاقى الدعم من زملاء مهنته، وأيضاً من جمعية "عصبة العمل القومية" وطالبت بخطوات عملية لتحقيق الوحدة العربية.

وفي نفس الاتجاه أيضاً كان تأسيس المؤتمر الطبي العربي الذي انعقد للمرة الأولى في بغداد شباط ـ فبراير / 1938 وكذلك في القاهرة كانون الثاني ـ يناير / 1939، وحول محتوى وهدف هذه اللقاءات والمطالبات الصادرة عنها في إحداث التقارب الثقافي بين الأقطار العربية. وكواحدة من فعاليات القوميين العرب، وفي هذا الشأن نلاحظ جهود ومساعي القوميين

السوريين والعراقيين والمصريين(ممثلين : قسطنطين زريق، فاضل الجمالي، عبد الرزاق السنهوري) الذين بدؤوا بالعمل لعقد مؤتمر الطلبة العرب في دمشق عام 1937 بدعم من ابن السعود.

وأولى ذرى المساعي العربية القومية باتجاه تحقيق الأفكار القومية تمثّل بدون شك في عقد "المؤتمر العربي" في بلودان وهذا المؤتمر عقد بتاريخ 8 - 12 / كانون الثاني - يناير / ، 1937 ، (وبلودان بمصيف سوري بالقرب من دمشق)، وحضره أكثر من 400 من القوميين من كافة الأقطار العربية (باستثناء المغرب واليمن) وانعقاد المؤتمر على أساس المبادرات التي تقدم بها القوميون العراقيون والسوريون. وكان هذا مهماً في مجرى عمل الحركة القومية. وبحلول النصف الثاني من أعوام الثلاثينات كان النضال الفلسطيني قد التهب من أجل الحقوق الشرعية وضد السياسة الموالية للصهيونية التي كانت الإمبريالية البريطانية تنتهجها وكان ذلك مبرراً وباعثاً حاسماً لإنضاج وبلورة الحركة القومية.

ومن هنا نلاحظ بأن المؤتمر سواء كان قد أعد كشكل (لجنة الدفاع عن فلسطين) الدمشقية بقيادة نبيه العظم، أو بأن عموم سير المؤتمر كانت تسيطر عليه مفهوم وفكرة "فلسطين هي قلب الوطن"، وهي العضو الذي يربط بين عرب آسيا وعرب أفريقيا، ويربط بين شمال وجنوب شبه الجزيرة العربية ويمثل الطريق المطل على البحر. ومن خلال فلسطين يقيم العرب الصلات مع العالم المتحضر ومع عالم التجارة. وعلى المرء أن لا يفكر بأنهم من خلال احتلال فلسطين بالقوة يعني أنهم سيتمكنون من سلبها".(16)

مع أن على المرء أن يلاحظ بما لا يقبل التباس بأن قضية الشعب الفلسطيني هي قضية عادلة، فإن الرجعية العربية من القوميين الإقطاعيين كانوا كالغائبين عن مسرح الجريمة حيال الجماهير العربية ليس إلا(بمعنى لا يمكن إعفاءهم من المسؤولية حيال الأحداث اللاحقة - المترجم) كمبرر لتحقيق مصالح سياسة القوة، لذلك فليس هناك مجال للشك في الحماس الطاغي للقوميين العرب في النضال من أجل عرب فلسطين، فقد شددت من حركة العداء ضد الاستعمار لدى القوميين العرب.

ومن جهة أخرى فقد أوضح مؤتمر بلودان الخلافات وعدم التجانس الاجتماعي والسياسي للحركة القومية. وعلى الرغم من أن المجادلات والمساجلات لبعض الأوساط والأقطار العربية لم تكن بادية ومكشوفة للعيان ولكنها تشير على الأقل إلى حدثين في وجود مثل هذه التناقضات : الأول: في الصراع على رئاسة المؤتمر، وكان المرشحان الفلسطيني الحاج أمين الحسيني، ونوري السعيد العراقي، وقد رفضا المرشح العراقي القومي ناجي السويدي(وهو سياسي عراقي معادي للإنكليز ولنوري السعيد الذي كان على صلة وثيقة مع الهاشميين وفيصل) وقيادة المؤتمر تعبر عن ثقل المحافظين الذين كانوا على صلة وثيقة بسياسيّ القوى الإقطاعية ومن بين هؤلاء كان نوري السعيد وشكيب أرسلان الذي كان يقف قريباً من الملك المصري، والشخصية المعادية للوفد المصري محمد علوبة، وأسقف كنيسة أرثودوكسية - اليونانية في حمص إكنازيو خورويكا Ignazio Hurraika ، ورئيس تجار بيروت عمر الداعوق وكذلك الحزب الفاشي(الحزب القومي السوري) وممثلي حزب الشعب السوري فؤاد مفرج.

الثاني: الجدال حول طلب سعيد الحاج ثابت (رئيس اللجنة العراقية للدفاع عن فلسطين) بإدانة الأنظمة الملكية العربية حول دورها السلبي حيال نضال العرب الفلسطينيين، وقد رفض هذا الطلب بعد إلحاح من الدرزي شكيب أرسلان.

ومؤتمر بلودان الذي واصل تطبيق الأفكار والممارسات القومية كان يمثل مؤشراً قوياً وأعقبه الكثير من الفعاليات القومية التي كانت واضحة في مساعيها، وهو تحقيق مزيد من الخطوات للتقارب بين الدول العربية بهدف توحيدها أخيراً. والمؤتمر البرلماني الدولي الذي عقد في القاهرة من تشرين الأول ـ أكتوبر / 1938. وفي العام نفسه عقد مؤتمر المرأة العربية والطلاب العرب في الخارج، وتأسست لجان تطالب بوضع الأفكار للوحدة العربية، ومن تلك "جمعية الوحدة العربية"التي أسسها علوبة في القاهرة في نيسان ـ أبريل / 1930. وفي هذا المجال ينبغي الإشارة إلى أن التيار القومي ومنذ نهاية أعوام الثلاثينات(كان يمثله عبد الرحمن عزام، مكرم عبيد، والكاتب المازني) وكان لهم نفوذ كبير في مصر. وفي مطلع الأربعينات التزم العديد من مثقفي البرجوازية الصغيرة ومن أبرزهم : ميشيل عفلق، زكي الأرسوزي، صلاح الدين البيطار، في حركة أطلقت على نفسها (حركة البعث)التي تأسست في سوريا ولبنان. أما في المغرب فقد أخفقت الأفكار القومية رغم الجهود التي بذلها القوميون في شمال أفريقيا مثل : الفاسي، اليزيدي، الوزاني، ومصالي الحاج، والثعالبي، وصلاتهم مع شكيب أرسلان، واتصفت مواقفهم ببعض التردد.

وفي النصف الأول لأعوام الأربعينات انضمت قوى يمكن أن تحسب على البرجوازية والإقطاع، انضمت على المساعي من أجل الوحدة في مرحلة مهمة. وكانت شخصيات من الأنظمة الإقطاعية البرجوازية في الشرق الأوسط ومثقفون قد بدؤوا الآن بتقديم دعم (ولم يكن ذلك بدون موافقة مباشرة أو غير مباشرة من الإمبريالية) جهودهم في التوصل (في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية) إلى خلق رابطة للدول العربية وفي ذلك كانت الأقطار العربية في المشرق تتأرجح في تلك المرحلة في سياستها بين مختلف المجاميع البرجوازية والإقطاعية وكان ذلك واضحاً خصوصاً بين أنصار الأسرة الهاشمية، والأسرة السعودية الهادفة إلى السيطرة.

وفي عام 1943 طرح نوري السعيد باسم النظام الإقطاعي الهاشمي في العراق وبموافقة الإمبريالية البريطانية فيما يسمى "الكتاب الأزرق" مشروع سوريا الكبرى ومركزها العراق، هذا المخطط الذي يشكل من : العراق، سوريا، لبنان، شرق الأردن، دولة موحدة واقترح لها الملك الهاشمي. ولكن ذلك اصطدم بمشروع سوريا الكبرى، ومؤسسة المسيحي أنطون سعادة الذي أسس عام 1932 الحزب القومي السوري، الذي كان متأثراً بالفينيقية، وتحت شعار " سوريا، سوريا، فوق كل شيء" وإن انبعاثاً (عصر نهضة) سيقوم على الكنعانيين، الآراميين، الآشوريين، الكلدانيين، الأكديين، لتشكيل الأمة السورية الكبرى التي تمتد من طوروس وحتى سيناء، ومن البحر المتوسط حتى نهر دجلة. وفي ذلك لم تجد تلك الفكرة إلا دعماً قليلاً. ومن جهة أخرى : تدخلت التناقضات الهاشمية الداخلية من خلال الأطماع السياسية في السلطة وقد شجعت الأوساط الإمبريالية أمير شرق الأردن عبدالله بن الحسين في محاولاته تلك. وهذه المطالبة بعرش الدولة العربية الموحدة التي يجري البحث عنها والنضال لتحقيقها لم تجد في أوساط القوميين العرب الدعم والمساندة المأمولة على الرغم من أن عبد الله كان عام 1937 قد تلقى الدعم من رئيس غرفة التجارة العربية ـ الفلسطينية فخري النشاشيبي(قومي رجعي) مؤسس حزب الأمة العربية بوصفه أداة لتحقيق مصالحة وأهدافه، وكان في تصورهم أن دولة عربية موحدة في سوريا الكبرى وبقيادة فيصل بن الحسين سيلقى التأييد الشديد حتى في أوساط قومية أخرى كمصر على سبيل المثال، وقد أدى السعوديون من مقرهم في الرياض مقاومة شديدة لهذا المشروع.

وفي هذه الظروف من تصادم مصالح السلطة السياسية بين المجاميع الإقطاعية البرجوازية ذات النفوذ الواسع في الشرق الأوسط، ومن خلالها أثرت على الاتجاهات المعادية للاستعمار في

سائر التيارات القومية الأخرى أكثر فأكثر، والآن يباشر ممثلو الأوساط الحاكمة في مصر إلى اتخاذ المبادرات. واستناداً إلى حديث وزارة الخارجية البريطانية أنطوني إيدن أمام مجلس العموم البريطاني في 23/ شباط - فبراير/1943، والتي عاد فيها وكرر على المصالح البريطانية في تكوين كتلة من القوى الرجعية والدول في الشرق الأوسط، وفي 30/ آذار - مارس من لنفس العام أعلن وزير العدل المصري صبري أبو علام " منذ أن تقدم السيد أيدن بإعلانه فإني قد أدليت بموقفي، وقد كان لي رأي وهو أن الأمر ينبغي أن يدرس رسمياً من الحكومات العربية. وفي الختام سيكون مفضلاً لو قامت الحكومة المصرية بنفسها اتخاذ المبادرة الرسمية على هذا الطريق. وفي البدء يجب الأخذ بنظر الاعتبار رأي كل حكومة عربية من أجل استخلاص ما نهدف إليه. ثم أن على الحكومة المصرية أن تجتهد في أن تجمع كل وجهات النظر قدر الإمكان وتوحدها".(17)

وبدعم العديد من القوميين السوريين واللبنانيين انضم زعيم الوفد مصطفى النحاس بناء على ذلك سلسلة من المحادثات مع ممثلي الأقطار العربية المشرقية، والتي في ختامها أدت إلى انعقاد مؤتمر الإسكندرية الذي استمر من 25/ أيلول - سبتمبر إلى 7/ تشرين الأول - أكتوبر / 1944، وساهم في أعماله ممثلون عن: سوريا، شرق الأردن، العراق، لبنان، مصر، ثم الاتفاق على بروتكول تأسيس الجامعة العربية . وفي 22 / آذار - مارس / 1945، أقرت تشكيل لجنة تحضيرية " المؤتمر القومي العربي " في القاهرة(حلف جامعة الدول العربية) والذي وقع عليه من قبل وفود: سوريا، شرق الأردن، العراق، العربية السعودية، لبنان، مصر، ثم انضمت إليها اليمن بعد شهرين من هذا التاريخ.

ومن جهة أخرى كان قد أصبح واضحاً بأنه قد يستبعد رؤية نتائج تطبيق الأفكار والممارسات القومية، وكانت أيضاً العناصر التي تعمل للإقليمية (القطرية) تتنافس وتطرح تناقضات في الحركة القومية، وأنه من الممكن أن يكون العديد من المفكرين والعاملين في الحركة القومية كانت ترافقهم أمنيات ذاتية. ومن خلال تأثيرهم ومساعيهم لإضعاف وحدة الصف والقوة الضربة لحركة التحرر القومية، وأن التنفيذ العملي للأيديولوجية القومية تظهر (وهنا تبدو وتتضح التناقضات في هذا التوجه) بأن القوى للإقطاعية والبرجوازية، والبرجوازية الصغيرة، ومن خلالهم يجري العمل من أجل تحقيق مصالحهم السياسية والاقتصادية في إضفاء النزاعات الاجتماعية الكامنة خلف الأقنعة أو في إزاحتها.

وهذا التطور جرى تطبيقه حيث تمكنت البرجوازية من السيطرة على حركة التحرر القومية، واحتلال مواقع وامتيازات سياسية واقتصادية. ومن أجل تأمين توسيع هذه الامتيازات، فأنها سعت ولا سيما الأفكار الأساسية في(الاندماج - التكامل القومي)، التي اشتدت كوسيلة لخلق علاقات (السلام الاجتماعي) في المجتمع والترويج لما كان رشيد رضا يعمل له دعائياً، وهي فكرة (التوافق والانسجام الطبقي) وكذلك الادعاء بوجود (طريق ثالث) بين الرأسمالية والاشتراكية التي تلتحم بالنضال من أجل التحرير القومي بصورة لا تقبل الانفصام لتأمين وتحقيق أمنيات وآمال معظم الفئات والطبقات المضطهدة. وقد أوضح عبد الرحمن عزام الأمين العام للجامعة العربية بدون غموض والتباس، عندما أعلن في أواسط الأربعينات قائلاً " نحن نعترف بالفروق الطبقية، الأغنياء أو الفقراء، الضعفاء أو الأقوياء هم في درجة واحدة بنظرنا، ويقفون على درجة واحدة من نظامنا الاجتماعي، ونحن نرفض هذه الظاهرة الجديدة، صراع الطبقات الذي ينبغي علينا أن نجد له علاجاً فعالاً".(18)

وبالنظر لما يمثله لطفي السيد كاستثناء بين الليبراليين المصريين والذي قصد من خلاله الاشتراكي والبرجوازي الصغير سلامة موسى حيث قال " إن الاستقلال وحده لا يكفي، وإن

أمة مستقلة متخلفة سواء في حكوماتها أو هيكلها الاجتماعي، لا تحيا حياة كريمة".(19)، وهكذا يلاحظ بصورة عامة بأن أيديولوجي وسياسي القوميين، كانوا من الساعين لإحداث (تغير)(للمسألة الاجتماعية) في وعي الجماهير. وعلى هذا الصعيد كان الزعيم الوفدي سعد زغلول قد تطرق إلى ما يشبه ذلك فيما يخص منع نشاط الحزب الشيوعي المصري عام 1924 حيث أعلن : إنني لست مع أولئك الذين يتناقشون حول القضايا الاجتماعية، وأنا شخصياً لا ألتفت إلى الشيوعية أو أهتم بها، أو بالبلشفية، ولا أخشى فيما إذا كان كلاهما يتعايش مع حياتنا الاجتماعية، وليس لدى أي شعور بالخوف من ذلك".(20)

وموقف كهذا كان قد ظهر لدى القوى التوفيقية المتنامية من البرجوازية القومية وأحزابها حيال الاستعمار والرجعية المحلية أبرزت بل بالأحرى فهي أكملته موضوعياً وجعلته أكثر ملائمة ومناسبة لفعاليات الديماغوجية الاجتماعية ومجاميع المتطرفين أو القوميين التقليديين كمنظمات الإخوان المسلمين ومصر الفتاة الفاشية، والحزب القومي السوري، وليس أخيراً كرد فعل على النفوذ المتزايد للأفكار الاشتراكية التي تلقتها البرجوازية كصدمة. وهذا ما يمكن ملاحظته وبصفة خاصة بعد تأسيس الأحزاب الشيوعية في الأقطار العربية وكذلك ما له علاقة بالفعاليات العاجلة للاشتراكيين من البرجوازية الصغيرة من القوميين في سياستهم المعادية للاشتراكية التي تحولت إلى موقف أساسي لديهم. وقد كان يكفي هنا التأكيد على (حلف غير مقدس) مع الأيديولوجية الاستعمارية الأوربية، وكذلك الرجعية الإسلامية واللاهوتيين المسيحيين، والإشارة إلى موقف شكيب أرسلان والثعالبي، التي تؤكد على " مقاومة البلشفية" لأن، وكما يذهبون فبأمثلتهم الديماغوجية بأن " الخطر الشيوعي هو أكبر من خطر الاستعمار".(21) ومثل هذه البيانات كانت سياسة مبرمجة للعديد من الأحزاب البرجوازية القومية في الأقطار العربية في تلك الأوقات وأيضاً نذيراً للمواقف القومية المعادية للشيوعية في الوقت الحاضر.

وفي الظاهر أن اتجاهات التطور هذه للبرجوازية الناشئة وللقوميين من البرجوازية الصغيرة في الأقطار العربية، كانت حتى في هذه الحالة المادية الملموسة، قد شملت بدون شك عموم ديالكتيك هذه الظواهر كقواعد تعامل الشيوعيون معهم حسب التعاليم اللينينية، سواء من حديث شروطها وظروفها التاريخية، أو من خلال نسبية تقدميتها. وهكذا كان على الشيوعيين " اللقاء مع الحركة البرجوازية القومية التي تتحرك ضمن هذه الشعوب وما يدور فيها من حتمية، وأن تقف منها موقفاً تاريخياً".(22) وكان عليهم مسؤولية " الحذر والاحتراس بصفة خاصة وملاحظة واعتبار المشاعر القومية الحيوية الحساسة في أقطار وشعوب طال اضطهادها" و " وتقديم قدر من التنازلات ليتم بذلك تخطي وتجاوز أزمة الثقة و الأحكام السريعة".(23)، إذ أن كل " حركة قومية برجوازية لأمة مضطهدة لها محتوى داخلي ديمقراطي عام، هي مكرسة ضد الاضطهاد ونحن ندعم هذا المحتوى بالتأكيد".(24)، وأنها مسألة تقدمية " استيقاظ الجماهير من النوم الإقطاعي، والنضال ضد الاضطهاد القومي والوطني من أجل سيادة الشعب الذي هو ضمن واجبات ومسؤوليات الماركسيين في المشاركة بجميع القضايا القومية الحاسمة والمهمة، وهذه مسألة رئيسية في الواجبات السلبية ولكن لا يجوز أن تمضي البروليتاريا إلى أبعد من ذلك في دعم القضايا القومية، إذ تبدأ بعدها بالعمل الإيجابي والذي يؤدي إلى تقوية البرجوازية القومية".(25)

ثالثاً : الأفكار الاشتراكية

في الصفحات الماضية لاحظنا ولعدة مرات ظاهرة استهين بها في الأبحاث العلمية البرجوازية، أو أنها لم تلاحظ أصلاً: هي أن الحركة البرجوازية المبكرة في الأقطار العربية، وبصورة مشابهة لمثيلاتها من التيارات الأيديولوجية الرئيسية التي مر ذكرها في مرحلة الصراع مع الاستعمار والتي يعود تاريخها إلى الأفكار الاشتراكية البرجوازية الصغيرة في القرن التاسع عشر، وهي في صلة لا تقبل الانفصام مع حركة النهضة المبكرة للبرجوازية العربية في من جهة تمثل مع سائر الأفكار التاريخية وأيضاً الاشتراكية وبالدرجة الأولى الأفكار ما قبل الماركسية. وعلى الأغلب في الأقطار العربية المشرقية ومصر، ثم بدأت تشد إليها المثقفين العرب، ومن جهة أخرى فقد حملت النهضة الكثير معها والتي كانت باستمرار تعمل على تحضير الأرضية لمثل هذه الأفكار التي كانت تزيح بخطوات منتظمة ما يقابلها ويقف أمامها من عوائق أفكار دينية غامضة. ومن هذا الموقع وبتأثير الشخصيات المؤثرة على النهضة كالمصري رفاعة الطهطاوي، الذي كان متأثراً بنظريات سان سيمون Saint Simon و برودون Proudhon .

وكانت المحاولات تبذل لتطوير الحركة الاشتراكية البرجوازية الصغيرة في الأقطار العربية بصورة منتظمة، وهكذا كان هناك ضمن المرحلة المعادية للاستعمار ثلاث مراحل مختلفة، وفيما كانت المرحلة الثالثة متطابقة مع المهلة الزمنية التاريخية التي تبحث عنها.

والمرحلة الأولى بدأت في نهاية عقد الثمانينات من القرن التاسع عشر وانتهت حوالي عام 1905 وهذه المرحلة تميزت ابتداء من خلال حملة الأفكار الاشتراكية المجهولين، ومن خلال تشخيصاتها غير الدقيقة والمعنوية ذات الطابع التجريدي، وعلى الأغلب أفكار اشتراكية غير ماركسية، لفورير Fourir و أوين Owen، وسان سيمون، وبلانك Blanc، ولاسال Lassalle، وباكونين Bakunin، وكروبوتكين Kropotkin، ومن خلال عزل الحركة الاشتراكية الفتية عن الشغيلة وعدم تنظيمها وكذلك محدودية انتشارها بين قلة من المثقفين. وفوق ذلك يبدو أنها اقتصرت على بلدان المشرق العربي ومصر، رغم الموقف الأخير للأبحاث التي نشرتها الصحيفة القاهرية(المؤيد) عام 1890 استناداً إلى الاقتصاد السياسي لكارل ماركس حيث نشرت رسالة قارئ مغفلة التوقيع بعنوان " كيف تسعد البلاد وتثرى"، تدافع فيها عن الاشتراكيين العرب، ولم يكن هناك نشر لنشاطات المفكرين الاشتراكيين. ويجب أن نفترض بأن في أعوام الثمانينات كانت مثل هذه الأفكار قد وجدت المريدين والأتباع. وابتدأت تنشر في حزيران - يونيو/1889 في المجلة المصرية ذات النفوذ الواسع "المقتطف" و" الهلال" و "بتؤدة وحذر لمشروعهم الذي لما يزل ضعيفاً " فيما اشتدت حملة العداء للاشتراكية في المقالات التي كانت بعنوان " الغني والفقير" و " فساد مذهب الاشتراكية" و " ضرر الاشتراكية " التي كانت للشخصية المعادية للاشتراكية في مصر يعقوب صروف (وهذا من السماء اليهودية الشائعة في مصر - المترجم) . وإلى جانب ذلك، فالمقال(الذي نشر على أنه رأي عالم شريعة إسلامي) يعتقد أنه لجمال الدين الأفغاني الذي نشر في نفس العام مقالاً (باسمه الصريح) يوضح بصورة مبكرة طبيعة الحملة المعادية للشيوعية من قبل المحدثين الإسلاميين.

في المرحلة الزمنية بين 1907/1905، وأكتوبر - تشرين الأول/ 1917، تأسست الشيوعية الدولية. وكانت الأحزاب الشيوعية في الأقطار العربية هي المرحلة الثانية في تطور الحركة الاشتراكية البرجوازية الصغيرة. وهي متمثلة قبل كل شيء بتجاوز مرحلة (السماء المجهولة) من خلال تنظيمات سياسية للقوى الاشتراكية(تأسس الحزب الاشتراكي المبارك عام 1908)

الذي لم يدم إلا فترة قصيرة، وكذلك النفوذ التدريجي المتزايد للأفكار الماركسية اللينينية على الحركة الاشتراكية العربية. وفي هذه المرحلة فإن للأفكار اللينينية أهمية خاصة، والتي كانت على أثر يقظة شعوب آسيا وتطورهم في الحياة السياسية خلال الحرب الروسية ـ اليابانية، والثورة الروسية 1905، اكتسبت منها قوة شديدة".(26)

ويقرر رفعت السعيد " بأن ثورة 1905 كان لها صداها المهم في مصر" وإن هذا النفوذ لم يتحدد " على الانعكاس الروحي للهزة الثورية للشعب الروسي" بل وأيضاً بأوثق الأشكال المادية في التلاحم.(27)، واليوم لم يعد هناك شك بأن التساريين Zarisim (التسار هو لقب القيصر الروسي ـ المترجم) في الحرب الروسية ـ اليابانية، وكذلك الثورة الروسية لعام 1905 قد ألهمت بقوة وبصورة مباشرة أو غير مباشرة ممارسات المثقفين التقدميين في المشرق العربي، كما أنها شجعت الاشتراكيين على توسيع دعايتهم وقيادتها بصورة منتظمة، وأن تجد الأفكار الماركسية اللينينية لنفسها المكانة في أفكارهم.

وفي هذا المجال نلاحظ ازدهار نوعي وكمي في الحركة الاشتراكية العربية الفتية التي وجدت التعبير عن نفسها في أعمال المثقفين من البرجوازية الصغيرة: شبلي شميل، سلامة موسى، محمد حسنين المنصوري، ونقولا حداد، وأهميتها تكمن بالدرجة الأولى بالشجاعة والجرأة المدهشة ضد " الجنون والحماقات التي تروى عن الاشتراكية" .(28) وقيامها بالتصدي وبنشر ما تتعرض له الاشتراكية من تشويه للنضال الذي خاضته في هذا المجال.

إن القيمة الشاملة لفعالياتهم ينبغي أن تميز بشكل مادي ملموس، لذلك فليس من الممكن تجاوز أعمال النشر النشيطة التي ظهرت لشبلي شميل وسلامة موسى للأفكار الماركسية اللينينية. وبينما كان شميل تحت تأثير أفكار الثورة الفرنسية ومادية العلوم التطبيقية لهكسلي Huxley، و ل. بوخنر L. Buchner ، وهايكل Haeckel ، ونظرية النشوء والارتقاء لداروين Darwin ، وأخيراً سبينسر Spencer ، وما بني على ذلك من مادية ابتدائية وملاحظات حيوية، بأن الاشتراكية تتحقق كنتيجة لعملية ارتقاء وتطور، وبذلك شارك سلامة موسى في موقفه بارتباطه مع الفابية(الاشتراكية الفابية) و يطرح المرء في الأخير الحساب (الفاتورة) بأن فاعلية كليهما (كما بالمناسبة أيضاً المنصوري وحداد) كان عملاً فردياً ضل معزولاً عن جماهير الشغيلة. وهكذا كانت المحاولة أقرب إلى المبالغة في تقدير للقدرات الحقيقية لهذه الشخصيات. وبرغم أن الظروف الاجتماعية الموضوعية المحددة لقدراتهم المعرفية والفاعلية السياسية العملية فإن الفعاليات الذاتية وجهود الطبيب اللبناني شميل تستحق الاحترام. وبسبب عدم الإحاطة التامة، أو سوء فهم للمادية التاريخية التي انتشرت وناضلت ضد المثالية الاشتراكية(اليتوبيا) Utopie ضمن ظروف الحملة المعادية للاشتراكية وشروط المثالية الدينية المتطرفة، لإعطاء أساس علمي، كانت المساعي الحثيثة للقبطي المصري سلامة موسى تستحق الذكر، والذي تابعته السلطات الاستعمارية البريطانية والرجعية المصرية بالدعاية لأفكار الوحدة والتحرر الوطني الاجتماعي و " أول تحليل لطبيعة الرأسمالية وأساليبها في الاستغلال وصيد الأرباح".(29)في مصر، ونشرت ووزعت في الأقطار العربية.

وهذه المآثر تسري أيضاً بدون شك على الأفكار الاشتراكية للمنصوري وحداد مع أنه كان دوراً خاصاً بين الاشتراكيين في ذلك الوقت. وبصورة مختلفة عن شميل وموسى اللذان كانا يعملان بجدية من خلال نشر أعمالها في شرح وإيضاح وتوسيع الأفكار الماركسية ـ اللينينية في شمال أفريقيا والشرق الأوسط، وهكذا نجح المنصوري بإيصال كتاب أنجلز " "تطور الاشتراكية من اليتوبيا إلى العلمية" و "تاريخ المذهب الاشتراكي" في عام 1915 الذي مثل أول محاولة لعرض القوانين الأساسية للماركسية وتاريخها في اللغة العربية.(30)

وإلى جانب ذلك قام معلمو المدرسة الثانوية في طوخ(مصر) بعمل ينطوي على الجرأة والشجاعة في ذروة العمل القومي بالدفاع عن الماركسية أمام اتهامات العناصر القومية بنفس الصفة الوطنية. وقد قام حداد وهو متأثر كثيراً بالحركة الاشتراكية في الولايات المتحدة الاميركية بقيادة ي. ديب E. Deb (بصرف النظر عن النوعية التي لا يرتقي لها الشك في فعالياته ودعايته ذات العمق للاشتراكية، وفعالياته السياسية المهمة التي بلغ شعاعها إلى أقطار المغرب).

ومن بين الاشتراكيين كان الشيخ العربي التفتازاني بدفاعه الذي لا هوادة فيه عن الأفكار الاشتراكية وهجمات الجماعات الإسلامية الرجعية، ولكن من خلال عجزه من التغلب على شكوكه حيال الحركة الثورية، تراجع عن مواقفه السياسية العملية المساندة للطبقة العاملة وتحول إلى مثقف منعزل.

وثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى وتأسيس الشيوعية الدولية والأحزاب الشيوعية في البلدان العربية هي التي تولت قيادة المرحلة الجديدة وفي نوعيتها في ذات الوقت في عملية تطور الأفكار الاشتراكية وهي بالدرجة الأولى اتصفت وتميزت بكون الأيديولوجية الماركسية اللينينية قد بدأت تشكل وعياً وتنظيماً داخل حركة التحرر. وفي هذا المجال يؤكد المستعرب الفرنسي جال بيرك Jacques Berque، " بأن حركة العمال البريطانيين كان لها دورها المهم لعبته في العلاقات بين المغرب، ومصر، وبلدان المتروبول، وكذلك في بناء القيادات الوطنية. فمنذ نهاية الحرب العالمية الأولى مارست الدولية الثالثة دوراً يتسم بالأهمية البالغة، فقدمت للقسم الأعظم من هذه الشعوب النموذج الفعال " وأنهم قد وضعوا الأساس من أجل أن تكون الماركسية ـ اللينينية والاشتراكية أكثر قبولاً للشعوب المسلمة وهي حقاً كذلك".(31)

إن انتصار الطبقة العاملة الروسية في أكتوبر / 1917 وكذلك الانتفاضة الثورية للبروليتاريات الأوربية الأخرى كانت تنطوي على شكل ملموس من توسع للأفكار الماركسية اللينينية وحركة التحرر العربية. وكان الجنود الجزائريون في الجيش الفرنسي قد قاموا خلال انتفاضة البحارة الفرنسيين عام 1919 في أوديسا، أو في خلال استخدامهم الارغامي ضد جمهورية الإنقاذ المجرية، وأقاموا الصلات مع ثوريين روس ومجريين.

وقد تعرف العرب الذين كانوا مرغمين على الخدمة في الجيش التركي، والذين كانوا في فترة أسرهم لدى الجيش الروسي، على الأفكار الثورية والماركسية اللينينية، وكان عدد كبير من المثقفين العرب والعمال الذين أقاموا وعاشوا في ألمانيا وعاصروا ثورة نوفمبر ـ تشرين الثاني مثل : حسين الرحال وهو من الشيوعيين العراقيين الأوائل ، وعند عودة هؤلاء إلى أوطانهم كانوا ينضمون إلى أية فعالية ثورية مع أبناء بلادهم بل ويكونون هم أبرز عناصر تلك الفعاليات الثورية وللبروليتاريا، وكانوا يستخدمون(بدرجات متفاوتة) الأفكار الماركسية اللينينية في مجرى ذلك النضال، وأن قسماً منهم قرر الانضمام إلى الخلايا الماركسية، بل أنهم في حالات عديدة قاموا بأنفسهم بتأسيسها (بعد ثورة أكتوبر) التي نهضت في الأقطار العربية. كما في الجزائر على سبيل المثال عام 1919. وفي غضون ذلك تطورت مجاميع وأحزاب البرجوازية الصغيرة الاشتراكية التي تأثرت بالأفكار الماركسية اللينينية، وهكذا تأسست عام 1922 على يد مثقفين لبنانيين تقدميين حلقة " الصحفي التائه" ومنها تأسس بعد بضعة سنوات حزب الشعب بمساهمة فعالة من الشخصية الاشتراكية آ. يعقوب.

وفي عام 1921 نجح الاشتراكيون المصريون(وبينهم سلامة موسى، وحسني العرابي) بتأسيس حزب الاشتراكيين المصريين، وشبيهاً له تأسس في العراق عام 1931 جماعة اشتراكية من البرجوازية الصغيرة باسم (جماعة الأهالي) ماركسيون وفابيون، متعاطفون مع الدولية الثانية واعتبروا أعضاء فيها.

وفي سنوات العشرينات والثلاثينات كانت قد نهضت أخيراً في أغلب الأقطار العربية الموجودة (من خلال عملية تنوير سياسية وأيديولوجية وتنظيمية معقدة) من منظمات اشتراكية ـ برجوازية صغيرة. وهنا وفقط بالإشارة إلى المقال الذي طرحه الحزب الاشتراكي المصري الذي تقدم بطلب الانتماء إلى الشيوعية الدولية عام 1922، وعندما تقدم الحزب الشيوعي المصري في نضاله ضمن حركة التحرر الوطنية.

خلق تأسيس الأحزاب الشيوعية في شمال أفريقيا والشرق الأوسط شروطاً جديدة من أجل تنظيم وتوسيع مطرد للتعاليم الماركسية اللينينية في حركة التحرر العربية. وسواء بتأثير التضحيات والآلام في النضال من أجل التحرر القومي والاجتماعي للشعوب العربية، التي نال بموجبها الاحترام والاعتراف بين صفوف الشغيلة، أو بواسطة العمل الأيديولوجي الذي ساهم فيه الشيوعيون العرب والتي بموجبها تمكنت الأفكار الماركسية اللينينية من ترسيخ مواقعها في صفوف الطبقة العاملة ضمن حركة التحرر، وفي هذا الوضع كان عملهم النظري والدعائي مهماً.

ومن خلال ترجمة الأعمال الكلاسيكية للماركسية اللينينية إلى اللغة العربية، ونشر العديد من الوثائق المهمة للحركة الشيوعية العالمية، وكذلك نشر أعمال لينين لاسيما : " الدولة والثورة" و " ماالعمل" و "اليساريون الراديكاليون"، و "مرض الطفولة الشيوعي" ودراستها، وكان كل ذلك في الظروف الصعبة والمعقدة يعد مساهمة رائعة من الشيوعيين العرب في الدعاية للأيديولوجية البروليتارية ضمن حركة التحرر.

إن الأعمال النظرية لممثلي الأحزاب الشيوعية العربية الأوائل(خالد بكداش، ونقولا الشاوي، ويوسف سلمان يوسف(فهد)) بصدد موضوعات مثل الشيوعية والوطنية، الإسلام أو المسألة القومية لم تمثل مواقف الشيوعيين إزاء مشكلات مهمة من حركة النضال التحرري الوطني والقومي بل وأكثر من ذلك، كونها مساهمة ثمينة لتطور الأفكار الماركسية اللينينية.
وفي هذا المجال ينبغي الإشارة أيضاً إلى فعاليات الشيوعيين العرب في النضال ضد الخطر الفاشي الداهم. وكمثال ساطع على ذلك، كان "مؤتمر مكافحة الفاشية" الذي عقد في بيروت للفترة من 6ـ8/ أيار ـ مايو / 1939 بمبادرة من الشيوعيين السوريين واللبنانيين. وأدار هذا اللقاء أنطوان ثابت رئيس عصبة مكافحة الفاشية والذي حضره أكثر من 200 من ممثلي المنظمات السياسية والنقابات والاتحادات الثقافية والرياضية. وقد أثبت هذا اللقاء بصورة مقنعة سياسة التحالفات الماركسية اللينينية للشيوعيين العرب.

وإلى جانب فرج الله الحلو وخالد بكداش، كان هناك أعداد كبيرة من وطنيين وقوميين سوريين ولبنانيين وممثلين لجماعات فكرية مختلفة من بينهم قريب للبطريك الماروني. وقد تلقى المؤتمر رسائل وإشارات مهمة من قادة الحركة الوطنية السورية مثل شكري القوتلي وناظم القدسي ولطفي الحفار وفائز الخوري وجمعية التمدن الإسلامية واتحاد المرأة السورية، وكذلك من الوطنيين والقوميين الليبيين الذين يعيشون في دمشق كلاجئين.

وأخيراً كانت الأعمال السياسية والفكرية للشيوعيين العرب التي يمكن وصفها بأنها أبرزت ممثلي البرجوازية العربية من القوميين، وبصفة خاصة المراكشيين : الفاسي، اليزيدي، الوزاني. والتونسي بورقيبة، وآخرين كانوا على صلة مع الأحزاب الشيوعية كالحزب الشيوعي الفرنسي، ومساهمة القائد المصري رمضان، والشاذلي خير الله أحد قادة الحزب الدستوري الذي كانت له مساهمته في العصبة المعادية للإمبريالية. ودون شك فإن هذه الظواهر شواهد على النفوذ المتزايد للأيديولوجية الماركسية اللينينية في حركة التحرر العربية في تلك الفترة.

ومما يستحق الملاحظة أن ذلك كان يمثل في نفس الوقت يمثل احتدام النضال الأيديولوجي في الأقطار العربية، إذ طرحت نفسها بوصفها واحدة من المركبات الجوهرية للحملة المحتشدة للقوى المعادية للشيوعية في مختلف الأشكال والألوان ضد النفوذ المتزايد للاشتراكية العلمية، وضد من يحمل هذه المعتقدات والمتعاطفين معها وبنفس الوقت شن هجمات مركزة، صعدت فيها قوى اليمين القومي وشخصيات روحية رجعية، ومروجين للأفكار الاستعمارية. وبصفة خاصة في هذا الوقت حيث كانت هناك قوى إصلاحية اشتراكية من جماعة الدولية الثانية، وكذلك في مطلع أعوام الثلاثينات إيديولوجيون فاشيون قد بدؤوا الهجوم على الأفكار الاشتراكية.
وتحت ظل هذه الظروف المعقدة سياسياً وأيديولوجياً، والتي كان من جملتها أيضاً مشكلات التطور للأحزاب الشيوعية العربية، اتخذ الاشتراكيون من البرجوازية الصغيرة موقفاً ينطوي على تناقض فائق للعادة، وعلى الرغم من المحاولات العديدة لتنظيم نفسها، وعلى الرغم من أنها في حالات كثيرة وبجهود ذاتية سعت للتقارب من الماركسية اللينينية وإعلان مواقفهم النظرية والسياسية، ولم تنجح أغلب القوى الاشتراكية- البرجوازية الصغيرة في تجنب اتخاذ المواقف من القضايا الحاسمة المعادية للشيوعية. وفي هذا المجال فإن مغادرة سلامة موسى وآخرين من الاشتراكيين غير الماركسيين للحزب الاشتراكي المصري عام 1922 عندما قدم الحزب (وقد مرّ ذلك) طلباً للانضمام إلى الشيوعية الدولية، وأيضاً الاشتراكي المصري عصام الدين حنفي ناصيف الذي كان متأثراً بعمق بالحركات الثورية في ألمانيا)، كان قد أكد تعاطفه وتأييده للأفكار الماركسية اللينينية، ولكنه لم ينجح أخيراً في أن يكون (اشتراكياً من الضمير) ونبذ تردده وقلة الثقة حيال الطبقة العاملة والتغلب على توجهات المثقفين لديه، والاشتراكي التونسي الترادنيوني(الترادنيونية حركة نقابية برجوازية - المترجم) وداعية حقوق المرأة طاهر حداد(32) الذي لم يكن بوسعه التميز والإدراك بشكل دقيق وفئوي، وليس هناك "بواعث لتبرير الصراع الطبقي".(33)

ومن أجل تمتين الروابط الأيديولوجية لأغلب الاشتراكيين من البرجوازية الصغيرة مقابل مبادئ الاشتراكية الإصلاحية والقوميين، والتناقضات السياسية / الأيديولوجية العميقة في منظماتهم، وفي تشتتهم (وفي ذلك يكفي أن نتذكر مصير جماعة الأهالي) ومهدت الطريق إلى ما يشبه التحام الحركة البرجوازية الصغيرة - الاشتراكية مع الجناح القومي في حركة التحرر القومية، وبرغم أن هذا ببطء وتؤدة من الصفات المميزة في حركة في حركة البرجوازية الصغيرة وكذلك في وجودها الذاتي والموضوعي وشروط وظروف الفاعلية والتأثير، وفي نفس الوقت ظل المصير الذي لا يمكن تفاديه كما هو ثابت، بأن الاشتراكية البرجوازية العربية الصغيرة كانت قد قامت بمحاولة للخروج من مواقفها المتناقضة من خلال أفكار الوحدة والاشتراكية داخل حركة التحرر وليس أخيراً من إدانتها بمعاداة الشيوعية، وباهتزاز الثقة مع الطبقة العاملة قد أدت إلى فشل تلك المحاولات. وهكذا كان الشيوعيون العرب في فعالياتهم الصعبة ذات التضحيات يقفون في الصفوف الأمامية للحركة الوطنية التحررية لشعوبهم وفي النضال الأيديولوجي المركب، وفي النضال المعادي للرأسمالية أقوى باستمرار وفي المقدمة اعتبار مصالح القوى غير البروليتارية.

هوامش الفصل الخامس

1. Lenin,W.I : Werke, Bd.5, Berlin 1959, S. 408

2. Lenin, W.I.,Werke, Bd.8, Berlin 1959, S. 206

3. حول نضال الأحزاب الشيوعية العربية، سنجده في مبحث لاحق

4. Marx, K, / Engels, F , : Werke, Bd, 21 : Berlin 1962, S. 305

5. Marx, K, /Engels, F, : Werke, Bd, 21, Berlin 1962, S. 305

6. Der Islam und der Prinzipien des Staates. Unttersuchung über Kalifat und Regierung im Islam. Von Ali Abdulrraziq(Aus züge) . In : Schacht, J. : Der Islam mit Ausschluß des Qorans. Tübingen 1931, S. 184. F.

7. Höpp, G, : Zur Rolle Internationaler Panislamoscher Organisation in der Befreiungsbewegung der arabischen Völker, In : Asien, Afrika, Lateinamerka 1969, S. 159, ff.

8. Marx, K,Engels, F : Werke, Bd, 1, Berlin 1961, S. 388

9. Robbe, M. : Nationalismus in Befreiungs- Kampf der Völker Asiens und Afrika in Deutsche Zeitschrift für Philosophie, Berlin, 6/1968, S. 750

10. Markov, W. : wege und Formen der Staatsbildung in Asein und Afrika seit dem zweiten weltkrieg(Thesen) in zeitschrift für Geschichtswissenschaft, Berlin 6L 1970, S. 728

11. Bruntenc, K, : Voprosy ideologii nationalno osvoboditez nomdvizennii. In : Kommunist, Moskva, 18/ 1466 , S. 38

12. Khouri, R. Position de la question national dans le monde arabe. In Abdel Malk. A. Lapensee Poliique arabe Contemporaine. Paris 1970, S. 95 f

*. هذه شهادة مهمة جداً تبرئ الحركة القومية العربية من الاتجاهات الظاهرة أو الكامنة العرقية منها أو الدينية الطائفية. المترجم

13. Markow, W : a.,a., o. S. 743

14. Hucri, C. , Al : Primute de i, arabisme. In : Abdsl Malek A : a. A. O. , S. 203

15. Ebeid, M., : Les Egyptiens sont des Arabes. In Abdel Malek . A : a., a., o., S. 206

16. Motagne, R., :Reaccion arabe contre le Sionismus (le Congre,s de Bloudane) . In Entretiens sur l,evolution des Pazs de civilisation arabe, Bd. Paris 1939, S. 47

17. Laissz, M, : Du Panaarabisme a la Ligue arabe, Paris 1948, S. 104 , F

18. Azzam, A.R. : La Ligue arabe et lmunite modial, In : Abdul Malik, A, a, a, o, S. 208

19. Moussa, S., : Intellectual Currentsin Egypten . In Middle Eastern Affairs, New York. 2/ 1951, S. 74

20 Moustafa, A.A. : مصطفى تاريخ الفكر السياسي في مصر الحديثة القاهرة 1971 ص74

21. Oriente Moderno, Rom, X11, S. 39.f

22. Lenin, W, I: Werke, Bd 30, Berlin 1969, S. 147

23. Lenin, W. I. : Werke Bd 31, Berlin 1959, S. 139

24. Lenin, W. I, : werke, Bd 20, Berlin 1961 : 415

25. Ebenda, S. 19f

26. Lenin, W. I. : Werke, Bd.15, Berlin, 1962. S. 216

27. Musa, S. : Ishtirakiyya, 1913, In Hanna, S. S. A. / Gardner, G. H. (eds) : Arab Socialism, Leiden 1969, S. 275

28. Musa, S. : Ishtirakiyya. 1913, In , Hanna; S A Gardner; G: H. Socialism, Leiden, S. 275

29. السعيد، رفعت : الفكر الاشتراكي المصري في مطلع القرن العشرين في الطليعة عدد 1968/10 القاهرة ص63

30. Levin, Z, I, : Socialisticeski idei na Arabskom Vostokev naeale xx veko, In : Narody Azii, Afrika, Moskva 5/ 1968, S. 65

31. Berque, J , : Islam et Sozialismus, In Revue de l, Institut Soziologie, Bruxelles, 1967, S. 202 f

32. نشر طاهر حداد عام 1930 كتابه الجدير بالاهتمام " امرأتنا في الشريعة والمجتمع" وهذا الكتاب من بين كتب أخرى طرحت بقوة قضية تحرر المرأة هي قضية اجتماعية أكثر مما هي قضية دينية، وقد منع الكتاب، وطرد مؤلفه من جامعة الزيتونة.

33. Haddad, T. : La Tunisie et la Socialisme. In : Adel Malek, A: a. A. O. , S. 238

الفصل السادس

التطور الثقافي وحركة التحرر الوطني والقومي في الأقطار العربية

تمهيد

1. النضال من أجل تعليم وطني.
2. التطور التقدمي للأدب.
3. عزلة المسرح ـ شعبية السينما.
4. اتجاهات التطور في الصحافة.
5. التحديث والقومية في الفنون التشكيلية.
6. الوطنية في الموسيقى.

إجمالي الفصل

تنـويه

بتقديري أن هذا الفصل لا يقل أهميـة عن الفصـل الـذي سبقه وهو عمل فريد من نوعـه، إذ لـم يسبق لمستشرق أن تكب بتحليل علمي التطور الثقافي والفني للبلاد العربية، ويربط محرر هذا الفصل الدكتور ديتر بيلمان التطورات الثقافية على نحو مفصل بين فروع الثقافة والفن، وعلاقة ذلك بـالتطور السياسـي والاقتصـادي والاجتمـاعي العـام الـذي شـهدته الأقطـار العربيـة والعلاقـة العضوية المباشرة للتطور الثقافي بين هذه الأقطار.

وغني عن القول أن الاختلاف في وجهات النظر ممكنة، بل هي التي ستمنح هذا الفصل وغيره الأهمية الثقافية المرجوة

المترجم

تمـهيد :

كانت اتجاهات التطور الثقافيـة الأساسية فـي المرحلـة من 1917 حتـى عـام 1945 قد أشـرت احتـدام المواجهـة بـين القـوى الطبقيـة الإقطاعيـة والبرجوازيـة. ومـن خـلال أول تقيـيم لمواقـع المحـافظين التـي رفضـت بتصـميم أي شـرط من شـروط التقدم الاجتمـاعي من خـلال التمسك بالأفكار التقليدية نلاحظ أن مساعي الشخصيات الممثلـة للبرجوازيـة كانـت من خـلال إنكـار، أو تجاهل للتقاليد وفرض الأفكـار الليبراليـة علـى عمليـات التحـديث، وفـرض الحداثـة فـي الثقافـة ومنحها طابع الثقافة الرأسمالية للغرب، محاولـة تحرير التيـارات الرئيسـية من أغلال الأفكـار الإقطاعية.

ولكن كان الاستناد الجزئي التبعي العبودي على التنظيرات الثقافية والسياسة التي قد حكم عليهـا بالأفول السياسي عالمياً من جهة، ومن جهة أخرى فقد حجب العديد من المنظرين البرجـوازيين العـرب عـن وعـي شـعوبهم لـيس فقـط الأزمـة الرأسـمالية العامـة فحسـب، بـل أن تأثيراتهـا الموضوعية تمثلت إلى جانب ذلك مـا اتضـح بصـورة جليـة فـي المجـال السياسـي مـن اتجاهـات صدام معادية للإمبريالية للحركة القومية في قطاع الثقافة بصورة مبكرة.

وقد صورت القوى الاستعمارية الاتجاهات الموالية لها بعد ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى، إذ بـذلت جهـوداً كبيـرة فـي زراعـة ورعايـة النظريـات الثقافيـة البرجوازيـة فـي العـالم العربـي واستخدامها للوقوف بوجه الفئات التي تخوض النضال التحرري.

وقد اشـتد انتشـار الحركـة الاشـتراكية التـي كانـت تـدور ببطء تحـت تـأثير أفكـار ثـورة أكتـوبر الاشتراكية العظمى، وحملتها مع التيارات الأيديولوجية الرئيسية، وفي هذا تمكنـت مـن الوقـوف في المجال الثقافي أن تتطور ببطء ويكمن السبب في ذلك على الأغلب في القوى الإقطاعيـة والبرجوازية المسيطرة وتجسيدهم الثقافة المهيمنة وفي مواقع السلطة الإقطاعية.

وقد اصطدمت بقوة بشعارات (القديم) و(الجديد) من التيارات الثقافية فـي مصـر، فيمـا كـان قـادة القوى الإقطاعية ومن بينهم مصطفى صـادق الرفـاعي الـذي دخـل ميـدان المعركـة بكتابـه الـذي صـدر عـام 1926 (تحـت رايـة القرآن) إلـى المعركـة التـي كانـت " كمعركـة بـين هـؤلاء الـذين يدافعون عن الدين وعن لغتهم وعن تقاليدهم وبين الذين كـانوا قد عـادوا مـن أوربـا وقد مسـهم سحر تقدمها".(1)

وطرح الرفاعي الذي كان يمثل بصفة حاسمة ضد (الجديد)، منتقداً القوى البرجوازية "التي تريد أن تهدم الأمة في لغتها وأدبها" وانبرى للدفاع عن الإسلام ضد "الحضارة الغربية" وبذلك فقد أسس موقعاً تدير منه قوى الإقطاع والرجعية البرجوازية المعركة ضد التطور الثقافي التقدمي.

وكان نقد القوى الرجعية الإقطاعية للقوى البرجوازية موجه ضد اتخاذ واستلام أشكال الظواهر للثقافة البرجوازية الرأسمالية، هكذا انتقد مصطفى لطفي المنفلوطي الأعراف والتقاليد والروحانيات في ثقافة الحضارة العربية، ولكنه انتقد أيضاً الإباحية والمجون في محلات الرقص وفق أنماط الثقافة الغربية.(2) ووقف محمد توفيق ضد الرقص الأوربي الذي كان يرى فيه:" أنه ينطوي على إثارة جنسية عميقة".(3)

وكانت الأشكال(الأنماط) الحضارية للثقافة الأوربية الغربية التي وجدتها القوى الطبقية الإقطاعية بالمقارنة مع الثقافة العربية ـ الإسلامية، في ملاحظات أوردها المنفلوطي في مقالة له بعنوان "الحضارة الغربية" معبراً عن ذلك كما يلي:" نحن نطالبهم(الأوربيين) وندعوهم إلى ثقافة ونعطيهم مثالاً على ذلك عن ثقافة بغداد، قرطبة، طيبة، فينيقيا، ولكن ليس ثقافة باريس وروما وسويسرا ونيويورك، نحن نطالبهم بخصال حميدة، نبيلة، ومن أجل ذلك فإننا نذكر لهم آيات أرسلها الله وكتب وأحاديث وأعمال وحكمة الرسول وليس أحاديث روسو وباكو، نيوتن، سبنسر، نحن نذكر لهم في الحرب خالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص، وموسى بن نصير، وصلاح الدين الأيوبي، دعهم يتنازلون عن تاريخ نابليون وويلغنتون، واشنطن، نيلسون، أو بلوخر".(4)

وكان هدف هذه الهجمات الرجعية لقوى الإقطاع هو ضد انتشار الأعمال الثقافية للبلدان الرأسمالية، وكانت تهدف إلى تقوية مواقعهم الطبقية بمساعدة مواقف وتطورات الثقافة السياسية التي كانت تطرحها تطور علاقات الإنتاج الرأسمالية.

وكان ممثلو البرجوازية الوطنية يقفون على العكس من ذلك، أمثال: طه حسين وسلامة موسى، موقفاً ليبرالياً بشعاراتهم: الحرية والشخصانية، حرية الصحافة، البرلمانية.. إلخ ويمثلون قوة ثقافة النضال المعادي للاستعمار، التي نشرت كمقالات في عام 1925 وعام 1926 .(6)

وعمل سلامة موسى بالثقافة البرجوازية الأوربية ـ الأمريكية، التي اعتبرها كبديل للثقافة الشرقية للعرب والتي رأى فيها وفي مكوناتها الجوهرية ثقافة (جديدة)وقد نادى بالتوجه إلى أوربا لإيجاد المخرج الوحيد من التخلف الاجتماعي والثقافي الأدبي، وطالب المصريين "بإقامة الصلات مع أوروبا وقطعها مع آسيا"، بقوله "لنجعل لأنفسنا من ثقافة الأوربيين وتعليمهم عادة لنا، لنرتدي ما يرتدون من ملابس ونأكل من طعامهم، ونتبع أساليبهم في الحكم، العائلة، المجتمع، الصناعة، الزراعة". (6)

ويكمن الفرق بين الثقافة(الشرقية) و(الغربية) بصفة رئيسية بحسب رأي سلامة موسى في أن حضارة الشرق هي ثقافة زراعة، بينما ثقافة الغرب أصبحت وتكونت صناعية، وقد اعتقد أن ذلك هو كل السبب في تخلف الشرق وتقدم الغرب، كما أن حضارة الزراعة في الشرق تشترط وتتطلب أدباً روحياً، في حين تطرح الثقافة الصناعية(الغربية)بالمقابل ثقافة علمية ـ تكنيكية.

ووجهة نظر مفكري البرجوازية مخالفة للاستعمار، وكان سلامة موسى يعتبر إشكالات الثقافة بأنها انطلقت من التناقضات التي تكتنف عملية التطور الاجتماعي والاقتصادي، وكانت تحمل شكل الظواهر والنتائج الجانبية للثقافة الرأسمالية بصورة براغماتية إلى الأقطار العربية ولفت الخاصية الطبقية للثقافة .

كما كان طه حسين أيضاً يمثل مساعي البرجوازية العربية في الصراع بين القديم والجديد، مساهماً فيها بصورة مباشرة. وكان طه حسين الذي ولد في مصر العليا، وأصبح كاتباً وعالماً مهماً قد أنهى دراسته الاجتماعية حول ابن خلدون، وقام بعد عودته بإلقاء محاضرات في الآثار الثقافية اليونانية القديمة والرومانية التي ألقاها في الجامعات المصرية، وبعد ذلك بقليل حاول بنظريته الشاملة حول عموم "تاريخ الثقافة الأوربية" أن يعرض قادة الفكر، وفي عام 1925 استلم كرسي الأستاذية للأدب العربي في الجامعة المصرية. وكان (الجديد) بالنسبة لطه حسين يتمثل قبل كل شيء بتبني أساليب جديدة بتجاوز التخلف الثقافي، وتوجد هذه الأساليب حسب اعتقاده في الثقافة الأوربية الغربية التي يراها هو كما نراها نحن كنموذج لا سيما فيما يخص عملية التربية الوطنية.

وفي دراسته التي ظهرت عام 1925(في الشعر الجاهلي) حيث بحث بالأساليب التاريخية إيصال شعر ما قبل الإسلام، ثم توصل إلى خاتمة تفيد بأن النظر إلى القرآن بوصف أقدم أثر أدبي لدى العرب، وأن مجموع الشعر العربي في مرحلة ما قبل الإسلام من الشعر القديم، هي ولأسباب عديدة مبتكرة في وقت لاحق. وقد سبب هذا الرأي لدى قادة الطبقات الإقطاعية عاصفة من الاستياء والاستنكار، وقد رأى البعض بأنه هجوم على الإسلام على الرغم من أن المؤلف (طه حسين)كان قد أكد بأن القرآن يمثل"المصدر الوحيد لمعرفة حياة العرب قبل الإسلام".

وتحت ضغط القوى الطبقية الإقطاعية وجد طه حسين نفسه مرغماً عام 1929على عمل جديد قام بتأليفه في "الأدب الجاهلي" حول أدب ما قبل الإسلام. وفي عام 1929 أصبح عميداً لكلية الفلسفة في الجامعة المصرية، وفي عام 1932 نجحت القوة الرجعية في إبعاده عن الجامعة(بسبب قيامه بالتحضير لعمل تضليلي حول القرآن)، وفي غضون ذلك كانت الأزمة الاقتصادية العالمية قد جعلت من المفكرين البرجوازيين العرب ينظرون نظرة شك وارتياب إلى مسألة التكامل مع المخطط(المنهج) الثقافي للغرب، وهنا كانت الاشتراكية بالنسبة لهم بعيدة عن احتمالات اعتمادها، وحاولوا في حالة من فقدان الوعي إيجاد المخرج بالاعتماد على القيم الثقافية الإسلامية، وهذه الاتجاهات عبرت عن نفسها بوضوح في الأدب من خلال نصوص أدبية مثل: "محمد" لتوفيق الحكيم، و "على هامش السيرة " لطه حسين، و "حياة محمد" لمحمد حسين هيكل، كان لها أهميتها.

ولكن حتى هذه الغيبوبة في الوعي والعودة إلى الإسلام لم تؤد إلى الخروج من بؤس الثقافة، ولم تكن في وضع يتيح لها أن تتطور إلى ثقافة عربية تقدمية وطنية، وهذه أدت إلى ذلك التوجه (بصورة غير محدودة) إلى الثقافة الرأسمالية للاستعمار وعقد صفقات توفيقية برجوازية.

وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية، كان ممثلو الثقافة الغربية يرون (على سبيل المثال) أن طه حسين هو مستقبل الثقافة في مصر، ليس في مثالية الثقافة البرجوازية في أوربا الغربية وأميركا، بل على الأرجح في أخذ أساليب خلق ثقافة قومية مستقلة.

أولاً: النضال من أجل نظام تعليم وطني

حاول الاستعمار كما لم يحدث في أي مجال من مجالات الثقافة مد وتطبيق نفوذه في مجال التعليم، وكانت هناك مدارس للبعثات التبشيرية المسيحية ومدارس أجنبية خاصة(7) وكذلك مؤسسات تعليمية استعمارية أخرى ولا سيما في مجال التعليم العالي(كما على سبيل المثال جامعة سانت جوزيف في بيروت منذ 1881)، الجامعة الأمريكية في بيروت 1805، والجامعة الأمريكية في القاهرة عام 1920، وقد أقيمت هذه المؤسسات من أجل تأمين السيادة الثقافية للاستعمار، ومن أجل إعاقة تطور الثقافة القومية، ونظم تعليم وطنية، وكذلك من خلال إبداء الاستعداد بتقديم مقاعد دراسية في الجامعات الأوربية والأمريكية لأبناء البرجوازية الوطنية، وكانت القوى الإقطاعية تسعى أيضاً إلى التعليم والثقافة، وكانوا يمثلون مصالح القوى الاستعمارية في البلدان العربية، وقام الاستعمار بذلك يداً بيد مع البرجوازية الوطنية التي كانت على حساب الدولة وقيام الاستثمارات الخاصة والبنوك، وعلى سبيل المثال: بنك مصر، في إيفاده للطلاب للدراسة في الدول الاستعمارية.

وكان الشكل الأكثر اتساعاً في النظام التدريسي البسيط بعد نهاية الحرب قد تمثل في الدروس التي تلقى في الجوامع لدراسة القرآن، والذي استمر طوال القرن التاسع عشر، والذي لم يعد كافياً للمتطلبات الحديثة وكمثال على ذلك، فإن الحكومة المصرية كانت قد وضعت عام 1839 نظاماً لإدارة التعليم، وكان التعليم الوطني يتمثل بالتعليم الإسلامي العالي مثل جامعة الأزهر في القاهرة التي تأسست عام 972 , وجامعة القيروان تأسست عام 1283 والمدرسة الإسلامية في النجف(العراق).

وكان تطور نظم التعليم الوطني يسير في المقارنة قبل كل شيء في الأقطار التي كانت فيها البرجوازية الوطنية قد احتلت مواقع سياسية، وهنا أظهرت جهود القوى البرجوازية نفسها بقوة في نفوذ المؤسسة الدينية الإسلامية في نظام التعليم ووضعها تحت سيطرة الدولة. أما فيما يخص الدراسة في المدارس الابتدائية والمتوسطة، فإن نظام التعليم البرجوازي بدأ بالعمل في رغم مقاومة قوى الإقطاع والرجعية والقوى الدينية ولا يمكن الحديث عن نظام تعليمي عام، فقد كان هناك أكثر من 90% من السكان البالغين في حالة الأمية، كما كان إعداد المدارس الابتدائية والمتوسطة ينمو ببطء.

ففي سوريا مثلاً: كان يوجد في عام 1944/1943 ما مجموعه 592 مدرسة ابتدائية و13 ثانوية. وكان زمن الدراسة في المدارس الابتدائية لا يتجاوز السنتين، أما في الجزائر فقد كانت السلطات الاستعمارية الفرنسية قد أسست عام 1892 أنظمة تعليم منفصلة للجزائريين والمستوطنين الأوربيين، فكان الجزائريون يتلقون تعليماً مهنياً يدوياً فقط بالإضافة إلى الزراعة والدروس الدينية الإسلامية، وفي عام 1944 كان ما لا يقل عن 90% من أطفال المستعمرين الفرنسيين في الجزائر مسجلين في المدارس الابتدائية والثانوية وعددهم 122 ألف طالب مقابل 8% فقط من الأطفال الجزائريين يتمتعون بالنظام التعليمي وبلغ عددهم 130 ألف طالب.

وقد أقام النظام التعليمي العالي الوطني مؤسسات هامة مثل: جامعة القاهرة، جامعة دمشق، جامعة الإسكندرية، جامعة الجزائر(تأسست عام 1906بصرف النظر عن وقوعها تحت النفوذ الفرنسي بصفة تامة)، أما المؤسسة التي أقيمت في مصر عام 1908 بواسطة القطاع الخاص باسم الجامعة المصرية، فقد خضعت للتأميم عام 1925، وكذلك المعهد العالي الذي كان قد

تأسس عام 1820، فقد جرى تحويله عام 1935 إلى كلية التجارة، وكلية البيطرة التي تأسست عام 1827. وقد افتتح عام 1942 في الإسكندرية الجامعة الحكومية الثانية.

وفي دمشق تأسست الجامعة السورية عام 1923، وقد انبثقت من كلية الطب التي كانت قد تأسست عام 1903، وكلية الحقوق التي تأسست عام 1913. وفي العراق كانت مدرسة الحقوق قد تأسست عام 1908 وقد أعيد تنظيمها بعد الاستقلال، ووضعت عام 1919 بإدارة وزارتي العدل والتربية. وإلى جانب هذه المؤسسات التعليمية الحكومية، تأسست عام 1923 دار المعلمين العالية، وفي 1927 الكلية الطبية الملكية وفي عام 1942 المعهد الهندسي العالي.

وكانت السلطات الاستعمارية تضع العوائق والحواجز أما نهوض نظام تعليم وطني، أظهرت على سبيل المثال موافقتها على انتماء جزائريين إلى جامعة الجزائر، وقد تصاعد أعداد الطلبة الجزائريين من 1، 6% عام 1913 إلى 3، 9% عام 1946 فقط !

وقد مثل تأسيس جامعات وكليات ومعاهد وطنية خطوة مهمة في خلق نظام تعليمي وطني، و لعبت هذه المعاهد الدور الكبير ليس فقط في تطور العلوم والثقافة، بل أنها استعادت أهميتها الوطنية والقومية من خلال الإسهام النشيط في النضال التحرري، كما كانت تظاهرات الطلبة في القاهرة ودمشق في العشرينات والثلاثينات التعبير الواضح في هذا المجال.

وسواء في المدارس الابتدائية والثانوية أو في الكليات، فقد نجحت القوى البرجوازية التقدمية في طرد نفوذ الرجعية بصورة تامة، وهكذا سعى طه حسين منذ تعينه بمنصب عميد كلية الفلسفة في الجامعة المصرية عام 1925 إلى تأكيد استقلال نظام التعليم عن جامعة الأزهر الإسلامية، وهو هدف لم يتم بلوغه حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية، وفي عام 1939 طرح مشروعه "مستقبل الثقافة في مصر" ويتضمن مشروعاً ومخططاً للتعليم والدراسات والثقافة الدينية، وكانت البرجوازية الوطنية قد وقعت اتفاقاً مع بريطانيا عام 1936 بموجبه.

وكانت تصورات طه حسين تسير في ثلاثة اتجاهات:

- يتعين على مصر أن تأخذ بأساليب الثقافة والتعليم الأوربي.
- وبمساعدة الوطنيين، ينبغي العثور على شكل تعليمي حكومي بعيد عن نفوذ الدين وتأثيراته.
- ينبغي تحديث اللغة العربية كمقدمة لنظام تعليمي منتظم.

وقد مكن النجاح في خلق نظام تعليمي القوى البرجوازية الوطنية في نضالها الدائم ضد الاستعمار من خلال تنظيم قانوني، كما على سبيل المثال قانون محو الأمية في سوريا عام 1930، وفي مصر 1944 والذي لم يكن بالإمكان تحقيقه، ولكنه كان مهماً في تشخيص الواجبات في المستقبل، كما أن القوانين المشرعة في مصر كانت على سبيل المثال هي التدريس المجاني لكل شخص أمي(يجهل القراءة والكتابة) في السن بين 45/22. وكان ساطع الحصري في سوريا قبل ذلك قد حاول عام 1920 بوصفه وزيراً للتربية، أن يضع الأسس لسياسة تعليم وطنية قومية مستقلة عن الاستعمار، وما نجح في خلقه لاحقاً في تنظيم قانوني (على سبيل المثال القانون الأساسي لعام 1935) قد شمل أكثر مما هو للعلاقات التنظيمية إلى ما هو مبادئ تعليمية. وقد سمى الدستور السوري لعام 1930 أهداف هذه الاتجاهات بصورة عامة" رفع المستوى المعنوي والعلمي للمواطنين" و " التربية بالروح الوطنية". ولم يكن ممكناً قبل حلول عام 1944 صياغة الأهداف في قانون التعليم، التي كانت واضحة ضد إشراف الإمبريالية

وهيمنتها. وكان تدريب وتعليم جيل شاب يحب الوطن، فخور بقوميته، ومستعد لخدمته بقواه الروحية والجسدية من صلب أهداف التربية والتعليم.(8)

وبرغم هذا النجاح لم يكن هناك وحتى بداية الحرب العالمية الثانية في الأقطار العربية تخطيط تعليمي مكرس بوضوح ضد السياسة التعليمية الاستعمارية، يحدد بوضوح امتيازات التعليم بين البرجوازية الوطنية والقوى الطبقية الإقطاعية، وكان مجموع مؤسسات التعليم (مع التفاوت من قطر عربي لآخر)، كانت تحت سيطرة ونفوذ الاستعمار.

وكانت المشكلة المركزية تتمثل في آثار سياسة التتريك التي اتبعتها الإمبراطورية العثمانية، كما أن اللغة التركية كانت حتى عام 1918 هي لغة الإدارة الرسمية فيها (9)، وقد حاول الاستعمار الفرنسي والبريطاني بمختلف الأساليب استبعاد اللغة العربية، ففي الجزائر حيث اعتبرت اللغة الفرنسية هي اللغة الأم، ومنعت اللغة العربية كلغة رسمية، وكان لهذا المنع أصداؤه في اللغة الشعبية وفي أواسط أعوام العشرينات، اتفق علماء الدين المسلمين على إقامة "جمعية العلماء الجزائريين المصلحين" وطالبوا بتأسيس مدارس ابتدائية وطنية، وتوسيع دراسة اللغة العربية، وفي سوريا ولبنان حاول المستعمرون الفرنسيون إبدال اللغة العربية باللغة الفرنسية.

وقد نجحت البرجوازية الوطنية في سوريا عام 1945 بإخراج اللغة الفرنسية من المدارس الابتدائية وإدخالها في المدارس الثانوية كلغة أجنبية مع اللغة الإنكليزية، وكان المستعمرون قد طالبوا وحاولوا قبل كل شيء إحلال اللهجات العربية المحلية كوسيلة لسياستها في التجزئة والتفريق، وحاولت إحلال الكتابة بالحروف اللاتينية بدلاً من الكتابة بالحروف العربية.(10) ولكن برغم هذه المحاولات فقد بقيت اللغة العربية هي لغة الشعب.

وبعد التحرر من السيادة الأجنبية التركية كان على اللغة العربية أن تتلاءم مع الظروف والعلاقات الاجتماعية الجديدة، كما أن التواصل في التقدم العلمي التكنيكي كان يؤدي إلى تناقضات بين الطبقات البرجوازية والإقطاع، وقد ظهر ذلك بوضوح في مطالبة المتطرفين من المصلحين اللغويين من البرجوازية(بدعم من المستعمرين) في بذل محاولات تهدف إلى كتابة اللغة العربية بحروف لاتينية(11)، ومن جهة أخرى كانت القوى الإقطاعية بالمقابل تحاول الحفاظ اللغة العربية الكلاسيكية، وقد أبرزت السياسة الاستعمارية نظريات لغوية ترفع اللهجات المحلية إلى مرتبة اللغة الوطنية، وبذلك كانت تزيد من تعقيد المشكلة.

ومن أجل حل إشكاليات اللغة تأسس في دمشق عام 1919(المجمع العلمي العربي)، وكان لهم في الحياة الثقافية السورية دوراً مهماً، وكانت إقامتهم للاحتفالات لتكريم شعراء قوميين، وأدباء وعلماء من بين أهم الفعاليات الثقافية، وأعطت دفعاً قوياً لتطور الثقافة الوطنية المعادية للاستعمار، وكان الاحتفال التكريمي للشاعر المصري أحمد شوقي 1925–1932 وكذلك الاحتفال بمرور ألف عام على وفاة الشاعر المتنبي 1936، والاحتفال بمناسبة مرور ألف عام على ميلاد الشاعر والفيلسوف أبي العلاء المعري من التظاهرات المليئة بالتعابير ضد السياسة الثقافية للإمبريالية في الشرق الأوسط.

وقد أدت فعاليات الأكاديمية العربية(المجمع العلمي العربي) إلى تأسيس المكتبة القومية عام 1919، حيث تأسست مكتبة الظاهرية(دار الكتب الظاهرية) التي كانت حتى الآن تحت سلطة الأوقاف وقررت الجمعية منذ تأسيسها العمل للسيطرة على الآثار العربية لعصور ما قبل الإسلام، ووضعها تحت السيطرة الوطنية. وفي النضال ضد سلطات الانتداب الفرنسية،

استطاعوا تحقيق بعض النجاحات التي تمثلت عام 1937 بتأسيس المتحف الوطني السوري، وقد مارس هذا المتحف منذ ذلك الوقت السيطرة على الحفريات الأثرية في سوريا.

وفي مصر تأسس عام 1932 مجمع اللغة العربية، وبسبب الاتجاهات العلمية الحديثة للبرجوازية في السنوات الأولى من تأسيسه لم يكن ذو فاعلية ملموسة كما في الأكاديمية العربية السورية، وكانت كلتا المؤسستان تعملان على وضع الأسس لحل مشكلات اللغة والتصدي للسياسة الثقافية للقوى الاستعمارية.

ثانياً : التطور التقدمي للأدب

أدى التناقض بين الحركة القومية العربية والتحديثية الإسلامية بالدرجة الأولى في الشعر والشكل التقليدي للأدب العربي إلى صراع حاد، وكان الشعراء البرجوازيون الذين تعرفوا على الاتجاهات الأدبية البرجوازية بعد الكلاسيكية في أوربا وأميركا، مثل الرومانتيكية والواقعية البرجوازية أو الرمزية، قد حاولوا إحلال هذه الاتجاهات في الشعر العربي، وبالنسبة لهم كانت القواعد الكلاسيكية للشعر العربي ضيقة جداً، كذلك فقد كان (كما على سبيل المثال اللبناني المقيم في القاهرة خليل مطران، قليلاً ما يلتزم بالشعر التقليدي في المحتوى والشكل).

وقد اصطدم الأدباء البرجوازيون بمقاومة شديدة من الشعراء التقليديين الذين كانوا يمثلون القوى الإقطاعية(كما على سبيل المصري محمد عبد المطلب) الذين رفضوا التحولات بصفة حاسمة، ولكن الشعر بدأ بالتخلص والانفصال عن جمود وغرابة القرون القديمة، ووجدت الأحداث السياسية والثورية انعكاسها في أعمال العديد من الشعراء العرب.

وكتب الشاعر المصري قصيدة عن التظاهرات التي قامت بها النساء ضد الاستعمار البريطاني عام 1919 في القاهرة، وغنّى (أمير الشعراء) أحمد شوقي "لشجاعة المرأة التي من خلالها جددت مصر شهرتها"(12). وكان سعد زغلول قد أصبح بطلاً لحركة التحرر لدى الكثير من الشعراء ليس في مصر وحدها.

وفي العراق انعكست النضالات الثورية لا سيما انتفاضة 1920 في شعر جميل صدقي الزهاوي، معروف الرصافي، خيري الهنداوي، محمد مهدي الجواهري، أحمد الصافي النجفي، وفي سوريا كان موقف شعراء أمثال: محمد بزم، خليل مردم، بدوي الجبل، خير الدين الزركلي، المؤيد والمساند للنضال المعادي للاستعمار وكتبوا ولا سيما في النضال الثوري لعام 1925 الكثير من الشعر، وفي لبنان، كان بشارة الخوري(الأخطل الصغير) يهاجم الاستعمار. وفي مراكش كان موقف علال الفاسي المعادي للسياسة الاستعمارية، وفي ليبيا كان كذلك سليمان البارودي، وفي تونس أبو القاسم الشابي الذي سطر آماله في حياة حرة في "نشيد الإكبار"، وفي الجزائر تنادى عبد الحميد باديس ورمضان حمود ومحمد سعيد الزهيري/ مفيد زكريا، أبو اليقظان وآخرين، وحرضوا للحماسة في النضال ضد الاضطهاد الاستعماري الفرنسي.

ولم يكن فضل الترجمة إلا قليلاً في تشكل وتكون شعر برجوازي حديث، فقد نشرت أشعار وأعمال لشعراء أوربيين وأمريكان في مختلف العصور. وإلى جانب الشعراء والمفكرين الفرنسيين والألمان(على سبيل المثال: فولتير، لامارتين، غوتة(فاوست ـ الديوان الشرقي)، هاينة(كتاب الأغاني)، وشعراء إنكليز وأمريكان مثل: بايرون، ميلتون، مور، الذين أثّروا كثيراً على جيل الشباب من الشعراء العرب.

وفي عام 1921 نشر الكاتب المصري عباس محمود العقاد وإبراهيم المازني(الديوان) الذي إلى جانب الاتحاد العضوي للشعر، عرضوا الاستقامة والإخلاص والأصالة، الأمر الذي كان شاغلهم اليومي من أحداث ومواضيع في حياة الشعب. وكان الديوان يعبر عن المساعي التقدمية للقوى البرجوازية الوطنية، كما أثرت لاحقاً بمدرسة أبولو(جماعة أبولو) التي أسسها أحمد زكي أبو شادي عام 1932 في مصر والتي انضم إليها شعراء معروفون مثل إبراهيم ناجي، علي محمود طه، وأصدرت هذه المدرسة مجلة أدبية باسم (أبولو) التي دعت إلى الكف عن قصيدة

القافية، أو تنويعها وتبسيط لغة الشعراء، وقد قاد أبو شادي هنا ما يسمى بالشعر الحر في الأدب العربي.

ومثّل الناقد محمد مندور عام 1939 وجه النظر بأن الديوان ومدرسة أبولو قد أصبح شيئاً قديماً، ويجب تغيره إلى ما يسمى بالشعر المهموس، وهذا الشعر ينبغي أن يكون مرتبطاً بشدة مع الحياة وبعيداً عن البلاغة والعبارات المنمقة، كما استفاد بقوة مما يسمى (شعر المهجر) وأشعار العرب الذين يعيشون في المهجر، وكان شعراء المهجر قد تأثروا بالثقافة البرجوازية الرأسمالية، وكانوا في أشعارهم يعبرون بالدرجة الأولى عن المذهب الفردي Individuallism، وعملوا على إظهار شكل جديد للشعر يسمى بالشعر المنثور، وكان هذا تبدلاً في الوطن العربي من خلال استبدال القافية وتنوع الإيقاع واستخدام المرونة، ويعتبر الشاعر أمين الريحاني الذي يعيش في الولايات المتحدة الأمريكية أول من مهّد الطريق لهذا النمط من الشعر.

وفي أدب النثر تطورت القصة القصيرة والرواية إلى نمط يتبع الأدب البرجوازي العربي، وقد انتشرت الصحافة بسرعة، ولم يكن ذلك بدون تأثيراته الجوهرية التي كانت لها في الأدب الكلاسيكي العربي مجهولة التابعية كانت قد وجدت مثالها الذي يحتذى به في الرومانسية الفرنسية والإنكليزية، وفي القصة القصيرة للقرن التاسع عشر والعشرين. ومن خلال الكثير من الأعمال التي نُقلت إلى اللغة العربية مثل: بلزاك، هوغو، موباسان، غوستاف فلوبير، أوسكار وايلد. وكانت ثورة أكتوبر الاشتراكية قد تسببت في بروز وتضاعف الاهتمام بالأدب الروسي كنتيجة لذلك. فكانت أعمال: تولستوي، تورغينيف، غوغول، بوشكين، تشيخوف، ديستوفسكي، قد أصبحت معروفة وأمثلة بارزة للكثير من الكتاب العرب التقدميين. فقد ترجمت رواية المعطف لغوغول إلى العربية وكذلك الأم لمكسيم غوركي(ترجمها عام 1934 إلى العربية العراقي ذوالنون أيوب) وترجمة آلام فرتر لغوتة الذي اعتبر في وقته مثال الأعمال الكلاسيكية.

وقد تسرب من خلال الحشد الكبير من الأدب الذي ترجم إلى العربية أدب روائي رخيص من المجتمعات الرأسمالية لغرب أوربا وأميركا، عكست التناقضات التي تكتنف المجتمع الرأسمالي باتجاهات أدبية مختلفة(التاريخية، النفسية، وأخرى...) سرت تلك إلى الأدب العربي أيضاً.

وكان من أهم كتاب أدب النثر العربي الحديث من مصر: محمود تيمور، (الأطلال)، إبراهيم المازني(صندوق الدنيا)، حسين هيكل(محمد)، طه حسين(الأيام)، عباس محمود العقاد(مطالعات)، توفيق الحكيم (عودة الروح) و(يوميات نائب في الأرياف) عيسى عبيد (ثريا)، محمد طاهر لاشين(سخرية الناي)، ومن لبنان: جبران خليل جبران(النبي) و (العاصفة) وميخائيل نعيمة (أبناء وبنون)، ومن سوريا: فؤاد الشايب (الشرق شرق)، محمد النجار (قصور دمشق) ونسيب الاختيار(عودة المسيح)، ومن العراق: محمود السيد أحمد(مصير الضعفاء)، وذنون أيوب (الكادحون)، عبد الحق فاضل(المجنونان) وعبد المجيد لطفي(قلب الأم).

وبموجب مؤشرات عديدة فقد تميزت أعمال الكتاب البرجوازيون عن تلك التقليدية والإقطاعية، لكن دون أن تتقدم بالبديل الاجتماعي، وقد اتسع تدريجياً المذهب الفردي للمثاليين من كتاب البرجوازية الصاعدة. وبينما كان طه حسين مثلاً في أعماله الأولى(الأيام - 1926) قد واجه الفردية فقط بالمشكلات الاجتماعية، دخلت فيما بعد العائلات البرجوازية في قلب التغيرات الاجتماعية، وقد عكست رواية شجرة البؤس 1944 تاريخ ثلاثة أجيال لعائلة برجوازية مصرية صغيرة وجدت نفسها في نزاع لا خلاص منه بين التقاليد وبين التقدم الاجتماعي، وينبغي أن يتحمل هذا النزاع ذو النتائج والآثار الخطيرة أبطال الأجيال الثلاثة، وقد أدينوا

كالملعونين بالجحيم أن يتذوقوا الثمرة المرة لهذا الوضع(من شجرة الزقوم)، إن الوضع البائس للبرجوازية الوطنية والقوى الإقطاعية هنا واضح في هذا النمط الأدبي.

ثالثاً : عزلة المسرح ـ شعبية السينما

وضعت البرجوازية جهودها بعد الحر العالمية الأولى من أجل خلق مسرحها العربي الخاص بها وبأدبها الدرامي، وكان ذلك لا ينطوي إلا على صلة نادرة بالتقاليد العربية(المقامات) وفي تمثيل الاستشهاد عند الشيعة أو مسرح الظل، بل أنها تستلم نموذجها بصورة رئيسية من الدراما البرجوازية الأوربية، وبذلك بقي المسرح العربي في عزلة عن الجمهور العريض.

وكان مارون نقاش(لبناني) قد شكّل في أواسط القرن التاسع عشر جماعة تمثيل من مجموعة من عشاق المسرح، وبقطع مسرحية مثل(البخيل) التي ترتبط بشكل دقيق بالمثال الأوربي، تفتحت الدراما على اللغة العربية، وبذلك بدأت عملية تطور أدب الدراما العربي من خلال ترجمة الكثير من الكلاسيكية مثل البخيل وكورنيلا لموليير، وماكبث والعاصفة لشكسبير، كما حلت بواعث Motivation جديدة Schaw لدراميين شبان مثل شاو وإبسن Ibsen ، وإلى جانب ذلك ظل نفوذ الكلاسيكيين الفرنسيين قائماً، وقد توسع أيضاً من خلال ترجمات للأدب الألماني الكلاسيكي لغوتة، (فاوست ـ هيرمان ودورتي)، وشيللر(مكائد وحب ـ اللصوص) وليزينغ Lessing (ناتان والعالم).

ومن أجل تطور الدراما في مصر كانت قطع وأعمال فكرية نظرية لكتاب مثل: محمود تيمور تشير إلى ذلك، فهو قد باشر عملية إصلاح في إخراج المسرح وتحريره من عزلته وإشارة إلى استخدام اللغة العامية على خشبة المسرح باعتبارها محسنات، والعروض الكلاسيكية العربية من القطع المسرحية المؤلفة لأمير الشعراء أحمد شوقي مثل: مصرع كليوباترا لم تنجح ولم تحقق الشهرة مثل أعماله الشعرية.

وفي سوريا تطورت الدراما العربية منذ تأسيس المسرح السوري على يد أبي خليل القباني بصفة خاصة من خلال الأعمال الدرامية لمعروف أرناؤوط وعدنان مردم.

واكتسبت الجهود من أجل مسرح عربي في مصر وسوريا ولبنان قوة دافعة كمتطلبات من خلال النوادي البرجوازية وجمعيات هواة المسرح وفنانين. وفي القاهرة تأسس عام 1930 معهد التمثيل، وفي عام 1935 جماعة التمثيل الوطنية، وكان بنك مصر قبل ذلك قد قام بتمويل مسرح الأزبكية ودعم محاولات فرقة رمسيس للتمثيل باللهجة المحلية.

لكن على الرغم من ذلك لم يتحقق النجاح في خلق مسرح عربي معتمداً على دراما مستقلة خاصة به، وإن قوة إشعاع خشبة المسرح كان محدوداً ومحصوراً في أوساط صغيرة من البرجوازية(على الأغلب هواة من أوساط المثقفين) وكانت الأعمال نادراً ما تدور عن العصر الراهن(أي أنها كانت حول موضوعات تاريخية ـ المترجم)، ولم تكن تتطرق إلى النضال المعادي للاستعمار على عكس السينما التي تمكنت من الحصول على مثل هذه الشعبية، كما نالته الحكاية الشعبية التي انبثقت عن التاريخ والتي سرت إلى جميع الأقطار العربية، وغالباً مع الإشارة الرمزية إلى الأحداث السياسية المعاصرة.

ومما يستحق الملاحظة أن بداية فن المسرح في الجزائر كان يتعامل مباشرة مع قضايا النضال ضد الاستعمار، ومنذ عام 1922 ألّف محي الدين باش خرازي وقبله الممثل رشيد قسطنطيني، أعمال مسرحية شعبية وهزلية، ثم أن أداءها باللهجة العربية المحلية كانت موجهة ضد الاستعمار الفرنسي.

وكان بدء فن السينما عام 1925 عندما تأسست شركة مصر للتمثيل والسينما بتمويل من بنط مصر، قام حسن مراد بتصوير أفلام قصيرة من نوع العرض الأسبوعي، وكانت شركة أفلام لوتس قد أنتجت عام 1927 بالتعاون مع الممثلة المصرية آسيا داغر أول فلم يستحق الذكر (غادة الصحراء) الذي لاقى الكثير من التشجيع في الأقطار العربية، وفي عام 1930/1929 عمل الممثل محمد كريم فلم (زينب) عن رواية تحمل نفس السم كانت رائجة في البلاد كتبها محمد حسين هيكل. أما أول الأفلام التي صوّرت مع الصوت باللغة العربية كانت عام 1932/1931 حيث أنتج الفلم الناضج (أنشودة الفؤاد) الذي كان حوار الأوبرا فيه لعباس محمود العقاد، وفي عام 1934 صور الفلم الغنائي(وداد) التي لعبت فيه دور البطولة المغنية المصرية المعروفة أم كلثوم فلمها الأول بدور الفتاة وداد، وفي عام 1934/1933 لعب المغني الذي أصبح موسيقاراً ومغنياً مشهوراً(محمد عبد الوهاب) فلم (الوردة البيضاء) من إخراج محمد كريم، وبسبب واقعيته كان لفت مخرجه الأنظار عام 1939 في فلمه (العزيمة)، وكان فلمه آخر (الرجل الصغير للمدينة الكبيرة) قد جعل من كامل سالم من الرواد والطليعيين في فن السينما الواقعية. وكان إنتاج الأفلام لا يتجاوز الفلمين أو الثلاثة في العام، ولكن ذلك تطور بعد عام 1935 بصورة ملموسة، وناهز الخمسين فلماً عام 1945.

وفي سوريا كانت البداية أيضاً أفلام يصنعها الهواة، واستمر كذلك حتى الحرب العالمية الأولى؛ حيث بدأت نهضة لإنتاج الآلام، وقام هواة السينما بتأسيس (شركة أفلام حرمون) التي أنتجت عام 1928 فلمها (المتهم البريء) وكان المخرج هو أيوب بدري، والمصور راشد جلال، ثم تأسست شركة ناضجة باسم هاليوس فلم التي قامت بإنتاج فلم (تحت سماء دمشق) ومما يستحق الملاحظة هي جهود السوري نور الدين رمضان في مجال الأفلام الوثائقية، فقد صور في أعوام الثلاثينات أحداثاً سياسية مثل مظاهرات الطلبة ضد سلطات الانتداب الفرنسية، وافتتاح البرلمان السوري الأول ومهرجان رياضي وأحداث أخرى.

وكان عروض الأفلام غالباً ما يتم في ساحات مفتوحة في العراء، ومع ذلك فقد نجحت السينما على عكس المسرح، واستطاع أن يكوّن شعبيته بسرعة.

رابعاً : اتجاهات التطور في الصحافة

مارس الاستعمار الفرنسي بمساعدة قوانين الرقابة السيطرة على الصحافة في الأقطار العربية، فقد جعل قانون الصحافة لعام 1924 على سبيل المثال في لبنان صحافة البلاد تحت رقابة سلطات الانتداب الفرنسية، كما استمرت الصحافة العراقية حتى عام 1931 ترزح تحت ظل قانون المطبوعات العثماني الرجعي، وقد استخدم الاستعمار البريطاني هذا القانون عام 1935 لمنع عدد من الصحف البرجوازية التقدمية قبل أن تقدم على تشريع قانون جديد للصحافة، وببضعة صحف مثل إيجبت تايمز Eygptian Times وبغداد تايمز Baghdad Times حاول الاستعمار تحقيق سيادته وترسيخ مواقعه في الأقطار العربية.

ومع تنامي وتصاعد النضال ضد الاستعمار كان للصحافة ازدهار كبير، حيث أصبحت ميداناً للصراع الطبقي بين الإقطاع والبرجوازيين الموالين للاستعمار، وبين القوى الوطنية، وكانت الصحافة الموجهة تمثل التقدميين من الحركة الاشتراكية البرجوازية الصغيرة، ولاحقاً تلك الصادرة عن الأحزاب الشيوعية وكذلك من حاشية القوى الاستعمارية والقوى الطبقية الرجعية.

وفي مصر كان الدستور الذي قد صدر عام 1923 يضمن حرية الصحافة شكلياً، وأعلنت الأحزاب والتيارات السياسية المختلفة أهدافها بواسطة صحافتها، وهاجمت صحيفة البلاغ التي أسسها حزب الوفد عام 1923 بمقالات صحفية مهذبة سياسة الاستعمار البريطاني، وكان يعمل في هيئة تحريرها مجموعة كتاب أمثال: عبد القادر حمزة، عباس محمود العقاد، كما أصدر الحزب الدستوري الليبرالي منذ عام 1922 صحيفة السياسة، والسياسة الأسبوعية منذ عام 1926 التي كان يعمل بها محمد حسين هيكل وطه حسين، وقد مثّل الصحفيون والكتاب في حزب الوفد الميل إلى الإنكليز، وأما في الحزب الدستوري الليبرالي فقد مثّلوا تيار الثقافة الفرانكفونية الأمر الذي أدى إلى صراع شديد بين طه حسين والعقاد.

واستمرت صحيفة المقطم كبوق القوى الطبقية الموالي للإنكليز كالسابق، وكانت المقطم قد أسستها لبيبة هاشم عام 1906 وكذلك (السيدات والرجال) التي أسستها روز أنطوان حداد عام 1922، ومثلت أهمية لقضية تحرير المرأة ومن أجل تطور الأدب البرجوازي. وكانت المجلات الرسالة والرواية 1936، وكذلك الثقافة 1939 من المجلات المشهورة، وكذلك المقتطف والهلال قد أصبحتا مجالاً للصراع الطبقي مع الاستعمار وسياستهم الطبقية، وتعاملت هذه المجلات مع موضوعات اجتماعية وثقافية ساهمت في تقدم الأفكار العربية مثل بحث مشكلات تحرير المرأة والأزياء.(13)، والتعليم، الأدب واللغة العربية، وكان يشارك أشهر الكتاب في الاستفتاءات التي تجريها هذه المجلات في العشرينات والثلاثينات.

وكان يصدر في مصر وحدها عام 1940 باللغة العربية أكثر من 20 صحيفة يومية و79 صحيفة أسبوعية، سياسية، ثقافية، وحوالي 40 صحيفة ذات محتوى ديني، و10 صحف نصف أسبوعية، و12 مجلة شهرية، وبذلك كانت لمصر المكانة الأولى في مجال الصحافة، أما أعداد الصحف الصادرة في سوريا ولبنان والعراق، فقد كانت حتى الحرب العالمية الثانية هي الأخرى ملحوظة، وفي أقطار المغرب واليمن والعربية السعودية والسودان وشرق الأردن فقد شهدت تأسيس صحف عربية.

وفي الجزائر قادت صحف إسلامية على الأغلب النضال ضد الاستعمار على سبيل المثال: (الصحيفة) التي تأسست عام 1923و(لسان الدين) أو الصحيفة الصادرة عن رابطة العلماء(البشائر) التي كان يترأس تحريرها العالم الديني الإسلامي البشير الإبراهيمي.

ولم تكن الصحف الوفيرة العدد التي يصدرها العرب المهاجرون في أميركا اللاتينية والولايات المتحدة وأوربا قليلة التأثير والنفوذ على مسيرة التطور الثقافي للأقطار العربية، نذكر منها هنا صحيفة (السامر) تلك التي كان يصدرها اللبناني المهاجر الشاعر أيليا أبو ماضي في الولايات المتحدة عام 1929، وكذلك الصحف الأدبية التي كان يصدرها في ساوباولو بالبرازيل، الأدباء والفنانين اللبنانيين والسوريين ومنها صحيفة (الشرق).

خامساً : التحديث والقومية في الفنون التشكيلية

اتخذت الفنون التشكيلية في لبنان ومصر وسوريا والعراق بالدرجة الرئيسية تطوراً سريعاً بقيادة القوى الطبقية البرجوازية تطوراً سريعاً، وتحت نفوذ وتأثير الفنون البرجوازية الأوربية في القرن التاسع عشر والعشرين، فقد انسحبت عليها عملية تناقض في الصراع مع المفاهيم الغربية والأوربية ولا سيما الانطباعية، وقد برز اتجاهان رئيسيان:

الاتجاه الأول: أكاديمي حديث، يعتبر الفن البرجوازي الأوربي صورة المثال الحاسمة له.
الاتجاه الثاني:الوطني/ القومي الذي حاول ربط الفن الأوربي بالمفاهيم الفنية الوطنية والقومية، ولكن على الأغلب فلكلورية، الأمر الذي يتعارض إما بما يتعلق على الصعيد الثقافي، أو مباشرة بمفردات حياة الشعب والاتجاه الثاني كان يشير إلى كفاح ومساعي القوى البرجوازية المعادية للاستعمار، التي تطورت ونمت في لبنان أولاً حيث أنجز على سبيل المثال نعمة الله ويردي جدارية هائلة تدور فكرتها عن حياة الشعب اللبناني، فيما كانت أعمال الرسام مصطفى فروخ تعبر عن القرية اللبنانية، أما قيصر الجميل فكان يرسم الطبيعة والريف.

وفي مصر كانت قد تأسست في القاهرة عام 1908 (مدرسة الفنون الجميلة)، وكان أشهر الفنانين التشكيليين ممن برزوا هم: محمود مختار، محمد حسن، راغب عياد، يوسف كامل، وفي عام 1911 كان قد أقيم أول معرض فنون مصري ليظهر أعمالاً لفنانين مصريين، وكان قد جرى رفع مستوى مدرسة الفنون الجميلة إلى كلية بعد الحرب العالمية الأولى، وفي عام 1929 أضيف إليها الفنون التطبيقية لا سيما الرسم، وجعل الكثير من عشاق وهواة الفن يقيمون جمعيات واتحادات فنية، وعلى سبيل المثال (جماعة الفنون الشرقية الجدد) و(جمعية محبي الفنون الجميلة)، وأقيم في صالون هذه الجمعية العديد من المعارض.

وفي عام 1936 تأسست رابطة الفنانين المصريين التي كرست نفسها للعناية بالفنون الوطنية(القومية) في مصر، وكانت جماعة (الفن والحرية) التي انتمى إليها فنانون معروفون مثل محمود سعيد، رمسيس يونان، كامل التلمساني، وفؤاد كامل. وقد قام الفنان محمد ناجي برسم لوحة جدارية لبناية البرلمان، ومنه بين الذين خدموا الفن الشعبي عبد الهادي الجسار، وحميد ندا والنحات محمود مختار الذي بمجسماته وتماثيله كما في (عايدة في السلاسل) و (نهضة مصر) ربط بين نهضة مصر والاتجاهات الفنية الحديثة في بلاده مع(الفن المصري القديم).

وفي سوريا كذلك نهضت في أعوام العشرينات اتحادات وجماعات للفنانين وهواة الفن، وكان الرسامين منهمك بدرجة رئيسية متأثرين بالنموذج البرجوازي الأوربي في سلوك ما يسمى(الواقعية الأكاديمية)إذ أنهم حاولوا ربط ذلك بالحركة القومية وكانت لوحاتهم تعبر بدرجة رئيسية عن التاريخ القومي. وقد قام على سبيل المثال توفيق طارق برسم لوحة كبيرة مشهورة(معركة حطين)، و (مجلس الخليفة المأمون) التي رسمت بنمط طبيعي وبتفاصيل تاريخية. وكان أيضاً عبد الوهاب أبو السعود الذي استخدم في أعماله المواضيع التاريخية، على سبيل المثال: لوحة (فتح بيت المقدس)، وكان هناك أيضاً أعمال واقعية تتضمن رسوم شخصية إلى جانب موضوعات التاريخ العربي مثل لوحة: القائد طارق بن زياد على رأس الجيش الإسلامي، وكذلك موضوعات من حياة الشعب مثل لوحة: (بائع الحلوى) و (الحكواتي) و(الرجل يشحذ السكاكين)، وقد أقام الرسام ميشيل كورشا معرضاً مهماً عام 1926، كانت

لوحاته تعبر عن أحداث ريفية (البيت القديم)، والفلاحين وبيوت الفقراء في المدن كمواضيع لأعماله.

وفي العراق بدأت المعركة مع الفن البرجوازي الأوربي بعد مصر وسوريا في أعوام الثلاثينات، كان الفنانون الشبان مثل عاصم حافظ، أكرم شكري، حافظ الدروبي قد درسوا في لندن، باريس، روما، وكان تأثير الرسم الأوربي هنا قليل الفاعلية، والرسامون أكثر ارتباطاً بالتقاليد الوطنية والقومية.

وفي الأقطار العربية الأخرى كانت الفنون التشكيلية تتطور على طريق الواقعية إلى نهاية الحرب العالمية الثانية وتتطور على طريق الواقعية، وكانت في جزئها الأعظم غريبة عن الحياة وقد استندت بشدة إلى النموذج الأوربي، ولم ينعكس التطور الاجتماعي لا سيما النضال المعادي للاستعمار في أعمال الفنانين إلا نادراً عدا محاولات قليلة في عروض واقعية في الرسم تستحق الملاحظة، حيث كان هناك بضعة فنانين مرتبطين بشدة مع الشعب ونضاله وتاريخه القومي.

وكان فن رسم الكاريكاتير ضرباً آخر من ضروب الفن لم يكن معروفاً للعرب حتى ذلك الوقت(قبل القرن العشرين)، وقد انعكس فنياً بصورة مباشرة بسبب التطور السياسي والاجتماعي وكذلك النضال التحرري للعرب المعادي للاستعمار، فمن خلال انتشار الصحافة أصبح ممكناً انتشار هذا الاتجاه الفني في الأقطار العربية، وبصورة خاصة في مصر حيث انتشر بسرعة، كما كانت هناك بعض الصحف الساخرة الصادرة قبل الحرب العالمية الأولى، على سبيل المثال: صحيفة (أبي نظارة)التي تأسست عام 1877، التي نشرت أعمالاً للرسام يعقوب رفائيل صنوع، ولكن التوسع الحقيقي والانتشار الشعبي في الكاريكاتير كان مع تأسيس مجلة المصور عام 1924، و الصحف السياسية مثل: روز اليوسف 1925، والسياسة الأسبوعية 1926.

وفي سوريا لاقى الكاريكاتير أيضاً الطريق إلى بعض الصحف في المجلة الساخرة(المضحك والمبكي 1907) حيث نشر فيها فنانون مثل توفيق طارق رسوم كاريكاتيرية، ورسام الكاريكاتير عبد اللطيف الداشوالي الذي بدأ بعد الحرب العالمية الأولى بتجميع رسوم كاريكاتيرية للسياسيين.

كان التحرر من السيادة العثمانية قد أدى كنتيجة لذلك إلى أحياء الفنون الشعبية العربية، كما أدت الموروثات من المصنوعات الحرفية في سوريا إلى ازدهار الفنون الشعبية التقليدية مثل فن الموازييك والصناعات الزجاجية الفنية، كما أن استخدام الأنوال الكهربائية والحرير الصناعي قد أدى إلى ازدهار جديد للصناعات التقليدية مثل البروكار والدمقس ورسوم الديكور.

سادساً : الوطنية في الموسيقى

استمر التناقض في مجال الموسيقى بين الموسيقى العربية ـ الشرقية والأوربية، فالموسيقى الأوربية كانت معروفة منذ أواسط القرن التاسع عشر ولا سيما في مصر التي كانت تضم معهداً للموسيقى منذ عام 1824، وقد وجدت توسعها في لبنان وسوريا وفي مراكش والجزائر لدى الفئات البرجوازية والمثقفين وغالباً في المدن الرئيسية، غير أنها بقيت بعيدة عن الشعب، وبالمقابل كانت الموسيقى العربية ـ الشرقية تحضى بعناية فردية في العديد من الأوساط الموسيقية، وكانت هذه الموسيقى لا سيما الأغنية التي اكتسبت خلال النضال التحرري الثوري المعادي للاستعمار دافعاً قوياً ومؤشراً لتطورات الأغنية السياسية في البلدان العربية، وكان المغني والمؤلف الموسيقي سيد درويش قد اشتهر من خلال أغنيته (قم يا مصري) وقد اعتبرت هذه الأغنية ثورية عام 1919، وكذلك أغنيته الوطنية الأخرى (بلادي ... بلادي)التي رافقت النضال التحرري القومي للشعب المصري، وفي الأقطار العربية الأخرى وموسيقا (شهرزاد) و(العشرة الطيبة) تنطوي جميعها على التقاليد الوطنية والقومية. وفي سوريا ألف أحمد حمدي مجموعة من الأغاني الوطنية مثل (سوريا أنت بلادي) و (أوطاننا هي الغوالي)، وأخرى غيرها ما تزال معروفة وتُغنّى حتى يومنا هذا.

وكانت الصلات بين الشكل والنموذج الأدبي والموسيقى العربية الشرقية محط اهتمام الكثير من الموسيقيين البرجوازيين العرب، وقد ألف المغني المصري داود حسني حوالي ثلاثين أوبرا مغناة وحوالي 500 قطعة موسيقية، وكذلك محمد كامل الخال الذي اهتم بشكل مكثف بقيادة الأوبرا، إذ ألف حوالي أربعين أوبرا وأوبريت، أما بالنسبة لفن الغناء العربي، فقد نال المغني سيد الضغاتي أفضالاً كثيرةً وكانت هناك أكثر من أربعة آلاف من أغانيه(في زمن حياته) لها معجبون ومحبون في الأقطار العربية، والتي طبعت على أسطوانات.

والأحداث الأهم في الحياة الموسيقية للأقطار العربية تمثلت بدون شك في المؤتمر الموسيقي العربي عام 1932 في القاهرة والذي شارك فيه عدد كبير من الموسيقيين المعروفين، ومنظري الموسيقى من الأقطار العربية وغير العربية اجتمعوا حول الإيقاع الممكن للطبقات الأربع والعشرين للسلم الموسيقي للموسيقى العربية على أساس من العلوم الفيزيائية وعن الاعتناء وأحياء الموسيقى العربية ـ الشرقية، ولكن المؤتمر لم يستطع أن يصل إلى نتيجة واضحة حول الطبقات الأربعة والعشرين للسلم الموسيقي.

وهكذا طرح هذا الأمر نفسه في المراحل اللاحقة(كمهمة من خلال تطور الإذاعات وصناعة الأسطوانات(الحاكي) وجزئياً في الموسيقى العملية، والقليل فقط من المساهمين في المؤتمر كانوا مع إدخال الطبقات الاثنا عشر الأوربية في الموسيقى العربية ـ الشرقية. وقد اصطدم مقترحهم برفض صارم شديد، بل رفع غالبية الموسيقيين العرب مقابل ذلك العناية الشديدة بالموسيقى القومية أكثر مما هي عليه آنذاك. ومن نتائج هذا المؤتمر أيضاً حدوث تبادل قوي بين مجاميع الموسيقيين القوميين في الأقطار العربية.

إجمالي الفصل السادس

كان التطور الثقافي في الأقطار العربية يجري تحت تأثير كثيف من القوى الإمبريالية والثقافة البرجوازية بعد تحررها من السيادة الإقطاعية التركية تتركز في خلق ثقافة قومية، ومن جهة أخرى كانت النظريات الثقافية البرجوازية المثالية مع التفاوتات والتناقضات الطبقية و(القديم) و(الجديد) كانت تتفاعل فيما بينها، وبهذه التناقضات(التي كان الاستعمار يشجعها وتوسعها القوى الإقطاعية والبرجوازية)، وقد نجم عن ذلك التوجه إلى الثقافة الرأسمالية البرجوازية لغرب أوربا وأميركا من جهة، ومن جهة أخرى التقاليد الإقطاعية العربية ـ الإسلامية، وبذلك كانت هناك تصورات ثورية في مجال الثقافة لا سيما بتأثيرات الاشتراكية العلمية التي كانوا يحاولون إقامتها.

ولم تلغ هذه الحقيقة أن حركة التحرر الوطنية قد حققت النجاحات في مختلف مجالات الثقافة، وفي مجال التعليم مثلاً كان قد تم إنجاز وتأسيس الكثير من المعاهد الوطنية المهمة في الأدب والصحافة والموسيقى، ساهمت في النضال القومي التحرري المعادي للاستعمار، وأنتجت وطورت أشكالاً جديدة. وفي الفنون التشكيلية تبين المؤشرات إلى قيام جماعات واتحادات للرسم، وإن عملية إعادة إحياء الفن الشعبي التقليدي العربي كانت تدور، وإن نوادي وجماعات واتحادات فنية كانت قد تأسست ولكنها بقيت بعيدة عن الجماهير، وبالمقابل فقد نجحت السينما ببعض الأفلام (التمثيل ـ الأفلام الوثائقية) في تحقيق شعبية متزايدة.

وفي جميع مجالات الثقافة انعكست التناقضات بين القوى الطبقية الإقطاعية والبرجوازية والقوميين العرب والمحدثين الإسلاميين، وكلا التيارين كانا ينطويان على اتجاهات وظواهر تقدمية ورجعية في الثقافة التي كانت هي الأخرى مؤثرة في المستقبل على التطور الثقافي للحركة الاشتراكية البرجوازية.

هوامش الفصل السادس

1. رفاعي، أل، م. س: المعركة بين القديم والجديد، ص15، القاهرة 1953
2. المنفلوطي، مصطفى: اليوم والأمس: في: مجلة النظرات، المجلد الثالث، ص165
3. رقص المخاصرة: في:مجلة السياسة الأسبوعية، عدد 1926/6
4. المنفلوطي، مصطفى: المدينة الغربية، في: النظرات، القاهرة، عدد1925/26
5. هذه المقالات جمعت لاحقاً في كتاب "اليوم والغد" القاهرة 1926
6. موسى، سلامة: اليوم والغد، فصل (على مفترق الطرق) القاهرة 1927
7. كان يوجد في مصر عام 1937: 30 مدرسة بريطانية، 57 إيطالية، 5 ألمانية
8. قانون المعارف العام: دمشق 1944
9. هكذا في النص الرسمي: الفقرة 18 من الدستور العثماني 1876
10. على سبيل المثال:طالب السير ويليام ويلكوكس (مهندس بريطاني للري في مصر)عام 1926 إبدال الحروف العربية باللاتينية.
11. عرض السياسي البرجوازي المصري عبد العزيز فهمي عام 1934 على أكاديمية اللغة العربية في القاهرة الذي كان أحد أعضائه، اقتراحاً بهذا المعنى.
12. شوقي، أحمد: الديوان ، الجزء الأول، ص 110 ، القاهرة 1950
13. نوقش هذا الموضوع بكثرة، لا سيما بعد إلغاء ارتداء الطربوش في تركيا عام 1921 ووجد انعكاسه في الأدب في العديد من القصص القصيرة.

الفصل السابع

البلدان العربية في الحرب العالمية الثانية

1. أهداف الحرب الإمبريالية.
2. العدوان الفاشي والتطور في الأقطار العربية 1939 – 1942
3. هزيمة القوى الفاشية في شمال أفريقيا، وازدهار حركة التحرر العربية – 1949 1942

أولاً: أهداف الحرب الإمبريالية

حرك اندلاع الحرب العالمية الثانية مشكلات ونزاعات في صميم النضال التحرري، الوطني / القومي للشعوب العربية.

وقد بدأت الحرب العالمية الثانية التي أثارتها ألمانيا الفاشية حرباً استعمارية من أجل تنفيذ مصالحها ونفوذها القوي على المستوى العالمي، وقد تجاوز برنامج الضم والاستيلاء الألماني في شطط غير مسبوق كل ما كان موجوداً ومطروحاً، وكان من ضمن ذلك ضرب وتمزيق الاتحاد السوفيتي، وبعد ذلك وضع العالم تحت سيطرة وقيادة المحور الفاشي.

وكانت الأراضي والمناطق العربية هي الأخرى مهددة بالضم والاحتلال من قبل قوى الفاشية.(1)إذ كانت الفاشية الإيطالية بمساعيها التوسعية قد قربت إلى الأذهان الإمبراطورية الرومانية من خلال إخضاعها لليونان وألبانيا، ولم يتحول البحر الأدرياتيكي إلى بحيرة رومانية Mare Nostro فحسب، بل ومن النقاط الأمامية المؤلفة من ليبيا وإثيوبيا، الانطلاق إلى مصر والاستيلاء على قناة السويس وتونس. وكان موسوليني قد فكر وخطط في مد سيادته على المنطقة العربية الواقعة بين تونس والعراق.

ولقد كان هتلر وعناصر قيادته في ألمانيا قد عقدوا التحالفات من أجل تهديد الشعوب مع أطراف المحور، وتمرير فعاليات إيطاليا السياسية/ الاستعمارية في الشرق الأوسط، وهكذا فهم كانوا في الواقع قد قرروا ليس فقط الحلول محل الإنكليز والفرنسيين في الاستيلاء والاحتلال، بل استغلال إيطاليا أيضاً سيادتها وهيمنتها ضمن المحور.

وفي مطلع عام 1941 كانت أهداف الحرب الألمانية في الشرق الأوسط قد اتخذت ملامحها في الأوساط القيادية في وزارة الخارجية على النحو التالي:

1. مكافحة فعالة لبريطانيا بمساعدة حركة الاستقلال العربية.
2. كسب الأراضي المستهدفة وجعلها تحت نفوذنا السياسي لاستثمارها اقتصادياً وللفعاليات الثقافية.
3. وبصفة خاصة في العراق من أجل كسب حقول النفط هناك.
4. قطع الصلات التركية مباشرة مع إنكلترا، وبذلك يمكن إعادة تركيا إلى جانبنا.(2)

وكانت الفاشية الألمانية قد وفّرت جميع المبررات والحجج في استراتيجية ضد الحصون البريطانية المطلة على محيط البحر المتوسط والهجوم على الاتحاد السوفيتي. ووفق الخطة التي وضعت لهذا الهدف تحت الاسم الرمزي" عملية باربروسا Barbarossa Opration لم تعد تفكر في وضع الشرق الأوسط تحت سيادتها فحسب، بل وانطلاقاً من مصر وفلسطين والعراق إلى شمال البحر الأسود وتشكيل كماشة هجوم جبارة ضد المواقع البريطانية في آسيا، ومن ثم احتلال الهند. وكانت التحضيرات من أجل تحقيق خطط الاحتلال الجنونية هذه ضد الأقطار العربية قد بدأت بعد بضعة سنوات من استلام الفاشية للسلطة.

وقد كان للرأسمال الألماني الاحتكاري مصالح واهتمامات لا سيما ما يخص كسب مواد خام للإنتاج الحربي مثل المنغنيز، الفوسفات، القطن والنفط، فاشتد هجومه في صراع تنافسي من أجل السيادة الاقتصادية على الأقطار العربية، وهكذا ابتدأت محاولاتها بمساعدة التجسس

الصناعي والتجاري في التوسع الاقتصادي، واستغلت بصورة لا هوادة فيها الأوضاع الاقتصادية لأقطار الشرق الأوسط. وعلى الرغم من أن حصة ألمانيا في تجارة الشرق الأوسط لم تكن تتجاوز 7،3%، وكانت الصادرات الألمانية إلى فلسطين تقف في المقدمة، ومصر في المرتبة الثانية، وتضاعف الميزان التجاري مع العراق للفترة من 1935 حتى 1938.(3)

وبصورة موازية للتوسع الاقتصادي فقد انتهجت الفاشية الألمانية طرح النفوذ العسكري بأشكال مباشرة وغير مباشرة في بلدان عربية مختارة، لذلك لم يكن يسيئها أن تؤمن صناعة السلاح الألمانية الأسواق المربحة لإنتاجها، وكان غرضهم أكثر بكثير من تلويث الضباط العرب بالأيديولوجية الفاشية يتعداه إلى استطلاع واستكشاف القوة ومستوى التسلح والقدرة القتالية للقوات المسلحة البريطانية والفرنسية المرابطة في المناطق الاستعمارية، وبالدرجة الأولى جس النبض للصراع المقبل مع المنافسين الاستعماريين في التحضيرات لهجوم يشن ضد الاتحاد السوفييتي ونجاح الغزل العسكري من خلال صفقات الأسلحة مع العراق عام 1938، ولكنها فشلت مع مصر بفعل المقاومة البريطانية، والشحنات المرسلة من السلاح إلى المملكة العربية السعودية 1939/1938 قد تعطلت وتوقفت، وقد تمكنت قوى وطنية وفلسطينية من امتلاك أسلحة يدوية بسيطة.

وكانت المبادرات في إحراز توسع اقتصادي وعسكري/سياسي تتم منذ عام 1937 على نحو طفرات في اتساع حجمها ترافقها دعاية شرق أوسطية للقوى الفاشية. وفي عام 1932 كانت الإذاعة التي تبث من جنوب إيطاليا(إذاعة باري) قد بدأت بالإرسال باللغة العربية، وكذلك كان الأمر بعد عام 1938 في راديو برلين في التحريض على القيام بفعاليات معادية للإنكليز، وكان قسم المعلومات في وزارة الخارجية الألمانية وفي إطار الدعاية من خلال النشرات ودعايات الصور، قد بذل مجهودات كبيرة في التأثير على السكان العرب لصالح الأفكار الفاشية، وكذلك الدبلوماسية الفاشية ومراسلو الصحف ومجاميع محلية من الأقطار العربية، وقد أدت عمليات الدعاية الهائلة للأيديولوجية النازية إلى قيام تعاون بين القوى الرجعية العربية، فيما كانت معاداة الشيوعية السلاح الرئيسي والقناع الذي تختفي خلفه أهداف الاحتلال والاستيلاء الفاشية.

وفي نفس الوقت سعت السياسة الألمانية إلى استغلال كراهية قوى التحرر العربية للاستعمار البريطاني والفرنسي من خلال شعار "الألمان والعرب.. سوياً ضحايا الظلم الاستعماري" في إخفاء أهدافها الإجرامية(الحقيقية) على الحركة القومية العربية وبالتالي استخدامها في خططها للسيطرة على العالم. وكانت التعليمات الصادرة عن القيادة العامة للقوات المسلحة الألماني رقم 32 بتاريخ 11/حزيران - يونيو/1941 تنص على: " استغلال حركة التحرر العربية، وبذلك تشتد أوضاع الإنكليز صعوبة في الشرق الأوسط عند بدء العمليات الألمانية الكبرى، في زج المزيد من القوى العسكرية وشدها إلى مناطق الاضطرابات والانتفاضات. وجميع هذه الأعمال تخدم الإجراءات العسكرية والسياسية والدعائية التي ينبغي في مرحلة الاستعداد أن تعين وتقر".(4)

ومن أجل تنفيذ هذه المهام تأسست الأركان الخاصة بالاسم الرمزي:"الكودي" (الأركان الخاصة ف) Sonderstab F بقيادة الجنرال فيلمي Felmy الذي كان يعمل على تعيين موظفين ليكونوا مقام موظفي الإدارات الاستعمارية البريطانية والفرنسية لضمان وسلب ونهب الأقطار العربية.

وكانت ألمانيا الفاشية قد أصدرت بياناً تهويشياً في دعم حركة الاستقلال العربية ليس فقط باتفاق هافارا Havara كمساهمة من الفاشية الألمانية في خلق الأساس الاقتصادي للدولة الصهيونية في إسرائيل.(5) ، وكانت العنصرية قد أعلنت أيضاً عن عنصريتها حيال الشعوب العربية. وقد

تحدث هتلر باختصار شديد عن " شعوب شمال أفريقيا والشرق الأدنى البدائية".(6)، وأيضاً كما ورد في خطاب له أمام القادة العسكريين بتاريخ 22/ آب ـ أغسطس/1939 " نحن ما زلنا نريد حدوث اضطرابات في البلاد العربية، نفكر كرجال ونرى في هذه الشعوب في أفضل الأحوال أنصاف قرود، أجلاف، يريدون أن يضربوا بالكرباج".(7) وبرغم أن الأيديولوجيين الفاشست كانوا يطرحون من وراء الأقنعة، الصداقة من أجل تنفيذ خطط احتلال بقيت سرية عن الشعوب العربية منتهجة سياسة الاستخدام الديماغوجي حيال حركة التحرر العربية المعادية للإمبريالية.

وواصل الحلف البريطاني ـ الفرنسي في شمال أفريقيا والشرق الأوسط مساعيه وأهدافه الاستعمارية، فيما كان الاتحاد السوفيتي يواجه العدوان الفاشي، زج الاستعمار البريطاني / الفرنسي من جهة أخرى بكافة قواه لغرض سيطرته الاستعمارية على الشعوب العربية، وهكذا كانت البلدان العربية هدفاً للقوى الاستعمارية والفاشية معاً، وكانت الفاشية قد تقدمت بأيديولوجية لإرباك وتضليل بعض القوى القومية ـ البرجوازية في النضال التحرري وأعاقوا قيام جبهة موحدة ديمقراطية معادية للفاشية.

وحظيت السياسة البريطانية /الفرنسية المعادية للسوفيت في الشرق الأوسط بدعم وإسناد الإمبريالية الأمريكية، حيث كان يجري تشييد مرافق ومنشآت عسكرية، مطارات، شوارع، طرق استراتيجية، سكك حديدية، وفي تلك المرحلة استغلت الولايات المتحدة خلال الحرب كل قدراتها لوضع أسس هيمنتها الاستعمارية إضافة إلى تشديد سياسة نهب واستغلال النفط العربي، وفعاليات احتكاراتها في كافة المجالات في منطقة الشرق الأوسط.

وإجمالاً فقد كان من الملاحظ في الوضع السياسي في الشرق الأوسط للمرحلة الأولى من الحرب العالمية الثانية وفق المخطط التالي: بينما كانت القوى الرجعية قد قررت الوقوف إلى جانب الكتلة الأنكلو ـ فرنسية والولايات المتحدة، وتأمين أهدافها أو بالأحرى الاستعداد لسيادتها الاستعمارية، التحريض للعدوان الفاشستي على الاتحاد السوفيتي فقد اعتقدت الفاشية الألمانية بأن حملتها في الجبهة الشرقية سوف تنتهي في غضون شهرين أو ثلاثة، ومن ثم ستواصل الحرب ضد القوى الغربية والتقدم للهجوم باتجاه الجسر البري بين النيل والفرات.(8)

ومع بدء الهجوم الفاشي على الاتحاد السوفيتي وبدء الحرب العظمى، تغيرت عموم مسيرة الحرب بصورة حاسمة" إن طبيعة الحرب ضد ألمانيا الهتلرية والسائرين في فلكها لقد ابتدأت والحرب التحررية ضد الفاشية قد بدأت الآن، وقد كان مساهمة الاتحاد السوفيتي في تحديد الجوهر السياسي للحرب، وقد أصبحت الجبهة السوفيتية ـ الألمانية هي الجبهة الرئيسية في الحرب العالمية الثانية والحاسمة فيما يخص تطوراتها اللاحقة ولنهايتها".(9)

وكان النصر الحاسم الذي أحرزه الاتحاد السوفيتي في الحرب قد دفع عن الشعوب العربية (في صفحاته المحتملة)الهيمنة الفاشية التي تفوق في وحشيتها أنواع الاستعمار الأخرى المعروفة، التي كانت ستلحق بحركة التحرر العربية أفدح الخسائر، كما كانت نهاية الحرب تمثل اشتداد أزمة النظام الاستعماري، ومنحت في ذلك لقوى حركة التحرر العربية اتجاهات جديدة والتفاؤل والثقة في النضال من أجل قضاياها العادلة.

ثانياً : العدوان الفاشي والتطور في الأقطار العربية 1939-1942

اتخذت القوى الاستعمارية البريطانية والفرنسية بعد اندلاع الحرب العالمية مباشرة الإجراءات من أجل تأمين مواقعها: فرض حالة الحصار على مصر، واعتبرت سوريا ولبنان منطقة حرب، ثم أوقفت فرنسا العمل بالدستور السوري - اللبناني، وبحل معظم المؤسسات والمرافق الديمقراطية، وقد استلمت المهام هيئة شكلها القوميسار الفرنسي أسماه(مجلس المدراء)بدلاً من الموظفين المفصولين من أبناء البلاد، وفي أقطار المغرب العربي حظرت السلطات الفرنسية المنظمات الوطنية واعتقلت أعضاءها أو وضعتهم في الإقامة الإجبارية، وكانت الأحزاب الشيوعية في الأقطار العربية قد منعت هي الأخرى، وبعد ضغوط مارستها بريطانيا قطعت مصر في الثالث والعراق في الخامس من أيلول - سبتمبر/1939 العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا الفاشية.

وكان لدخول إيطاليا الحرب بتاريخ 10/ حزيران - يونيو/1940 إلى جانب ألمانيا الهتلرية قد جعل من شمال أفريقيا مسرحاً للعمليات الحربية وجلب الحرب إلى أعتاب الشرق الأوسط، وكانت القوات الإيطالية قد شرعت بالانطلاق من إثيوبيا صوب شرق مناطق شرق أفريقيا، ولكنها فشلت بسرعة بعد تحقيقها لنجاحات أولية في الصومال البريطاني، ولكن القوات البريطانية سرعان ما شنت في كانون الثاني - يناير/1941 هجومها المضاد بدعم من مجاميع فدائية ووحدات من القوات المسلحة الاستعمارية السودانية(قوة دفاع السودان Sudan Defence Forces) وتمكنت من طرد المحتلين، بل أنها استولت على المستعمرات الإيطالية في أريتريا والصومال.

وفي شمال أفريقيا استمر القتال لفترة أطول ففي 12/أيلول - سبتمبر/1940 افتتحت الفرق الإيطالية الأربع عشرة المتمركزة في ليبيا البالغ عددها 215 ألف رجل بقيادة الماريشال غرازياني، وزحفت حتى بلغت منطقة سيدي براني في مصر، ولكن الجيش البريطاني الذي جرى تعزيزه في مصر باسم(جيش النيل) بقيادة الجنرال ويفل Wevel الذي يتألف بصورة رئيسية إلى جانب الوحدات البريطانية، وحدات هندية، استرالية، نيوزيلندية، ومن جنوب أفريقيا، قامت مجتمعة بهجوم مقابل في 9/كانون الأول - ديسمبر/1940 وفي كانون الثاني - يناير/1941 زحفت هذه القوات إلى برقة وألحقوا الهزيمة بجيش غرازياني باحتلالهم طبرق، وبذلك سقط الجزء الأعظم من الجنود الإيطاليين في الأسر.

وكان موسوليني قد رفض عرضاً قدمته إليه الأركان العامة الألمانية بإرسال فرقة مدرعة ألمانية لدعم القوات الإيطالية، إذ كان يريد أن يخوض حربه ويحرز الانتصار لوحده، وأن لا يضطر إلى تقاسم الغنيمة المنتظرة، أما الآن فإن الهزيمة الإيطالية تستدعي أن ينادي برلين جزعاً طالباً المساعدة، وكان على القوات الألمانية التي أرسلت على عجل إلى شمال أفريقيا(الفيلق الأفريقي) بقيادة الجنرال رومل Rommel، أن تسلم برقة بعد أن كانت قد استولت عليها وذلك في الأيام الأخيرة من عام 1942/1941، وبعد تسيير الكثير من الإمداد عبر ميناء طرابلس، (كانت خسائر قوات المحور عالية جداً، ومن تشرين الأول - أكتوبر وحتى كانون الأول - ديسمبر/1941، لم يصل من بين 123 ألف طن من الإمداد سوى 44 ألف طن، (الثلث) إلى موانئ التموين في ليبيا) زحفت القوات الألمانية - الإيطالية بعد هجمات كثيرة حتى منخفض القطارة، ولكن هجوم رومل في 1/ تموز - يوليو/1942 لاقى أخيراً الهزيمة التامة بالقرب من العلمين(100 كيلومتر جنوب غرب الإسكندرية).

وكانت التطورات في مصر خلال أول سنتين من اندلاع الحرب على ارتباط وثيق مع الأحداث والوقائع العسكرية. وقذفت السلطات العسكرية البريطانية بعد اندلاع الحرب ليس فقط بقطعات تعزيز أرسلتها على عجل ضد العدوان الفاشي المتوقع حدوثه على الحدود المصرية ـ الليبية، بل أنها وضعت كافة المواقع الرئيسية ذات الأهمية الاستراتيجية تحت سيطرتها العسكرية المباشرة من أجل استباق أي فعالية لحركة التحرر. وكان بضعة آلاف من المصريين في خدمة السخرة لدى بريطانيا فيما يسمى "بفيلق العمل"، وكان كامل اقتصاد البلاد (الإنتاج، الاستثمارات، التصدير، الاستيراد" وكذلك الأسعار ومستوى الأجور كانت تدار من القيادة البريطانية العليا(مركز التجهيز للشرق الأوسط).

وإذ استطاعت الإمبريالية البريطانية حتى الآن في كافة إجراءاتها تأمين سيادتها الاستعمارية في التحالف مع حاشية البلاط والقوى الطبقية الإقطاعية والبرجوازية الكومبرادورية، استطاعت أن تحقق ذلك مع أكثر الفئات رجعية في المجتمع المصري، ولكنها بدأت تلاقي الآن مقاومة ملموسة تستند بوضوح إلى نجاحات الحرب الصاعقة Blitz Krieg للجيوش الألمانية على مسارح العمليات الحربية في أوربا، وكذلك في دخول إيطاليا إلى الحرب، وكذلك العمليات الهجومية للقوات الإيطالية ثم الألمانية ضد مصر.

وكانت الرجعية المصرية تعد نفسها باستبدال السيادة البريطانية بالفاشية، وقد اعتبرت الإرهاب الذي لا وازع له ضد كافة القوى الديمقراطية الوسيلة الأكثر نجاحاً لتكبيد حركة التحرر المصرية الخسائر الفادحة، وقد تجلت هذه الاتجاهات الفاشية في امتناع الملك فاروق ورئيس وزرائه على ماهر إعلان الحرب على ألمانيا وإيطاليا، وكذلك الفعاليات القوية والمتزايدة للفاشيين(مصر الفتاة) وكذلك في تشكيل قوات ملكية قوامها 25 ألف رجل بإشراف وزير الحربية محمد صالح ورئيس الديوان الملكي أحمد محمد حسين، وأن تلعب هذه القوات في حالة نجاح الهجمات الفاشية لاحتلال مصر دور المساعد لها.

ولم تكن قوى في حركة التحرر المصرية حتى هذه المرحلة قد تعرفت على الحرب، وبأن إيطاليا الفاشية ليست سوى القوة المهاجمة لقوى الثورة المضادة العالمية، وإنها (الفاشية) هي لعبة العدوان للإمبريالية ضد كافة القوى الديمقراطية، وهكذا على سبيل المثال قام رئيس أركان الجيش المصري عزيز علي المصري، عضو جمعية الضباط الوطنية الثورية(السرية) بالاتصالات مع القيادة الفاشية العليا في ليبيا بآمال وهمية، أن يتمكنوا بدعم من الفاشية إزاحة السيادة الاستعمارية البريطانية، والتوصل إلى تحقيق الاستقلال الوطني لمصر.(10)

وفي هذه الظروف المهددة في السيادة الداخلية، أحاطت الدبابات البريطانية في 4/ شباط ـ فبراير/1942 بالقصر الملكي، وقدم السفير البريطاني إلى الملك فاروق الأول الإنذار النهائي، وإرغامه تكليف زعيم الوفد نحاس باشا بتشكيل الوزارة. وقد اشتدت المقاومة من الجماهير الجائعة سواء ضد السلطة الاستعمارية المكروهة، أو (لأسباب وبواعث مختلفة) ضد الاتجاهات الداعية إلى التعاون مع الفاشية. ولم يكن ممكناً حشد جميع عناصر الشعب المصري ضد الفاشية وتشكيل جبهة موحدة معادية للفاشية في تلك المرحلة إلا من خلال الاعتراف بمطالب حركة التحرر المصرية بالاستقلال السياسي التام.

وقد أضعفت الضربات الإرهابية للوطنيين المصريين هذا الموقف، حدثت بتاريخ 4/ شباط ـ فبراير/1942 والذي أساءت فيه إلى الموقف الدولي" في وقت كانت تتصادم فيه القوى الإمبريالية والتي كان جوهرها حرباً تحررية عادلة تخوضها الديمقراطية ضد الفاشية".(11)

ومن أجل إعطاء أسبقية النضال ضد الفاشية، يكون من الأخطاء المحزنة"اعتبار قوى المحور عدو مرحب به بدلاً من أن يكون عدوهم".(12)

ودعمت حكومة الوفد الجديدة بصورة غير محدودة سلطات الاحتلال البريطانية في النضال ضد المحتلين الفاشست، ليس على أساس المواقف المعادية للفاشية بل لكونه أداة طيعة في السياسة البريطانية. وبنفس الوقت كانت تأمل من خلال ذلك تحقيق سلسلة من الإصلاحات التي تأخر وضعها قيد الاستخدام(حق إقامة ائتلافات في النقابات، نظام الضرائب للمالكين الصغار، التعليم الإلزامي، تأسيس جامعة الإسكندرية) من أجل تحذير حركة التحرر(جعلها أكثر راديكالية ـ المترجم)

وعلى مسرح العمليات الحربية في أوربا بلغت الدول التي كانت تقف إلى جانب ألمانيا في السنتين الأولى من الحرب قد بلغت ذروة قوتها العسكرية، وكان خصوم ألمانيا الرئيسية لا يبدون إي فاعلية قتالية بعد أن قام هتلر بحربه الصاعقة ضد بولونيا وبعدها حتى مطلع 1940، ومنحوا فيها القيادة العسكرية الفاشية الفرصة في التوسع والقيام بغزو الدانمارك والنرويج وفرنسا والبلقان، وكان استسلام فرنسا وخضوع حكومة بيتان للسلطة الفاشية قد أدى إلى نتائج مهمة في المستعمرات الفرنسية.

في سوريا ولبنان تبعت الدكتاتورية العسكرية الفرنسية(النظام الجديد) الفاشي عندما اتفق القائد الأعلى لجيش البحر المتوسط الجنرال ميتلهاوزر Mittelhauser والماريشال بيتان على أن يكون الجنرال دينتزDentz ممثل حكومة فيشي الموالية لألمانيا، أن يكون القوميسار الأعلى، والذي قرر بشكل حاسم ونهائي على تبعية مناطق الانتداب الفرنسية إلى الألمان والإيطاليين.

ومع استلام السلطة من خلال حكومة فيشي، بدأ في نفس الوقت إرهاب شديد الوطأة ضد ممثلي الكتلة الوطنية، وكذلك ضد كافة القوى الديمقراطية المعادية للفاشية، وقام عملاء للفاشية باغتيال أحد مؤسسي الحزب الوطني، الدكتور الشابندر في تموز ـ يوليه/ 1940، كما زج بخالد بكداش وقادة آخرين من الحزب الشيوعي، وعدد كبير من الديمقراطيين في السجون لسنوات طويلة، وأزيلت آخر بقايا الديمقراطية، كما سرح من الخدمة ضباط وموظفون وطنيون وديمقراطيون، وسرت في كلا البلدين موجة عدم كفاية الغذاء واتجاهات التضخم، والفساد وطغيان الموظفين الاستعماريين الفرنسيين.

وفي بداية عام 1941 هب الوطنيون السوريون واللبنانيون في تظاهرات ضد الديكتاتورية الفاشية، وفي 23/شباط ـ فبراير/1941 تنادى الناس إلى الإضراب العام في دمشق، وسرعان ما امتد إلى مدن أخرى مثل بيروت، حلب، حمص، حماة، وقامت الإمبريالية الفرنسية باعتقال الكثير من الوطنيين، وفي الوقت نفسه كان على الإدارة الفرنسية اتخاذ الإجراءات لتحسين وتوفير المواد المعيشية. وفي 1/ نيسان ـ أبريل تأسست حكومة سورية جديدة، وفي 5/ منه في لبنان، ألقي على عاتقها بعض واجبات إدارة نظام الانتداب، ولكن حتى مع هذه التنازلات لم يكن بوسع السلطات الاستعمارية الفرنسية صد وإيقاف الحركة الوطنية، وقد أضافت الشعبية التي يتمتع بها الجنرال ديغول واللجنة المشكلة باسم (فرنسا الحرة)، من متاعب الإدارة الفرنسية التابعة لحكومة فيشي.

وتحت تأثير حركة رشيد عالي في العراق، تحركت حركة التحرر السورية بفاعلية، وبقيادة هامة وحاسمة من ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار أسست القوى القومية "لجنة دعم العراق" الذي تطور لاحقاً إلى "حزب البعث"، وخشية انهيار نظام الانتداب عرضت حكومة فيشي

الفرنسية الموالية للألمان على ألمانيا الفاشية في أيار- مايو/1941 احتلال حوض البحر المتوسط، بعد أن كانت قوات السلاح الجوي الألماني قبل ذلك تستخدم المطارات السورية من أجل تقديم الدعم لحركة الانتفاضة العراقية إبان اندلاعها.

ولكي لا تستغل دول المحور بلدان حوض البحر المتوسط(من المستعمرات الفرنسية)، في تحركاتها العسكرية واستبعاداً لهذا الاحتمال، أمر ونستون تشرشل مباشرة بعد اندحار حركة رشيد عالي الكيلاني، السيطرة البريطانية على سوريا ولبنان.

وفي 8/ حزيران - يونيو/1941 بدأت وحدات بريطانية بالحركة من فلسطين والعراق بضرب حركة فيشي في سوريا ولبنان، وكانت مدعمة بلواءين من قوات فرنسا الحرة، كما استخدمت بريطانيا وحدات من "الفيلق العربي" الأردني، ووحدات مجهزة خصيصاً لهذا الواجب من المنظمة الصهيونية "الهاغاناة" في فلسطين، وانتهى القتال باستسلام الجنرال دينتز في 14/ تموز - يوليو/1941 في عكا، وبذلك انهار النظام الفاشي في سوريا ولبنان.

وقبيل تقدم القوات البريطانية - الفرنسية(الحرة)، أعلن الجنرال كاترو Catroux القائد العام للقوات الفرنسية الحرة في الشرق الأوسط باسم الجنرال ديغول وبموافقة بريطانيا العظمى، رفع نظام الانتداب، وبذلك أمّن دعم جميع القوى الوطنية والديمقراطية، مما أدى بشكل حاسم إلى إزاحة نظام فيشي، وهو ما ساعد على إبعاد الخطر الفاشي عن الشرق الأوسط.

وقد أعلن الجنرال كاترو الذي سمي بالمندوب العام الفرنسي أمام البرلمان السوري في 27/ أيلول - سبتمبر/1941، والبرلمان اللبناني في 26/تشرين الثاني - نوفمبر/1941، أعلن أن الاستقلال مرهون بظروف الحرب ومتطلباته، وقد احتفظوا بالسيطرة على نظام إدارة الانتداب وكذلك السيطرة الفرنسية على قوى الشرطة والاقتصاد. وفي دمشق استمر الموظفون العاملون السابقون وواصلوا عملهم في عهد فرنسا الحرة.

وكانت الهزيمة العسكرية لفرنسا عام 1940 قد جعلت من الجزائر، تونس، مراكش، تحت السيطرة المباشرة لقوى المحور الفاشية، وبمساعدة نظام فيشي و"لجنة السيطرة والحفاظ على شروط وقف إطلاق النار والهدنة" اتبعت سياسة نهب هذه البلدان، إذ كانت كميات هائلة من خام الحديد، الفسفور، ومعادن مختلفة، ومواد خام، ومواد غذائية، تأخذ طريقها إلى ألمانيا وإيطاليا والقوى الفاشية التي كانت تؤمن حاجات قواتها في ليبيا من أقطار المغرب العربي، كما كانت الضرائب تشكل ضغطاً على السكان، لذلك كانت حاجات السكان لا تجد كفايتها من خلال مصادرات الحبوب وانعدام العدالة في توزيع المواد الغذائية والمنسوجات، وتصاعدت وفيات الأطفال لا سيما في القرى، وكانت الأسعار تتصاعد في الجزائر وبلغت حتى عام 1941 نسبة 171% مقابل أعوام ما قبل الحرب.

وقد استخدمت القوى الفاشية أقطار المغرب أيضاً كقواعد استراتيجية، واستفادت السفن الحربية الألمانية والإيطالية من المياه الإقليمية كمخابئ، إذ تعين على حكومة فيشي في صيف عام 1941 أن تأمن موانئ الجزائر، كازابلانكا(الدار البيضاء) كقواعد للأساطيل والسفن الفاشية، وكانت المطارات المغربية تستخدم لإقلاع طائرات قوات المحور الجوية للإغارة على جبل طارق، واستغلت إسبانيا الفرانكوية هزيمة فرنسا وقامت باحتلال الجزء الجنوبي من طنجة في 25/ حزيران - يونيو/1940.

وأطلقت سلطات فيشي في أقطار المغرب إرهاباً لا مثيل له فكانت السجون تغص بالقوى الوطنية لا سيما الشيوعيين العرب والفرنسيين، وأيضاً من الإسبان الجمهوريين ممن يعيشون في المهجر، ومقاتلي الألوية الأممية التي ساهمت في الحرب الأهلية الإسبانية. وكانت الحركة الوطنية قد لحق بها الضعف، فيما كانت القوى الإقطاعية والبرجوازية تتعاون مع سلطات فيشي وتزيد من ثروتها من خلال تزويد قوى المحور الفاشية بالمواد المعيشية وسائر ما تحتاجه من مواد في الحرب، وكان بعض ممثليهم ولا سيما التونسيون وأيضاً جزائريون من البرجوازية الوطنية، كانوا يعلقون الأوهام بأنهم بمساعدتهم لألمانيا الهتلرية، سيكون بوسعهم التحرر من السيادة الاستعمارية الفرنسية، وآخرون كانوا يضعون آمالهم في الولايات المتحدة. وكانت فئات من الشغيلة ومن برجوازية المدن يدعمون الأحزاب الوطنية السرية مثل الحزب الدستوري الجديد في تونس، وحزب الشعب الجزائري.

وكانت الأغلبية من سكان المغرب تقف في الأعوام 1940 و1942 بعيدة عن عمليات وفعاليات حركة التحرر الوطنية، وضد ظلم واضطهاد سلطات فيشي وإجراءات لجنة السيطرة الفاشية، وكانت الأحزاب الشيوعية بالدرجة الأولى تناضل (بصورة سرية) مع جماهير الشغيلة في أقطار المغرب الثلاثة، وكان إرهاب نظام فيشي قد فشل في القضاء على المقاومة، مع أنهم سمحوا له بالاحتفاظ بجيش خاص وشرطة في أقطار المغرب.

وكانت الهيئات السياسية والعسكرية القيادية الألمانية قد تهيأت منذ مطلع صيف عام 1940 للهجوم بكثافة على الاتحاد السوفيتي، لكن احتلال الدانمرك والنرويج، وانتصارات القوات الفاشية في غرب أوربا قلصت من إمكانات قيام جبهة ثانية في الحرب، وسمحت لجنرالات هتلر توجيه الجزء الرئيسي من جيوشهم العدوانية باتجاه الشرق.

وقبل بدء عملية (باربا روسا) قررت القيادة الفاشية العليا تأمين الجناح الجنوبي الشرقي من خلال الهجوم على يوغسلافيا واليونان، واستكملت ذلك من خلال غزو جزيرة كريت(في بناء المواقع العسكرية لقوى المحور في شرقي البحر المتوسط).(13). ويبدو أن النوايا في احتلال بلدان البلقان له صلة بين الهجوم الذي شنته الفاشية(الفيلق الأفريقي) في برقة والقوى القومية في العراق كمؤشر مناسب من أجل انتفاضة معادية للإنكليز على الرغم من أن العراق لم يكن قد شارك بصورة مباشرة بالأحداث الحربية، فأصابت تأثيرات الحرب البلاد بشدة والتي سرعان ما تسببت في تردي الحالة المعيشية للسكان، وأدت إلى نهوض شعبي عفوي. وكانت السياسة التي كان ينتهجها نوري السعيد المعادية للشعب والموالية للإنكليز قد أثارت سخط السياسيين الذين يلتفون حول ضباط المربع الذهبي ورشيد عالي الكيلاني، وكانت هذه المعارضة تمثل القوى القومية المعادية للإنكليز من ضباط الجيش والمثقفين والبرجوازية المتوسطة. بتشجيع من أجهزة الدعاية الفاشية، أسقطت وحدات الجيش بقيادة المربع الذهبي في 1/ مايس - مارس/1941 النظام وشكل رشيد عالي الكيلاني حكومة برئاسته، وأعلن سياسة الحياد وطالب بجلاء القوات البريطانية من البلاد.

وحيث أن مواقع الإنكليز قد تعرضت للخطر في العراق، فإن الحكومة في لندن وبمساعدة وحدات بريطانية هندية و(الفيلق العربي) شنت في بداية شهر أيار- مايو هجومها ضد قوات الحكومة، ولم تتحقق(تقريباً)المساندة التي كانت برلين قد وعدت الكيلاني بها، لأن الاستعدادات للغزو على الاتحاد السوفيتي كانت قد استنفذت كافة القوى العسكرية لألمانيا.

وبسبب التفوق العسكري للقوات البريطانية تمكنت من تحطيم مقاومة الوحدات العراقية، وفي 30/أيار - مايو/1941، هرب الكيلاني مع المفتي أمين الحسيني إلى إيران، واحتل الجيش

البريطاني العراق بقوة 100 ألف رجل، وعاد عبد الإله ونوري السعيد إلى بغداد من شرقي الأردن، وكانا قد هربا خلال الأحداث، وفي تشرين الأول - أكتوبر/1941 شكل نوري السعيد حكومة جديدة.

وأعلنت الحكومة العراقية في 3/ حزيران - يونيو/1941 تحت ضغط بريطانيا، الأحكام العرفية وقامت بإجراءات تجعل من استعادة أحداث شهر مايس/1941 غير ممكنة، كما أن الأحكام العرفية سهلت العمل ضد الحركة الوطنية التحررية، وتطهير أجهزة الدولة من عناصر المعارضة وإعادة تنظيم الجيش والشرطة، وتعديل الدستور بحيث يحدد من سلطات البرلمان ويوسع من صلاحيات الملك.

ثالثاً: هزيمة قوى الفاشية في شمال أفريقيا وازدهار حركة التحرر العربية 1942-1949

كان انتصار الجيش السوفيتي على الجبهة الرئيسية للحرب العالمية الثانية في معركة موسكو 1941- 1942 يعني تحولاً حاسماً في سير الحرب، وكان الاتحاد السوفيتي يمتلك ليس القيمة الاستراتيجية العسكرية المتفوقة فحسب، بل وأيضاً التأثير السياسي والأخلاقي العميق على الشعوب، وقد نهضت مقاومة جميع البلدان التي مسها اللهيب الفاشي، وكان النضال التحرري في جميع أنحاء العالم يعيش ازدهاراً كبيراً.

وفي أواسط 1942 تحققت في شمال أفريقيا شروط مناسبة لاندحار القوات الفاشية هناك، فكان هجوم الجيش الثامن بقيادة مونتغمري Montgomry الذي كان يقود بالإضافة إلى القوات البريطانية، اللواء البولوني كوبانسكي Kopanski ووحدات يونانية صغيرة، قبرصية، بلجيكية، سودانية. وانطلاقاً من وادي النيل في 23/تشرين الثاني ـ نوفمبر/1942، ومن إنزال الحلفاء في مراكش والجزائر في 8/تشرين الثاني ـ نوفمبر/1942، جعلت أوضاع قوات المحور في حالة سيئة حيث زحف الجيش البريطاني الثامن بدون توقف واستولى في 13/تشرين الثاني ـ نوفمبر على طبرق، وبعد بضعة أيام احتل بنغازي، وفي 23/كانون الثاني ـ يناير/1943 تمكن من احتلال طرابلس.

وكانت قوات المحور قد تجمعت الآن في رأس جسر في تونس، وقاد الأمريكيون والبريطانيون قواتهم في نهاية آذار ـ مارس/1943 في هجوم كانوا قد أعدوا له بعناية، فسقطت تونس وبنزرت في 7/أيار ـ مايو، ثم استسلمت الوحدات الفاشية في تونس بتاريخ 17/ أيار ـ مايو، ووقع 252 ألف ألماني وإيطالي في الأسر، وكانت المعارك في شمال أفريقيا قد كلفت حوالي 100ألف قتيل بصورة عامة، وتم إبعاد الهيمنة الفاشية عن شمال أفريقيا والشرق الأوسط.

في مصر، اتسعت مع انصراف خطر الاحتلال الفاشي مهمة قوى التحرر المصرية، في العمل بثبات في الجبهة العالمية العريضة المعادية للفاشية، كما خلقت في نفس الوقت المقدمات السياسية والأيديولوجية من أجل النضال لإزاحة الهيمنة السياسية للاستعمار البريطاني بصورة تامة.

وبدأ الجناح التقدمي في حركة التحرر المصرية، والذي كان معبّأ بتأثيرات المعطيات الدولية، بتنظيم صفوفه مجدداً، وكان هذا التوجه الجديد هو الأفضل تحضيراً واستعداداً، فقد اشتد تأثير الحركة الوطنية في النقابات، وفي أوساط الطلبة والاتحادات المهنية. تحت هذه الظروف وجدت حكومة الوفد نفسها في آب ـ أغسطس/1943 مدعوة إلى استعادة العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي.

وبنفس الوقت اشتدت فعاليات الضباط الثوريين القوميين في الجيش المصري، ومنذ عام 1942، كانت قيادة منظمة الضباط السرية في يد لجنة مركزية بقيادة جمال عبد الناصر الذي استلم بعد استدعائه من السودان(كانون الأول ديسمبر/1942) الموقع القيادي، "وكانت اللجنة تخطط إلى تأسيس دستور جمهوري بالقوة على أسس ديمقراطية، والعمل على إنهاء السيادة المطلقة للإقطاع اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً، كما ينبغي أولاً طرد الإنكليز من الأراضي المصرية".(14)

وإلى جانب القسم العسكري بقيادة ناصر كان هناك عام 1944 قسم مدني بقيادة أنور السادات يعمل على إقامة الصلات السياسية مع مختلف القوى السياسية والاجتماعية في مصر، وكان أنور السادات قد توسط أثناء الحرب كرجل اتصال بين اللجنة والإخوان المسلمين وجمال عبد الناصر المعلم في الأكاديمية العسكرية(كلية الأركان - المترجم) الذي كان يقود المنظمة العسكرية البالغ عدد أعضائها عدة مئات من الضباط. وفي نهاية الحرب كان عدد أعضاء هذه المنظمة العسكرية يتراوح بين 1200- 1500 المنتشرين في كافة وحدات القوات المسلحة، وقد أصبحت قوة مهمة وكانت قد قررت التدخل بقوة في الصراعات الاجتماعية المحتدمة.

وبينما كانت نهاية الفاشية العالمية تقترب، كان إفلاس طابورهم الخامس في مصر، حزب مصر الفتاة(أطلقت هذه المنظمة بعد عام 1940 على نفسها اسم الحزب الوطني الإسلامي لأسباب تكتيكية) وكانت قد نهضت منظمة الإخوان المسلمين كمنظمة يمينية متطرفة والتي كونت نفوذاً مهماً من خلال معاداة ديماغوجية للاستعمار في مدن وقرى وادي النيل، وفي نهاية الحرب كان عدد أعضاء هذه المنظمة قد بلغ حوالي المليون من الأعضاء والمتعاطفين معها، ومن خلال هذه الأعداد كانت المنظمة قد شكلت وحدات مدربة ومنظمة بدقة مسلحة وعلى مستوى عال من التدريب القتالي.

وكان حسن البنا يقود منظمة الإخوان المسلمين كمرشد لها، وغضت قيادة الوفد النظر عن فعالياتها السرية لتتمكن من خلالها مكافحة الأفكار الماركسية والسيطرة على التوترات الاجتماعية المتفجرة في القرية المصرية. وبعد فشل محاولة الاشتراك الأولى في الانتخابات للتوصل إلى المراكز السياسية في السلطة، انسحبت منظمة الإخوان المسلمين إلى الحياة السرية لتبدأ إرهاباً ضد خصومها السياسيين ولتكسب من جراء ذلك نفوذاً حاسماً.

وفي نهاية الحرب العالمية الثانية، كانت هناك في مصر الظروف التالية: كانت المقتضيات الاستراتيجية للسلطة الاستعمارية والظروف العسكرية للقوات المسلحة البريطانية في الشرق الأوسط ومستلزمات الحرب، قد أدت إلى قطع الصلات (الاقتصادية)بمقاييس محددة مع المركز(بريطانيا)، في التطور الصناعي المصري سواء بتشييد معامل ومنشآت صناعية حديثة، أو إدامة القديمة منها وقد ارتفع الرأسمال المستخدم في الشركات الصناعية المساهمة والتجارة في عام 1939 وحتى عام 1945 من 86 مليون إلى 106 مليون جنيه مصري، وكانت قيمة إجمالي الإنتاج الصناعي لنفس الفترة قد تصاعد من 13 مليون إلى 18 مليون جنيه مصري، وكانت الصناعات الغذائية والمنسوجات والإسمنت وإنتاج النفط أكثر الرابحين في هذا التطور.

ومن أولى الصناعات الثقيلة التي نهضت كانت صناعة الفولاذ التي تعتمد على حديد الخردة، وكانت البرجوازية الكومبرادورية المصرية والرأسمال الأجنبي قد أحرزت في هذه الأوضاع الاقتصادية المؤقتة ثروة حرب هائلة، وعلاوة على ذلك كانت مؤسسة "مركز احتياجات الشرق الأوسط" تنتهج سياسة نهب لمصر دون رادع أو اعتبار، كما أن جزءاً كبيراً من إنتاج الحبوب المصري كان شأنه شأن القطن المصري يباع بأسعار تقل كثيراً عن الأسعار العالمية.

وبهذه الإجراءات هبطت قيمة الإنتاج المصري خلال الحرب من 54، 1 مليون إلى 43، 6 مليون جنيه مصري من المواد الغذائية، وشاع التلاعب بالأسعار والربا الجشع، كما أن الإصدار الذي لا حد له من الأوراق النقدية 28 مليون جنيه مصري عام 1939، و146مليون جنيه مصري عام 1945، وقد أدت كل هذه الظواهر إلى تصاعد أسعار المواد الغذائية بنسبة 317% مقابل أسعار 1939، كما أدت أيضاً هذه السياسة الاقتصادية الفاسدة للسلطات الاستعمارية إلى التسارع في سوء الأوضاع الاجتماعية لجماهير المدن وفقراء الريف كنتيجة

لذلك وهبط الأجر الحقيقي للعمال المصريين من عام 1939 إلى عام 1945 بنسبة 50%، وكانت المجاعة والأوبئة في نهاية سنوات الحرب قد أصبحت ظاهرة مزمنة للملايين من البشر في بلد كان يوماً أهراء حبوب الإمبراطورية الرومانية العالمية.

وفي خريف عام 1944 انفجرت الكراهية ضد السلطات الاستعمارية في مظاهرات جماهيرية ضخمة وقوية تطالب بالاستقلال السياسي التام وانسحاب القوات البريطانية، وإلغاء الأحكام العرفية(الطوارئ) وتوسيع الحريات الديمقراطية، وعندما بدت حكومة الوفد عاجزة وغير قادرة على كبح جماح الغضب الشعبي، أرغم النحاس على الاستقالة في 8/ تشرين الأول - أكتوبر/1944، واستبدلت الوزارة بشخصيات من حاشية البلاط أمثال أحمد ماهر ومحمود النقراشي.

ولم تنجح الصلات التي كانت قد أبرمت حديثاً بين سلطات الاحتلال والعرش في كسر الموجة المعادية للاستعمار، وكانت مصر تعيش عشية ظرف ثوري، وكان الوفد والفئات البرجوازية الكبيرة في المجتمع قد خسرت أخيراً نفوذها المؤثر على حركة التحرر المصرية، واستلمت قوى اجتماعية وسياسية جديدة السيطرة على آخر مرحلة للنضال من أجل التحرر التام من هيمنة الاستعمار.

وفي ليبيا، حسمت هزيمة القوات المسلحة الفاشية في شمال أفريقيا، إذ انهارت السيادة الاستعمارية الإيطالية على ليبيا، ولكن آمال الوطنيين الليبيين الذين شكلوا الوحدة الليبية المسلحة المسماة Libyan Arab Forces المؤلفة من 14 ألف جندي، ساهمت بطرد الوحدات الفاشية ولكن آمالهم في تأسيس دولة مستقلة لم تتحقق، وحلت الإدارة الاستعمارية البريطانية ـ الفرنسية بدلاً من الاستعمار الفاشي الإيطالي، وسياسيون استعماريون بريطانيون وعسكريون قاموا باتخاذ إجراءات سريعة، فوضعت برقة تحت الإدارة الاستعمارية البريطانية، وفي هذا الإطار استلم قادة القبائل الموالين لبريطانيا السلطات المحلية، ووضع نظام الليرة من خلال العملة المصرية، وأقيمت نقاط جمارك بين برقة وطرابلس، وكانت القوات العسكرية الليبية بإمرة ضباط بريطانيين، استلموا مهام تأمين السيادة الإمبريالية ضد مقاومة حركة التحرر.

ومارست بريطانيا في طرابلس خططاً أخرى، وكانت السلطات الفاشية قد أبقت موظفيها كما أعيد فتح المدارس الإيطالية، أما الأراضي التي كان الاستعمار الإيطالي قد نهبها، استمرت ملكيتها لسادة المستعمرين الإيطاليين، وكما في الماضي حيث بقيت الأراضي الليبية تحت السيادة الإيطالية، واستمرت منطقة طرابلس غير محددة بدقة بين السلطتين الاستعماريتين البريطانية والفرنسية في شمال أفريقيا، اتخذت السلطات العسكرية الفرنسية في فزان، نفس الخطوات التي اتخذها حلفاءهم الإنكليز في برقة، وكان الجنرال الفرنسي ليكلير Leclerr قد اتخذ على عجل خطوات من شأنها جعل تلك المناطق تحت الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية، فلم يكن هدف تحرير ليبيا من الاستعمار هدف المستعمرين المنتصرين، بل تجزئة وتقسيم البلاد.

وبينما كان السيد إدريس يساوم على موافقة بريطانيين في إقامة دولة إقطاعية سنوسية تحت الوصاية البريطانية، بدأت المنظمة الليبية الوطنية(مجموعة عمر المختار) المنبثقة من بين أوساط المثقفين البرجوازيين الإعراض عن التعامل مع القادة المتعاونين مع الإمبريالية، وخوض ومواصلة النضال بمنظمة جديدة من أجل الاستقلال، وبدولة ليبية موحدة وبذلك دخلت حركة التحرر الليبية في مرحلة جديدة في نضالها المليء بالتضحيات، ولكن التطورات والتغيرات في شروط وظروف السياسة الدولية الجديدة تنطوي على فرص مادية للنصر.

وفي سورية ولبنان، وبعد ضرب وتمزق السيادة الفاشية، نهضت مجموعة من المنظمات المعادية للفاشية ومنها" النضال ضد الفاشية والنازية" وكانت صحيفتها المركزية "الطريق" قد كسبت شهرة كبيرة. وتحت ضغط الجماهير الشعبية كان على سلطات الاحتلال الفرنسية أن توافق على إجراء الانتخابات البرلمانية في آب - أغسطس/1943، وقد فاز فيها الحزب البرجوازي الوطني(الاتحاد الوطني والقومي) الذي كان يسمى سابقاً(الكتلة الوطنية) بقيادة شكري القوتلي الذي استلم منصب الرئاسة بينما نجح في لبنان "الحزب الدستوري" وصار قائده بشارة الخوري رئيساً للجمهورية.

واعتماداً على(الميثاق الوطني) وعلى الشعب بأسره، أقرّ البرلمان اللبناني في 8/ تشرين الثاني - نوفمبر/1943 مشروعاً جديداً للدستور الذي يؤمن للبنان السيادة الكاملة ولكن "اللجنة الفرنسية التحررية الوطنية"، بقيادة ديغول لم يكن على استعداد لكي يرفع عنها النظام الاستعماري، وواصل المندوب الفرنسي العام جان هيلوا Jean Helleu بحالة الحصار، واعتقل رئيس الجمهورية وغالبية أعضاء الوزارة وحل البرلمان، وهب الشعب اللبناني بعاصفة من الاستياء والاحتجاج، وقامت تظاهرة كبيرة بقيادة المؤتمر الوطني اللبناني التي ينظوي تحتها كافة الأحزاب والمنظمات التقدمية من أجل إعادة العمل بالدستور وأعلن الإضراب العام في المدن، وكانت بيروت والمدن الأخرى مسرحاً لاصطدامات دموية مع القوات الفرنسية، وقد تمكن اثنان من الوزراء من التخلص من الاعتقال، وباشرا بتكوين جماعات مسلحة في الجبال.

وقد أدت مقاومة الشعب اللبناني التي نالت دعماً من الأقطار العربية لا سيما سوريا إلى اضطراب الحكومة البريطانية التي كانت تخشى أن تنقل إلى الأقطار العربية المجاورة، لذلك فقد طالبت بإعادة العمل بالدستور. ومن خلال عمليات كفاحية لجبهة التحرير اللبنانية، وإلحاح وضغط البريطانيين أرغمت"لجنة فرنسا الوطنية الحرة" على إطلاق سراح السياسيين اللبنانيين، وقد طلبت من المندوب الفرنسي العام هيل بدء المفاوضات مع الحكومة اللبنانية، وقد أكدت الاتفاقية التي وقعت بين الطرفين بتاريخ 23/ كانون الأول ديسمبر/1943 على استقلال سوريا ولبنان، كما انتقلت إدارة بعض المرافق الإدارية المهمة إلى الحكومة في دمشق وبيروت، وأعلنت فرنسا عن استعدادها لسحب قواتها على مراحل من هذا البلد الواقع على البحر المتوسط، وكانت القوى الوطنية والديمقراطية في كلا البلدين قد حيّوا الاتفاقية بوصفها خطوة مهمة أخرى نحو الاستقلال التام.

وفي هذا الوقت من الازدهار العام لحركة التحرر الوطنية، قام الحزب الشيوعي في كانون الثاني يناير/1944 بعقد مؤتمره الأول، وفيه تقرر إقامة حزبين منفصلين في سوريا ولبنان، واتخذ كلا الحزبين مؤتمراً وطنياً أعلنا نيل الاستقلال وتصفية بقايا الإقطاع في كلا البلدين كمهمة رئيسية في النضال المعادي للإمبريالية والإقطاع.

وبرغم الوعود حول حماية الاستقلال، امتنعت البرجوازية الفرنسية الكبيرة في نهاية عام 1944 عن بدء التفاوض مع حكومتي دمشق وبيروت، وكانت قواعدها العسكرية تؤمن لها النفوذ على القوات المسلحة الوطنية، والأهم من ذلك ضمان امتيازاتها الاقتصادية. وقد أدى الوقف الأول لفرنسا إلى قيام ممثلي سوريا ولبنان في آذار - مارس/1945 بقطع المفاوضات دون التوصل إلى نتيجة. ومن أجل ابتزاز سوريا ولبنان جعل ديغول القوات السنغالية تنزل تعزيزاتها في بيروت بتاريخ 3 - 7/ أيار - مايو، وردت الإدارة الفرنسية الاستعمارية على تظاهرات الاحتجاج التي قام بها السكان الذين نفذوا إضراباً عاماً بالإرهاب الوحشي، كما حدثت في دمشق، وحلب وحماة، وفي المدن الأخرى، مصادمات شديدة وقتال شوارع بين السكان

المدعومين من الشرطة الوطنية والقوات الفرنسية، وقد قتل في دمشق لوحدها حوالي 400 وطني، وجرح أكثر من 1500.

ومن خلال شجاعة وصمود الشعب اللبناني والسوري والسياسة المعادية للاستعمار، لكلتا الحكومتين، ووحدة القوى الوطنية ودعم الاتحاد السوفيتي لكلا القطرين، وكذلك الرأي العام الديمقراطي، فقد أمكن صد الهجوم الذي سمي"هجوم أيار" الذي قادته الإمبريالية الفرنسية، كما أنها مكنت ويسرت الظروف والشروط من أجل مواصلة النضال لحركة التحرر السورية واللبنانية حيث تحقق النجاح بجلاء القوات الفرنسية من المدن السورية بتاريخ 17/نيسان - أبريل/1946، ومن لبنان بتاريخ 31/ كانون الأول - ديسمبر/1946.

وفي العراق، واجه الشعب سياسة الحكومة الملكية الإقطاعية الموالية للإمبريالية، وطغيان الاحتلال البريطاني بمقاومة حيوية ونشيطة، ونهضت العديد من القبائل الكردية بقيادة مصطفى البارزاني في صيف 1943، وكانت سياسة اضطهاد الأكراد قد احتدت في فترة الحرب بصفة خاصة، وقامت المنظمات الكردية بدعم الانتفاضة التي كانت أثناء الحرب بقيادتها البرجوازية الصغيرة، وألحقت الانتفاضة الهزيمة بوحدات حكومية في آب - أغسطس، وأيلول - سبتمبر، وفي مفاوضات وقع الجانبان في مطلع عام 1944 اتفاقية، لكن الحكومة امتنعت عن تنفيذها، وفي مطلع عام 1945 اندلعت الانتفاضة بقوة جديدة، واستخدمت الحكومة قوات قوية مع القوات الجوية البريطانية وتمكنت من إرغام الأكراد في تشرين الأول - أكتوبر/1945 على إلقاء السلاح وإنهاء الانتفاضة.

وكنتيجة لاحتجاج السكان العرب ضد الأحوال المعيشية الصعبة، قامت في نهاية عام 1941 وبدعم من الحزب الشيوعي والنقابات "حركة حقوق الشغيلة"، ثم تنامت طلباتهم بسرعة، وتجاوزت النضال الاقتصادي وتلاحمت مع النضال من أجل رفع الأحكام العرفية(الطوارئ) ونظام الاحتلال، وأيضاً من أجل الحريات والحقوق الديمقراطية، وقد وجدت الحركة الدعم من المثقفين التقدميين ولدى الكثير من ممثلي البرجوازية الوطنية.

وإلى جانب الاضطرابات التي كانت النقابات تنظمها في السنوات 1943 وحتى 1945، لم يكن ممكناً أن يستمر ذلك إلى الأبد لدى الجماهير المعبأة في المدن، إذ أرغمت الحركة الشعبية العراقية الحكومة على إطلاق سراح القسم الأعظم من الوطنيين المعتقلين في السجون، وإلى إعادة العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي وتحسين مستوى معيشة المواطنين. وبرغم أن هذه التنازلات فقد ظلت الكثير من طلبات القوى الديمقراطية والجماهير الشعبية بدون تحقيق، وهكذا فإن الأوضاع السياسية الداخلية كانت في مطلع عام 1945 تعاني من الأزمة التي وضعت السياسة البريطانية وحليفتها الحكومة العراقية في خطر جدّي.

وكان إنزال القوات الأنكلو أمريكية في شمال أفريقيا في 8/ تشرين الثاني - نوفمبر/1942 قد وضع النهاية لسيادة نظام وحكم فيشي الموالي للمحور في أقطار المغرب، ولكن آمال شعب مراكش، الجزائر، تونس لم تتحقق في التحرر من الاستعمار الفرنسي.

وأصبحت مراكش قاعدة لإمداد الحلفاء في مسرح العمليات الحربية لشمال أفريقيا وإيطاليا، وقد أسست الولايات المتحدة فيها العديد من القواعد العسكرية، كما تدفق رأس المال الأمريكي بقوة إلى الاقتصاد المراكشي، وفي سلطة الحماية ظل كافة الموظفين الفرنسيين في السلطة، بل أن المقيم العام نوجس Nogues استمر في وظيفته.

وطالبت المنظمات السياسية(بدعم من الشعب المراكشي) باستقلال البلاد، وفي بداية 1943 اجتمع فرع الحزب الشيوعي الفرنسي(وكان حتى ذلك الوقت محضور النشاط) مع الحزب الشيوعي المراكشي بقيادة المحامي الجزائري ليون رينيه سلطان Leon Rene Sultan، ثم طرحوا برنامجهم في صحيفتهم(الوطن) والذي دعوا فيه إلى " تقرير المصير كما كل شعوب العالم، وتحديد النظام الذي يرغبون العيش فيه، وأن يكونوا أحراراً في انتخابهم".(15)

وفي المنظمات القيادية للنضال الوطني التحرري كان حزب الاستقلال الذي تأسس في نهاية 1943، وهو حزب برجوازي قومي، وقد قدموا بتاريخ 11/كانون الثاني - يناير/1944 إلى الإدارة الفرنسية وإلى السلطان وإلى قيادة الحلفاء بياناً موقعاً من 58 من الشخصيات، يطالبون فيه بإلغاء نظام الحماية وكذلك القيام بإصلاح نظام الإدارة وقد أيد الجزء الأعظم من السكان هذه المطالب.

وقد أعلن السلطان وعدد غير قليل من كبار الموظفين عن موافقتهم على الرغم من أن حزب الاستقلال أعلن في 19/كانون الثاني - يناير بوضوح بأنه لا يسعى إلى حركة انتفاضة، فقد اعتقل أحمد بلفريج ومحمد يزيدي بتهمة "التواطؤ مع العدو".

ورد السكان المراكشيون على هذا النوع من الإرهاب على سلطة الحماية بتظاهرات احتجاجية قوية في الرباط، سالي، فاس، وخاضوا نضالاً عادلاً مع الجيش، واحتل المتظاهرون مدينة فاس المعقل الرئيسي لحركة المقاومة، وقامت القوات الفرنسية بمحاصرتها، وظل سكانها بدون ماء أو مواد غذائية أو كهرباء، وأبدوا مقاومة بطولية وبعد الحصار اجتاح الجنود الفرنسيون في 10/شباط - فبراير/1944 المدينة مدعومين بالمدرعات، واستباحوها نهباً وسلباً وسقط مئات من المراكشيين برصاص الفرنسيين، واعتقل الآلاف من المواطنين، وأعلنت الأحكام العرفية(الطوارئ) وصدرت أحكاماً بالإعدام والسجن، وقد أضعفت هذه الممارسات البربرية للمستعمرين الفرنسيين الحركة الوطنية، وبعد نهاية الحرب دخلت الحركة الوطنية من جديد إلى ميدان العمل بقوة وعزم.

وفي الجزائر، خرج الألوف من المعادين للفاشية من السجون بعد انهيار إدارة فيشي مطلع عام 1943، وأصبحت الجزائر في 3/حزيران - يونيو/1943 مقراً للجنة تحرير فرنسا الوطنية التي عمدت في حزيران - يونيو/1944 إلى تشكيل حكومة مؤقتة، وكان الشيوعيون الفرنسيون قد قرروا في نهاية كانون الثاني - يناير/1944 الانضمام إلى اللجنة.

وكانت البرجوازية الوطنية الجزائرية أثناء الحرب قد تمكنت من الإثراء الملحوظ ووسعت مواقعها الاقتصادية لا سيما في التجارة والزراعة، وهي الآن تطالب بالمشاركة في السلطة السياسية، وكانوا يقصدون تثوير الجماهير واستخدام ذلك لمصالحهم، وفي 10/ شباط - فبراير/1943 قدم ممثلو البرجوازية الوطنية الملتفين حول فرحات عباس، إلى مسؤولي السلطات الفرنسية الجدد "بيان الشعب الجزائري"الذي ينص على تأسيس جمهورية جزائرية ذات دستور وحكومة ذاتية وبرلمان وجيش جزائري، ذي صلات فيدرالية مع فرنسا. ورفض الموظفون الفرنسيون هذه الطلبات كما فعلوا سابقاً في "مشروع الإصلاحات" في إعلان طلبات 23/ أيار - مايو/1943.

وكان موقف البرجوازية الوطنية الجزائرية من أجل استقلال الدولة غير متجانس، إذ أن قواها اليمينية رضخت للنفوذ الفرنسي، ولاذت بالصمت والسكوت حيال سياسة الصهر والتذويب(الفرنسة)، فقد كانوا مع إصلاحات"اللجنة الوطنية لتحرير فرنسا" راضين عن إعلان

7/آذار- مارس/1944 من خلال 60 ألف جزائري منحوا الجنسية الفرنسية و1،6 مليون الحقوق المدنية المحدودة.

وقد ظل جناح آخر من البرجوازية الجزائرية مع فرحات عباس مخلصين لمبادئ الإعلان (المانفيست)، وشكل في 14/آذار - مارس/1944"اتحاد أصدقاء الإعلان والحرية" الذي انضم إليه أيضاً أتباع حزب"الشعب الجزائري" الذي وسع نفوذه بسرعة لا سيما بين الفلاحين وفئات الشغيلة في المدن ويقدر عدد أتباعه ب500 ألف إلى 600 ألف عضو، وقد تسبب سوء موسم وحصاد عام 1944/1943 في إشاعة الجوع بين السكان وهجرة جماعية للفلاحين الفقراء إلى المدن ورفعوا بذلك أرقام العاطلين عن العمل، وباشتداد الاستياء من الظلم أدى إلى انضمام أعضاء جدد إلى الحركة السياسية.

وأدى تنامي حركة الجماهير إلى اضطراب بين الموظفين الاستعماريين، وفي أثناء الاحتفال في 1/ أيار - مايو/1945 جرت العديد من الأحداث التي قتل فيها الكثير من العمال في الجزائر، وهران، وقام السلطات الاستعمارية الفرنسية في 8/ أيار - مايو/1945 بالاستفزازات خلال الاحتفال بمناسبة الانتصار على الفاشية الهتلرية، وقد عرضت التظاهرة بهذه المناسبة أيضاً المطالب باستقلال الجزائر، وحدثت الاصطدامات مع السلطة الاستعمارية التي أطلقت النار على الجماهير، وكرد على ذلك نهضت الجماهير في انتفاضة ضمت 50 ألف من السكان، وسارعت فرنسا بإرسال قوات إلى مراكز الانتفاضة، كما قامت البارجة دغواي تروين Duguay Troin بقصف المدن والقرى على الساحل وبدأت عملية اصطياد للبشر وقتل من السكان العزل الذين لا يمتلكون وسائل الدفاع عن أنفسهم. وفي منطقة قسطنطينية سقط 45 ألف جزائري في مذبحة على يد جنود الاستعمار والمجاميع المسلحة من المستوطنين، وقد ضربت منظمة (اتحاد الأصدقاء والإعلان عن الحرية) ووجهت ضربة شديدة إلى حركة التحرر الجزائرية.

وكان نصر الاتحاد السوفيتي قد أدى إلى تبديل في توازن القوى الدولية لمصلحة قوى الديمقراطية والاشتراكية، وعمقت تلك من الأزمة في النظام الاستعماري العالمي، وقد نمت حركة التحرر الوطنية في المستعمرات والبلدان التابعة، وكذلك في الأقطار العربية حيث انتظمت القوى المعادية للاستعمار في نضال جديد من أجل خوض نضالات جديدة وتحطيم نهائي لقيودها الاستعمارية.

هوامش الفصل السابع

1. Tillmann, H: Deutschland AraberPolitik im zeiten weltkrieg, Berlin 1965
2. Tillmann. H: Die Politik des Deutschen Imperialismus gegenüber arabischen Befreiungsbewegung an Vorabend und wärend des zweiten Weltkrieges, In Arbeiter Klasse und National Befreiungskampf. Wissenschaftlische Zeitschrift Karl Marx Universtät, Leipzig, Geselschaft und Sprachwissenschaftliche Reihe, Sonder band 11, 1963m S. 158
3. Hinrici, E: Die Deutsche Krieg führung und das Mittelmeer in den Jahren 1940-1943. Diss , Heidelberg 1954, S.19
4. Förster, G , Groebler: Der zweite Weltkrieg- Dokument. Berlin 1972, S. 112
5. Tillmann, H.: Deutschland and Araber Politik Im Zweiten weltKrieg, A. O.O., S. 62
6. Picker, H. : Hitlers Tischgespräche, in Führer Hauptquartier 1941-1942, Stuttgart 1963, S.461
7. Weltgeschichte in Zehn Bände, Band 10, Berlin, 1968, S.52
8. Tagebuch eintragung des chefs des Genralstabes des Heeres, Franz Haralder, von 3 Juni zit. Nach Forster 6/0 Groebler, a.a.o. S. 115
9. Geschichte der Deutsch Arabeiterbewegung, Bd 5, Berlin 1966, S. 293
10. El Sadat ; A: Die Ägyptische Revolution, Düsseldorf- Köln, 1970, S.35 ولاحظ أيضاً الاتصال الأول لعزيز علي المصري مع الأركان العامة الألمانية، مؤلف راتمان: Ratmannm L. : Ägypter im Exil 1914- 1918 Berlin 1974
11. Markov, Wiwege und Formen der zweitenweltkrieg in zeitschrift für Geschichwissenschaften Berlin 1970, S. 730
12. Ebenda
13. Deborin, G.A: Der zweite weltkrieg, Berlin 1959, S. 119
14. El Sadat, A. : Die Ägyptische Revolution, a.a.o., S.31
15. Ayache, A: Marokko – Bilanz eines Kolonial unternehmens, Berlin 1954, S. 438

الفصل الثامن

ملاحظات
و
نظرة عامة

تتوفر لدينا الملاحظات التالية كإجمالي وكتقييم للنضال التحرري للشعوب العربية في المرحلة الأولى للأزمة العامة للرأسمالية والنظام الاستعماري العالمي:

أدى انتصار الوفاق (كتلة دول الوفاق Entente) وانهيار الإمبراطورية العثمانية إلى تغيرات في الخارطة السياسية في الشرق الأوسط بشكل كبير وجذري، وأصبح العالم العربي جزءاً من الإمبراطورية الاستعمارية البريطانية والفرنسية امتداداً إلى مناطق العمق في شبه الجزيرة العربية بالإضافة إلى سيادة إيطاليا على ليبيا بسبب القرب الجغرافي للمناطق العربية من أوربا، فقد افتتحت حقول للفعاليات التابعة للاحتكارات الرأسمالية الجائعة إلى الأرباح، وتأمن لها إمكانيات لتصدير رأس المال، ووفرت لها خامات ثمينة والثروات الطبيعية ونمواً انفجارياً وأيدي عاملة رخيصة اتساع السوق لإنتاج واسع النطاق للصناعة الرأسمالية، ووضعاً استراتيجياً ساخناً لأهميتها التي تضاعفت بعد قيام الدولة السوفيتية. وهكذا كان النضال من أجل إعادة اقتسامها كما أنها كانت جزءاً مهماً في خطط وأهداف الحرب للمحور الفاشي وفي البرامج التوسعية لإمبريالية الولايات المتحدة أيضاً.

وكما عرضنا في الفصول السابقة، كثيراً ما اصطدمت السياسة الاستعمارية بالمقاومة الصلبة المستمرة لقوى التحرر العربية التي وبسبب سعتها الجغرافية، ووحدتها القومية، وعمقها الاجتماعي وتنظيمها السياسي ونضجها الأيديولوجي وتنوع أشكال النضال في القرن التاسع عشر وقبل الحرب العالمية الأولى في العمليات الاحتجاجية المعادية للاستعمار، كانت تلتهب بصورة عفوية بين القوى الطبقية لما قبل الرأسمالية، ومن القوميين البرجوازيين، وقد أصبحت ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى نقطة تحول في النضال التحرري المعادي للاستعمار الذي تخوضه الشعوب العربية، ومن خلال تشقق وحدة النظام الاستغلالي الإمبريالي وتأسيس الاتحاد السوفيتي حيث تدور العملية الثورية في عصرنا، وفي الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية وافتتحت حركة التحرر بذلك للمرة الأولى آفاقاً منتصرة.

ومن حيث مساهمة الطبقات والفئات في النضال التحرري، وطبيعة القيادات والأساليب النضالية والأيديولوجية السائدة في هذه المرحلة، فقد كان هناك طرازين يمكن تميزهما في حركة التحرر العربية المعادية للاستعمار: في الريف المراكشي، ليبيا، مناطق الدروز السوريين، وفي البداية العراق أيضاً. وتخت ظروف والشروط المتغيرة في اليمن، كانت المقاومة المعادية للاستعمار تحت قيادة الفئات العليا لنظام القبائل التقليدي، والتي كانت قواعدها الاجتماعية / الاقتصادية، شبه إقطاعية وإقطاعية، وكانت قد بدأت بالاتساع تدريجياً، ومع أن عملية التمايز الطبقي بين الأرستقراطية القبلية وجماهير أبناء القبائل، كانت دائماً تسير بوضوح نحو التخفيف منها، وهكذا فقد كانت عملية التمايز الطبقي بصورة إجمالية في مرحلة متدنية وواطئة بسبب أخطاء العملية الرأسمالية. وفي غضون هذه العملية فقد تكرست عمالة القيادات التقليدية للقبائل من الفئات الإقطاعية الاستغلالية وتحولوا إلى مواقع موالية للاستعمار وفي العمل في جهاز السلطة الاستعمارية.

كان اتجاه العمل النضالي لمقاومة الاستعمار في نهاية العشرينات والثلاثينات في مصر، سوريا، لبنان، مراكش، الجزائر، تونس، العراق، السودان، فلسطين، من مهام حركة التحرر الوطنية، والتي كانت جوهرياً تحت قيادة القوى الطبقية المتوسطة، وبرغم الفروق الكبيرة بين هذه البلدان فإن تجاور بعضها لبعض وتوافر الأشكال الاجتماعية/الاقتصادية وشبه الإقطاعية التي يستحسنها الاستعمار هي الغالبة، وأن تطور الرأسمالية قد جرى تحت شروط وظروف النهب الاستعماري بصورة سيئة للمنتجين الذين كانوا يبرزون تدريجياً من بين الهياكل التقليدية، أو من

التلاؤم مع الظروف الجديدة. وبدأ الإقطاعيون من كبار ملاكي الأرض باتباع أساليب استغلال رأسمالية، وقد مالت الرأسمالية الصناعية إلى وضع أرباحها في ملكيات العقار الأمر الذي منح الرأسمالية صفات شبه إقطاعية.

وفي تحليل مساهمة القوى الاجتماعية في هذه الأقطار في النضال التحرري المعادي للاستعمار، نتوصل إلى الخلاصة التالية:

أن شيوع الأشكال الرأسمالية في اقتصاد الأقطار العربية في ظروف وشروط السيادة الاستعمارية كان مرتبطاً على الأغلب بسيطرة الرأسمال الأجنبي، وقد نتج عن ذلك بأن الشغيلة بدأت بصفة عامة بالتطور مبكراً وبصورة منسقة عما هي عليه البرجوازية المحلية. وتحمل الشغيلة العربية جميع صفات وملاحظات القطاع الاجتماعي المتغير(المشوه) ليس في هذه المرحلة فقط من تهشيمها وتشتتها إلى عدد كبير من المعامل الصغيرة، وقد كانت صلاتها متميزة مع أنماط العلاقات الإنتاجية لما قبل الرأسمالية التقليدية، وإن نشوء بروليتاريا الصناعات الحديثة قد جرت ابتداء في ظروف معقدة، وتأسيس البروليتاريا العربية وتطورها إلى طبقة قد جرت تحت هذه الشروط في عملية معقدة وطويلة، وكان تأثير السيادة الاستعمارية وتقييد العمال من خلال التقاليد الاجتماعية والشروط والظروف الأيديولوجية والأمية وتأثير الهياكل الاجتماعية المتخلفة، وتخلف مستويات التنظيم قد أخّرت نشوء وتكون وعي اجتماعي وأضرت بعملية التحولات.

وبعد ذلك دخلت البروليتاريا العربية كظاهرة في نضالات هذه المرحلة ضمن الحركة المعادية للاستعمار للمرة الأولى كقوة سياسية مستقلة، مع أنها لم تكن بعد قادرة على ممارسة النفوذ الحاسم، وهكذا فقد قدمت الأحزاب الشيوعية الفتية والنقابات أساليبها في الفعاليات ذات المستوى النوعي المتقدم إلى النضال التحرري الوطني الذي ارتفعت قواه الضاربة، ومنحته طابعاً اجتماعياً. ومارست الأحزاب الشيوعية وحركة النقابات العربية في أعوام الثلاثينات دوراً مهماً، بصفة خاصة خلال الحرب العالمية الثانية تأثيراً بالغاً في تمثيل مصالح الطبقة العاملة التي من خلالها اتضح نهجها السائد في اتجاهات الصدام المعادية للاستعمار على صعيد الصراعات الاجتماعية وردت إلى الخلف الإيديولوجية البرجوازية ضمن الحركة العمالية، وأشارت إلى أن اليوم الأخير في النضال المنتصر ضد النظام الاستعماري في الاتجاه الرئيسي سيكون هو اليوم الأول في الصراع الطويل من أجل التحرر الاجتماعي، وإن أرشيف القوى الاستعمارية آنذاك كان يشير إلى أن الاستعمار والقوى المتحالفة معه من القوى المحلية، كانت مصممة قد تعرفت وشخصت مبكراً هذا الخطر وتصدت له بعقوبات وإجراءات خالية من الإنسانية والرحمة وباتباع ديماغوجية اجتماعية ومحاولة إعاقة ربط الأفكار الاشتراكية بالحركة العمالية العربية.

وكما كان الأمر في عموم عالم المستعمرات المضطهد، كذلك كان الأمر في الأقطار العربية، إذ كان النضال التحرري المعادي للاستعمار على علاقة وثيقة بالمسألة الزراعية، وكان سكان القرى العرب في نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى نسبة 90% منهم من فقراء الفلاحين والعمال الزراعيين، ولا تتطابق بأي حال تلك الاتجاهات التي ظهرت في الأدب السياسي التي تعد الفلاحين العرب من صغار الفلاحين والفئات الوسطى مع المعطيات الحقيقية، إن جل الفلاحين العرب كانوا في أكثريتهم الغالبة يعيشون في ظروف تفكك وانحلال الجماعية التقليدية، وكذلك في ظل علاقات استغلالية رأسمالية وقبل رأسمالية في شقاء لم يسبق له مثيل. وبالدخول السريع للرأسمال في الزراعة، أدى إلى توسع نظام الإيجار الذي أصبح بلاء لجماهير سكان الريف، وانتشرت بينهم أيضاً أمراض عديدة، وبحسب المعطيات الرسمية كان هناك في مصر عام 1945 أكثر من 80% من السكان مصابين بالتراخوما و75% بالبلهارسيا، ولم يكن عمر

الفلاح يتجاوز(كمعدل)، أكثر من 30 عاماً، وكانت معدل وفيات الأطفال في القرى العربية يتراوح بين 45 - 60%.

وقد كونت فئات الفلاحين المستغلة القاعدة الجماهيرية للنضال المعادي للاستعمار، وهذا يسري أيضاً على فئات فقراء القرى التي كانت تناضل تحت تقاليدها القبلية، وفئات الفلاحين التي كانت تناضل تحت راية البرجوازية الوطنية والتي ساهمت في النضال التحرري.

ومن ثم لا ينبغي التجاهل تماماً بأن انتشار القوة الثورية لجماهير الفلاحين هي مهمة بالغة التعقيد، وإن أشكال الاضطهاد والقمع المتنوعة كانت تستتر خلف الجهل والتقاليد الاجتماعية المحافظة، والارتباط مع قوى الإنتاج المتخلفة وأساليبه، ثم الخوف من قوة الاستعمار المتفوقة كما أن المستغلين الأجانب وكذلك المحليين لم يكونوا ليسمحوا بتغلغل الأفكار التقدمية إلى عالم الفلاحين إلا ببطء شديد، ويزيدون من صعوبة ومعرقلات العلاقات التنظيمية في حركة التحرر.

وقد مثلت الفئات الوسطى في المدن قوة مهمة في معسكر حركة التحرر الوطنية، وكوّن العمال مع الطلبة العناصر الأكثر نشاطاً وفاعلية في التظاهرات الجماهيرية المعادية للاستعمار، وفي ذات الوقت فإنهم حملوا الآيديولوجية الوطنية القومية المعادية للاستعمار إلى القرى بصورة سرية غالباً من أجل كسب الفلاحين إلى النضال التحرري، وفي مرحلة الحرب العالمية الثانية لا سيما بعد التحولات التي حسمت الحرب في ستالينغراد، فقد تحول العديد من الطلبة إلى الأفكار الماركسية اللينينية ولعبوا دوراً هاماً في النضال التحرري لمرحلة ما بعد الحرب كشركاء ارتباط للحركة العمالية، كما مارس صغار التجار والحرفيين نفوذاً واسعاً في أسواق المدن العربية، وأيضاً هؤلاء الذين أفلسوا بسبب التجارة الأجنبية وتنامي رأس المال، حيث باشروا بفعاليات ضمن حركة التحرر، أو كانوا بالأحرى يعدون من شركائهم الأقوياء في التحالف.

وقد مارست البرجوازية الوطنية السيطرة في حركة التحرر(في نهاية هذه المرحلة بما يقرب الشمول غير المحدود)، وكانت قد نجحت في إعاقة التوسع الاقتصادي للرأسمال الأجنبي تحت سيادة الاستعمار بشكل حاسم، لذلك فقد أصبحت عمل في الأخير إلى جانب حركة التحرر، ولاحقاً في قمتها. كما أن مواقع البرجوازية المعادية للاستعمار أصبحت في الأخير تعمل مباشرة من أجل هدفها المتمثل بتوسيع سيادتها السياسية، ولتأسيس دولة برجوازية رأسمالية، وأن تتمكن من جني الأرباح بدون أن يعيقها عائق، فقد مارست عناصرها الحقيقية كما في أعوام الثلاثينات في مصر السيطرة على حركة التحرر، وهكذا فقد حاولت بصورة مبكرة أن تخون نضال الجماهير الشعبية، ووضع الاستقلال السياسي على طريق عقد الصفقات التوفيقية وتقديم التنازلات إلى الإمبريالية، وكذلك حرف النضال المعادي للاستعمار وإبعاده عن أهدافه الحقيقية في المصالح الطبقية , وبذلك أيضاً كانت وطنية البرجوازية العربية لها جانبين: الوعي الوطني والقومي المعادي للإمبريالية من جهة، والحيلولة دون تقديم المطالب الديمقراطية لجماهير الشغيلة من خلال فعالياته النضالية من جهة أخرى.

وبصفة عامة فقد ارتفعت وتصاعدت إلى الأعلى في هذه المرحلة قوى وطنية عريضة متنوعة، شملت (متفاوت في درجة تنظيمها وفي ثباتها على نهج معاداة الاستعمار)الفلاحين والفئات الوسطى، وتوصلوا حتى إلى البرجوازية الوطنية والبروليتاريا، وفي بعض الأحيان شملت حتى القوى الطبقية الإقطاعية وشبه الإقطاعية، ولم يتم إبعاد العناصر الطفيلية المرتبطة مباشرة بالمراكز الإمبريالية. وكان الخلاف في وجهات النظر موجوداً بين حركة التحرر العربية في بعض الأقطار بين القوى الطبقية والفئات المستعدة للنضال، وكذلك بين المجاميع العرقية

والدينية، وفي بعض الأحيان كانت الصراعات تندلع فيما بينهم، ولكن بصفة عامة كانوا خاضعين للتناقض الرئيسي مع السلطة الاستعمارية، ولكن توازن القوى لم يتحقق إلا بالنصر الذي تحقق في ثورة أكتوبر الاشتراكية، كما أن الأزمة الرأسمالية أضعفت الاستعمار سياسياً، وأرغمته على تقديم التنازلات، وقد أظهرت نجاحات الوطنيين في مصر وسوريا ولبنان والعراق بكل وضوح بأن أيام الاستعمار معدودة، وأن التحولات العميقة في توازن القوى العالمية، والتي مكنت أيضاً قوى التحرر العربية وجعلتها في وضع يقودها إلى النصر في مرحلة التحرر الثوري من الاستعمار.